ألف كتاب وكتاب

أنتوني بيرجس

المسلمون قادمون

أو "١٩٨٥"

ترجمة

أحمد صديق

محمود عبد الحليم

الزهراء للإعلام العربي

شــكـر

نتقدم بخالص الشكر إلى الأستاذ نعيم مشرقى مدرس الأدب الإنجليزى بكلية الألسن الذى لم يبخل بجهد أو بوقت فى سبيل مراجعة الترجمة أو توضيح ما غمض علينا فى النص الإنجليزى .

المترجمان

مقدمة

لا تكاد أذهان أهل الفكر فى العالم الغربى تكف عن رصد مايدور فى العالم وتحليله وتقديمه للقراء حتى يتسنى لهم اتخاذ موقف مشترك حياله . ومن هنا جاء اهتمام الغرب برصد « الظاهرة العربية » والخطر الذى يتهدد الغرب لو استخدم العرب كل مقدراتهم ــ المالية والفكرية والعقائدية ــ استخداما فعالاً ولم يقتصر رد الفعل الغربى على التقارير السرية والأبحاث وتوصيات مراكز الدراسات ، بل إن الأمر قد وصل إلى « إحساس » المفكرين والأدباء بهذا الخطر القادم ، فانطلقوا يدقون نواقيس الخطر بما يكتبون ، وإن اختلفت درجات التعبير وقنواته . فقد نجد الهجوم مستترا خلف عبارة ساخرة فى قصة أو تمثيلية ، وقد نجده واضحاً صريحاً فى كتاب مخصص كله لهذا الغرض .

والكتاب الذى بين أيدينا من ذلك النوع الأخير ، إذ يكاد مؤلفه يخصصه كله للهجوم على العرب والتحذير منهم . ورغم ذلك فإن المثقفين العرب لم يحفلوا به مع أنه فى عام ١٩٨٤ لم يكن القارىء يفتح جريدة أو مجلة إلا ويطل من صفحاتها كلام عن جورج أورويل وروايته « ١٩٨٤ » . أما هذا الكتاب فرغم أنه « معارضة روائية » لـ « ١٩٨٤ » ، ورغم أن موضوعه يمس العرب مباشرة فإنه لم يأخذ حقه لدى القارىء العربى .

والمدهش أن «أنتونى بيرجس» مؤلف الكتاب ذائع الصيت على المستويين الأدبى والفكرى ، وأن الرواية كتبت عام ١٩٧٨ ، وطبعت غير مرة . ويبدو أن موضوع الرواية هو عينه سبب تجاهلها .

وقد يتساءل البعض عن قيمة الكاتب بين الأدباء العالميين ، وهل موقفه هذا موقف فردى أم أنه يمثل تياراً فكرياً غربياً ؟ وما ثقل هذا التيار بالنسبة لغيره من التيارات الفكرية والغربية ؟ وقبل أن نجيب على هذا التساؤل سنلقى بعض الضوء على أنتونى بيرجس وإنتاجه الأدبى .

أنتونى بيرجس :

بيرجس كاتب بريطانى ولد فى مانشستر ١٩١٧ ، وتخرج فى جامعتها عام ١٩٤٠ ، وشغل وظائف عدة منها التدريس فى الجيش وجامعتى « برنستون » و« كولومبيا » وغيرهما . كما عمل مستشاراً أدبياً لكثير من الدوريات .

وتتنوع أعمال بيرجس بين مختلف الأشكال الأدبية والفنية ، وكان اهتمامه فى مطلع شبابه بالتأليف الموسيقى ، ثم تحول بعد ذلك إلى التأليف الأدبى ، وإن ظهر هذا الاهتمام بالموسيقى فى أعماله الأدبية ، خاصة فى روايته « سيمفونية نابليون » ومسرحيته الموسيقية « سيرانو » . لكن يبقى إنتاج بيرجس الأدبى ـــ وبخاصة فى الرواية والدراسات الأدبية ـــ هو مايعطيه ثقله فى عالم الأدب الإنجليزى المعاصر .

وقد نشرت أولى رواياته « وقت النمر » عام ١٩٥٦ ، وتبعتها روايات أخرى يبلغ عددها أكثر من ٢١ رواية منها « العدو المتدثر » (١٩٥٨) ، و« سرائر فى الشرق » (١٩٥٩) ، و « الطبيب مريض » (١٩٦٠) و « يد واحدة تصفق » (تحت اسم جوزيف كيل ـــ ١٩٦١) ، لكن أكثر رواياته شهرة على الإطلاق وأكثرها تعبيراً عن إتجاهه الأدبى والفكرى رواية « الإنسان الآلى » الصادرة عام ١٩٦٢ .

ولبيرجس قصص قصيرة لم تجمع ، نشرت في بعض المجلات ، كما أن له أعمالاً أخرى مثل « الأدب الإنجليزى : عرض للدارسين » (١٩٥٨) و « الرواية اليوم » (١٩٦٣) ، و « الرواية الآن » (١٩٦٧) ، وله دراسات في اللغة مثل كتابه « تبسيط اللغة » (١٩٦٤) . كما أن له ترجمات منها « الرجل الذى سرق صناديق الصدقات » لجان سرفان (١٩٦٥) .

ويتضح من هذه المقدمة السريعة غزارة إنتاج بيرجس وتنوعه بين الأشكال الأدبية المختلفة ، كما يتضح منها اهتمامه بالنقد الأدبى والعلوم اللغوية الحديثة . وينعكس هذا الاهتمام ــ وهو اهتمام فكرى أكثر منه فني ــ في رواياته ، التى تتميز بكثافة الجرعة الفكرية مما يكون في بعض الأحيان على حساب العناصر الفنية . وهذا أمر جلى في رواية « ١٩٨٥ » كما سنوضح فيما بعد ، بل إن أفضل رواياته « الإنسان الآلى » لا تخلو من هذه الخصلة ، حتى إن الناقد « برنارد بيرجونزى » قال « إن رواياته تنم عن المقدرة العقلية والقدرة على الابتكار ، وأنها مقنعة إذا ما اعتبرناها روايات أفكار .. » كما قال « إنه يمكننا وصف بيرجس بأنه كاتب للكوميديا السوداء ، تشغل فكره موضوعات ذات مسحة دينية » ويصف بيرجونزى بيرجس بأنه « كاثوليكى مرتد » وإن لم يتحول بالطبع إلى مذهب اللاأدرية الانسانية الذى يدعيه معظم المفكرين الناطقين بالإنجليزية [1] ..ويرجع الناقد هذا الموقف إلى نشأة بيرجس الكاثوليكية الصارمة في « مانشستر » التى صورت له الله « قوة غير منظورة محبة للانتقام » .

وهذا الوصف صادق إلى حد بعيد ، إذ إننا نحس من « ١٩٨٥ » أن بيرجس ــ وإن لم يكن صادقاً في مسيحيته ــ يهاجم المسلمين من منطلق دينى « على أولئك الذين نسوا مسيحيتهم ألا يأمنوا جانب أناس يؤمنون بالحياة الآخرة » . فرغم عدم اقتناعه الفكرى بالكاثوليكية ، فإنه يرى الدين مجرد

(١) الروائيون المعاصرون ــ طبعة ثانية ــ (تحرير : جيمس فنسون) ، سنت جيمس برس ليمتد ــ صـ ٢٠٧

وسيلة لجمع بنى جلدته ضد الغرباء ، وهكذا تحول الدين عنده إلى شيء لا يختلف فى جوهره عن القومية العصبية ، بل إن بعض المسيحيين يرون أنه لا يفهم المسيحية حق الفهم .

نعود بعد هذا العرض الموجز لبيرجس إلى تساؤلنا عن مكانة بيرجس فى عالم الأدب . الواقع أننا لا يمكننا اعتباره أديباً عالمياً بمعنى الكلمة . ولكن أية مناقشة شاملة للرواية الإنجليزية المعاصرة لا يمكنها بحال أن تتجاهل أعمال بيرجس . على أنه يعتبر فى مقدمة المثقفين الناطقين بالإنجليزية ، وأفكاره تمثل بالضرورة تياراً فكرياً أصيلاً لدى الغرب ، فهو لم يأت بهذا الموقف من فراغ ، إذ لا يمكننا فصل الأديب عن مجتمعه وبيئته الفكرية تماماً . كل ما هنالك أن بيرجس هو أحد الذين يقولون بصوت عال ما يُهمس به بين الناس عادة .

ومن هنا لا يمكننا أن نتجاهل عملاً كهذا لمجرد أن موضوعه لا يروقنا ، فسياسة النعامة لن تغير من الأمر شيئاً ، على الأقل يجب أن نتعرف على التيار الذى يمثله هذا العمل ، حتى نفهم علام يرتكز الآخرون فى تصرفاتهم معنا ؟ وحتى يمكننا توقع نمط ردود الأفعال الغربية حيالنا ، وهذا هو مانبتغيه من ترجمة كتاب كهذا .

١٩٨٥ :

يحسن بنا قبل أن نعرض لرواية « بيرجس » أن نذكر القارىء برواية جورج أورويل « ١٩٨٤ » ، التى يعتمد عليها كتاب بيرجس فى جزئيه . وقد ترجمت رواية أورويل إلى العربية أكثر من مرة ، آخرها عام ١٩٨٤ .

كتب أورويل روايته عام ١٩٤٨ ، وتخيل فيها كيف سيكون حال العالم عام ١٩٨٤ .. تخيله عالماً مقبضاً كئيباً سادته الشيوعية الشمولية سيادة تكاد تكون كاملة ، وينقسم إلى ثلاث دول عظمى « تتطاحن فيما بينها للاستيلاء على الموارد الطبيعية الرخيصة الموجودة فى مناطق مستضعفة مثل

الشرق الأوسط وجنوب الهند وأندونيسيا وبعض البلاد فى أفريقيا الاستوائية [٢] » .

وتتبع بريطانيا ــ أو أنجسوك ــ دولة أوشينيا ، وهى دولة شمولية يسيطر عليها حزب واحد ، وقائدها « الأخ الأكبر » الذى تجد صورته فى كل مكان ، وقد كتب تحتها « الأخ الأكبر يراقبك » . وتنعدم الحرية بكافة صورها فى هذه الدولة ، فهناك أجهزة توضع فى البيوت يمكنها التقاط صور المواطنين وأصواتهم فى أى وقت ، كما توجد « شرطة الفكر » ، التى تحاسب الناس على الخواطر التى تدور بأذهانهم ، حتى أن مجرد قول إن ٢ + ٢ = ٤ أمر عسير المنال إذا كان الحزب يرى غير هذا .

ويعتمد الحزب ــ حتى يحكم قبضته على السلطة ــ على عدة أشياء : على الحروب الخارجية ، على اصطناع الأزمات فى السلع الضرورية حتى ينشغل الناس عن التفكير فى جوهر المشكلة على تزييف التاريخ حتى لا تتناقض مواقف الماضى مع مواقف الحاضر ، وأخيراً على ابتكار شكل جديد من أشكال اللغة (اللغة الجديدة) يتم إحلاله تدريجياً محل اللغة القديمة . وتضمن هذه اللغة ــ عن طريق تقليل المفردات إلى أقل عدد ممكن ــ تضييق نطاق أفكار الإنسان ، بحيث لا يمكنه التفكير فى المفاهيم التى لا تود السلطة أن يفكر فيها .

ووسط هذا كله يقدم البطل على كتابة مذكراته ، ويكتب فيها عبارة « يسقط الأخ الأكبر » مراراً ، ضامنا بذلك نهايته المحتومة ، وبعد بعض الممارسات التى يرفضها الحزب يقبض عليه ، وفى « وزارة الحب » يعذب ويجرى له غسيل مخ فيخرج إنساناً آخر محباً للأخ الأكبر .

(٢) أنظر « جورج أورويل : حياته وأعماله » د . رمسيس عوض ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨١ صـ ١٣٣ .

هذه فكرة موجزة عن « ١٩٨٤ » ، فماذا يقول بيرجس في ١٩٨٥ ؟
ينقسم كتاب بيرجس إلى جزئين ــ الجزء الأول نقد لكتاب أورويل ، ويتميز بأسلوب سلس بعيد عن المقالات النقدية الجافة ، فهو يتنوع بين أسلوب الحوار ومخاطبة القارىء مباشرة ، بحيث لا يحس بأى نوع من التعالى عليه من قبل الكاتب ، وفي هذا الجزء يقدم بيرجس قراءته لـ « ١٩٨٤ » التى تختلف عن المعهود ، فهى فى رأيه رواية كوميدية ، ولمعظم أحداثها أصل في بريطانيا مابعد الحرب العالمية الثانية ، كما يرى أن هناك أوجه تشابه وأوجه اختلاف بين « ١٩٨٤ » الرواية ، و ١٩٨٤ ــ السنة منها أن فى الاثنين قوى عظمى غير أن هذه القوى فى عالم اليوم لا تستطيع أن تتحكم فى الدول الصغرى ، فهو يقول فى الجزء الأول :

« صحيح أن هناك حديثاً كثيراً عن مناطق النفوذ ، والنظم التى تدور فى فلك غيرها ، إلا أننا لا نشهد كتلاً كبرى طابعها المركزية وتشترك جميعها فى أيديولوجيات متشابهة على النمط الذى تخيله « أورويل » . إذن فأين تكمن القوة ؟ إن القوة الفعلية التى تقود الآلات توجد حيث البترول الإسلامى ، على الرغم من أن الشرق الأوسط لم يكن بالنسبة لأورويل إلا مجرد جزء من المنطقة التى تسكنها الأيدى العاملة الرخيصة وتتقاتل من أجلها الدول العظمى ... إن الإسلام إحدى الدول العظمى الحقيقية فهو يتمتع بأيديولوجية دينية قوية هيمن أصحابها الأولون على العالم المسيحى فى العصور المظلمة ، وربما عادت لتفرض نفسها على غرب جف فى عروقه الإيمان القوى المتحدى بفضل قرارات مجمع الفاتيكان الثانى » .

ولكن ما بالضبط مجمع الفاتيكان الثانى الذى يرى الكاتب أن المسيحية قد انتهت به ؟

إنه المجمع الذى صدرت بعده وثيقة بعنوان « توجيهات لإقامة حوار بين المسلمين والمسيحيين » ، وقد دعت هذه الوثيقة إلى تغيير الصورة التى يصور المسيحيون المسلمين عليها تلك الصورة البالية التى ورثّنا الماضى إياها أو شوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة ، واهتمت هذه الوثيقة بالاعتراف

بمظالم الماضى التى ارتكبها الغرب ذو التربية المسيحية فى حق المسلمين [٣] ، كما تؤكد على وحدة الإيمان بالله عند الجماعتين ــ كما تعارض الوثيقة « الفكرة الشائعة عن الإسلام كدين الخوف ، بالإسلام دين الحب ، حب الإنسان المتأصل فى الإيمان بالله ، إنها تدحض الفكرة التى نشرت خطأً والتى تقول بعدم كفاية الأخلاق الإسلامية ، وتدحض أيضاً الفكرة الأخرى التى نشرها كثير من اليهود والمسيحيين عن تعصف الإسلام وهى تعلق على ذلك بالألفاظ التالية « الواقع أن الإسلام عبر التاريخ لم يكن أكثر تعصباً من المدنية المسيحية عندما كانت المسيحية تكتسب بشكل أو بآخر فى هذه المدنية قيمة سياسية [٤] » .

كما ترى الوثيقة فى الفكر الإسلامى مبدأ لإمكانية تطور المجتمع المدنى ، ولابد من أن قرارات كهذه قد أثارت دهشة الكثيرين من المجتمع الغربى ممن علموا بها أصلاً ، إذ إنها كما يقول « موريس بوكاى » قد تم تعتيمها إعلامياً بشكل مقصود ، ولكن من المؤكد أنها قد أثارت غيرة الكثيرين أيضاً ، ومنهم مؤلف الكتاب ، الذى لا يمكن بسهولة أن يتخلى عن مواقفه القديمة حيال الإسلام ، والذى يرى فى قرارات المجمع نهاية للمسيحية (فقد جف فى عروق الغرب الإيمان القوى المتحدى بفضل هذه القرارات) .

وفى رحلة بيرجس فى البحث عن النقاط التى جانب فيها أورويل الصواب ، وأين حالفه ؟ يقتل رواية « ١٩٨٤ » بحثاً ونقداً فى مقدمته متصدياً لشتى التفصيلات التى وردت فى الرواية على اختلاف مجالاتها وأصحابها ، ومدى ارتباطها بالخلفية السياسية والاجتماعية لبريطانيا وقت كتابة أورويل روايته . وقد تناول بيرجس فى حديثه أموراً تعيى عن الحصر ، بل تطرق لمجالات ليس لقارىء عادى متابعة الرواية من خلالها ، فهو تارة

(٣) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم « موريس بوكاى » ــ دار المعارف صـ ٧ .
(٤) نفسه صـ ١٣٨ .

يذكر أسماء سياسيين بريطانيين في وزارة مابعد الحرب ـــ مثل السير ستافورد كريبس أو لورد بيرفيردج ـــ ونظرة الشعب البريطانى لهم ، أو يتناول رواية أورويل من زاوية سينمائية مستعرضاً إسهامات من قاموا بإخراج الرواية للسينما ورؤيتهم المختلفة لها ، كما ذهب فى تناوله لها إلى محاولة وضع أورويل فى مكانه على الخريطة الصحفية فى ذلك الوقت ، وقراءاته لأقرانه من المفكرين ، حتى متابعة التجارب العالمية وتأثيرها على الجنس البشرى ، لم يفت بيرجس أن يستعين بها فى تفسير نظرته لرواية أورويل ، وقد رأينا أنه لو قدمت الترجمة الكاملة للمقدمة المسهبة التى كتبها بيرجس تمهيداً لروايته هو « ١٩٨٥ » لكنا فى حاجة إلى « ببليوجرافيا » طويلة للأسماء الواردة فيها مما كان سيحمل القارىء عبئاً ثقيلاً قبل متابعة العمل الروائى الجديد .

ولذا فليأذن لنا القارىء أن نقدم له فى الصفحات التالية عرضاً سريعاً وإن كان ملماً بكل ما ود « بيرجس » أن يأخذه على رواية أورويل ، وسيتضح لنا من خلال هذا العرض مدى تمتع بيرجس بعين النقاد مما يثبت له مكانته بين طليعة النقاد الإنجليز المعاصرين تمهيداً لما سيحاوله من إثبات نفس المكانة فى صفوف الروائيين فى الجزء الثانى من الكتاب . ويقسم « بيرجس » الجزء الأول إلى تسعة فصول نقدية سنعرض لها حسب ورودها بالكتاب .

١ ـــ « سين وجيم » :

وقبل الدخول إلى رواية أورويل يصدر « بيرجس » كلامه بإشارة إلى أهم ملمح من ملامح مجتمع « ١٩٨٤ » فيكتب فى الصفحة الأولى : ٢ + ٢ = ٥ معبرا عن مدى ارتباط الحقائق الثابتة (مثل العمليات الحسابية) بالبشر أنفسهم وليس العكس ... البشر هم الذين يجعلون حاصل الجمع « أربعة » إن شاءوا ، كما أنه بإمكانهم أن يجعلوه « خمسة » .

ثم يبدأ المؤلف فى هذا الفصل الذى صاغه فى صورة « سين وجيم » بين صورتين متقابلتين فى استعراض صورة العالم الذى تخيله أورويل متحدثاً عن دوله الثلاث : « أوشينيا » وتضم الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية ودول

الكومنولث البريطانية وتكونت « يوريشيا » بعد ابتلاع الاتحاد السوفيتي لكل أوروبا أما « استيشيا » فقد تكونت من الصين واليابان وبعض البلاد الأخرى في آسيا ؛ ولا يفرق بين هذه الدول الثلاث أى تعارض أيديولوجي فهم جميعاً يقرون مبدأ الحزب الحاكم الواحد إلى آخر مايستتبع ذلك من كبت للحرية ، لكنهم في قتال دائم وإن اختلف العدو من حرب لأخرى ، إذ تتحالف أوشينيا وايستيشيا مرة ضد « يوريشيا » ومرة أخرى تغير حليفتها ، وهذا بفضل تحكم الحزب في ذاكرة الناس من خلال ازدواج الفكر والتلاعب بالسجلات — تزييف التاريخ .

تعود هذه الحرب الدائمة إلى سببين ، أحدهما يبدو على السطح وهو التنافس من أجل مزيد من الأراضي واستنزاف مواردها الطبيعية والبشرية ، والسبب الآخر — وهو السبب الحقيقي — يكمن في استهلاك منتجات المصانع واستبقاء عجلات الإنتاج دائرة مع الحفاظ على مستوى معيشة منخفض ؛ لأن المواطن المترف لا يصلح أن يكون عضواً في مجتمع أوليجاركي ... هذا الإنسان — على حد تعبير بيرجس — الذى ملأ بطنه لحما يدير ظهره لعقيدة الحزب التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، فالولاء الأعمى يأتي بسهولة من أولئك المحرومين مادياً .

وهؤلاء المحرومون — العمال — يمثلون ٨٥ ٪ من نسبة السكان أما النسبة الباقية فهم أعضاء « الحزب الداخلي والخارجي » ، وعلى رأس الحكم « الأخ الأكبر » وهو شخصية لن تموت لأنها لم تولد في الأصل وعلى المجتمع أن يطيعه ويحبه على السواء .

وتتجمع نظرية الحزب السياسية في مبادىء « أنجسوك » — الاشتراكية الإنجليزية — (وهي أبعد ماتكون عن المعنى الحقيقي للكلمة) ، وأهم مبادئها ازدواج الفكر الذى سيتناوله المؤلف بالتفصيل في فصول لاحقة ، لكن الهدف الحقيقي لانجسوك يتركز في السلطة ذاتها مع عدم التخلص من الأعداء لأن ممارسة السلطة لابد لها من عدو تتحداه وتفرض نفسها عليه ... أنجسوك تهدف إلى السلطة في ذاتها ... لا مكان للشعارات

البراقة مثل الحرية والمساواة والإخاء والفضيلة والمعرفة ... السلطة شيء محسوس ... الله هو السلطة والسلطة إلى الأبد .

٢ ــ نــوايا :

في هذا الفصل يعمد « بيرجس » إلى الإيحاءات التى يثيرها رقم « ١٩٨٤ » فى نفوس قراء الأدب ممن قرءوا الرواية أو حتى سمعوا عنها ، وكيف أن كثيراً منهم يعرف كلمات مثل « ازدواج الفكر » و « اللغة الجديدة » و « الأخ الأكبر » ويربطون بين رقم « ١٩٨٤ » وبين وضع يفقد المرء فيه كل حقوقه فى الاختيار الأخلاقى (وهو ما تعنيه كلمة حرية) وضع يتعرض الإنسان فيه لسلطة القهر فى يد هيئة حاكمة ليست بالضرورة الدولة . ورغم أن عام ١٩٨٤ قد جاء ومر دون تحقق الكابوس الذى تخيله أورويل بل شهدت السنوات الأخيرة زيادةً ملحوظة فى الحرية الشخصية وتفككاً فى السلطة المركزية فى كثير من بقاع العالم ، فإن هذا لن يبطل العلاقة بين ذلك الرقم وبين صورة قاتمة يتمنى الجميع ألا تتحقق بعد أن صارت مضرب المثل فى الطغيان والجبروت ... « فحينما طلب من طلبة كلية أمريكية أن يمتنعوا عن تدخين الماريجوانا فى حجرة الدراسة ، أو حينما طلب منهم فى رفق أن يقرأوا قدراً يسيراً مما يدرسون كان ردهم » كأننا ياأخى فى عالم ١٩٨٤ .

وهكذا صار حلم أورويل الكئيب جزءاً من التراث النفسى لذخيرة الآداب العالمية ... من هنا يرى بيرجس أن علينا « أن نفهم الأصول الحقيقية لهذا الحلم ... أصوله الكامنة فى نفس أورويل ، وفى المرحلة التاريخية التى ساعدت على إفرازه ... أن نحاول ، مستخدمين أسلوبه الروائى ، رسم صورة لحركة الأحداث فى السبعينيات وماذا تحقق منها فعلاً عام ١٩٨٤ ، أو تحاشياً لتهمة الانتحال ، فى عام ١٩٨٥ » .

٣ ــ ١٩٤٨ : لقاء مع رجل عجوز :

يرى « بيرجس » أن « ١٩٨٤ » رواية كوميدية وليست مرعبة كما يظن البعض ، وعلى الرغم من البداية المأساوية التى يقصد إليها أورويل لتعد الجو الملائم لمسرح الأحداث فى عبارات مثل « ريح كئيبة تسخر من وجه الشمس ... دوامات الغبار فى جنبات الشوارع ... ذرات الرمال فى عينيك ... » على الرغم من هذه العبارات يرى بيرجس أن هذه السطور خير تعبير عن كوميديا الضحك على الأشياء المألوفة جداً ، إذ لم تكن هذه الأمور بالشيء الغريب على لندن عام ١٩٤٨ .

ولقد عرف أورويل كشاعر كوميدى للمطحونين ، وخير دليل على ذلك روايتاه « الصعلكة فى باريس ولندن » و « الطريق إلى وايجان باير » ... صحيح أنه كان يعيش أحاسيس سنين مابعد الحرب العالمية الثانية بصدق بما فى ذلك من تعب وحرمان ، إلا أن هذا ليس من المأساوية فى شيء ... كل المأساوية فى ذلك الوقت كانت من نصيب معسكرات الإعلام النازية والروسية .

كانت متاعب الطبقة العاملة تتمثل فى الحرمان بأشكاله المختلفة مثل تخفيض حصص اللحم والبيض وهيمنة « الكرنب » على قائمة طعام الرجل العادى فى بريطانيا واختفاء شفرات الحلاقة ... كل هذه أمور عادية تبعث على الضحك أكثر مما تبعث على البكاء ، ويلخص بيرجس بقوله « إن رواية ١٩٨٤ » ليست إلا رسما تصويرياً مضحكاً لمدينة لندن فى نهاية الحرب العالمية الثانية . كما أنه يربط بين اسم بطل روايته « ونستون سميث » وبين الزعيم البريطانى « ونستون تشرشل » الذى خذله الناخبون رغم انتصاراته السياسية ، ويرى أن الاسم كان مادة ضحك لغالبية الشعب البريطانى .

وهكذا يرى أنها كوميديا قابضة فى بعض الأحايين ... سوداء على طول الخط وبها لمسة مما يثير الشفقة والعطف ... ويريد المرء لو يبكى حزناً على ونستون سميث « رجل إنجليزى فى العقد الرابع من عمره خرج

من بين الطبقة العاملة ... ضئيل ، صغير الحجم ، يبست بشرته من جراء استخدام الصابون الخشن وأمواس الحلاقة الكليلة ... رجل اعتاد البرد والحرمان ... جعلت حياة الفقر وسوء التغذية المستمر حجم جسمه أقل من الحجم العادى » .

ولم يسلم أورويل من انتقادات « بيرجس » فى صميم ماجاء به فى روايته من أمور ظنها من باب الخيال والتجديد بداية من « التلسكرين » الذى سرقه أورويل — على حد قول بيرجس — من فيلم « العصور الحديثة » لشارلى شابلن ثم إننا نعيش فى عصر « السوبر ماركت » حيث نرى لافتة تقول : « ابتسم لأنك الآن على شاشة التليفزيون » حتى فكرة « الأخ الأكبر » ذاتها سرقها أورويل من إعلانات « كلية بينيت للمراسلة » التى كانت إحدى معالم صحافة ماقبل الحرب ... مازال الجميع يذكرون صورة « بينيت الأب » وهو يقول « دعونى أكون أباً لكم » ثم جاء ابنه ، وهو صاحب وجه بالغ الشراسة فتولى زمام الأمور وهو يقول « دعونى أكون أخاكم الأكبر » ؛ ثم إن هناك أسبوع الكراهية الذى يذكر عنه « بيرجس » أنه أمر عادى للغاية إذ يقول جميعنا الآن يعرف شيئاً عن الكراهية المنظمة ... كنت قد أرسلت وأنا أخدم بالجيش لأدرس فى « مدرسة الكراهية نتعلم فيها « كراهية العدو » . كما أن فكرة « التمارين البدنية الصباحية » التى يتلقاها ونستون عبر التلسكرين لا تختلف كثيراً عن معسكرات « بيللى باتلين للترويح » التى شاعت فى الأيام التى تلت الحرب حيث كان الناس يستيقظون فى الصباح على صوت صيحات المرح تنطلق من مكبرات الصوت ... كانت الحكومة تضحك عليهم بالموسيقى العالية حتى يؤدوا التمارين التى تسبق الإفطار ، ثم يأتى الحديث عن « وزارة الصدق » فى رواية « ١٩٨٤ » التى يرى بيرجس أنها تماثل دار الإذاعة التى كان يعمل بها أورويل أثناء الحرب ، وبالقرب منها حانة الـ « جورج » كان يختلف إليها موظفو الإذاعة ... هذه الحانة لها من السمعة السيئة مايجعلها تماثل مقهى « شجرة الكستناء » حيث ينتهى الحال بونستون سميث جالساً يشرب الخمر المعبق برائحة القرنفل فى انتظار الرصاصة . ولم يغض « بيرجس » الطرف عن الشعارات التى تعد ملمحاً أساسياً من ملامح

أنجسوك ... هذه الشعارات لا تختلف كثيراً عن الشعارات التى كانت تعلقها وزارة الإعلام إبان الحرب العالمية الثانية ، شعارات مثل « ثباتكم وصبركم وتحملكم سيأتى لنا بالنصر » .

ويختم بيرجس حملته الشعواء على أورويل بقوله « إنه لم يأت لنا بجديد ، فكل ما قام به من تحذير لم يكن سوى ماقال به ملتون للشعب البريطانى أيام كرومويل « تمسكوا بحرياتكم » بل لعله حتى لم يقل هذا ... كل ماكان يفعله أنه كان يلعب مباراة ذهنية لبناء « كاكوتوبيا » للعالم .

علاوة على هذا يتناول « بيرجس » فى هذا الفصل رؤية أورويل للاشتراكية فهو يقر بأن أورويل كان يحب الاشتراكية من سويداء قلبه ، لكن هذا الاعتناق ـــ فى رأى بيرجس ـــ جاء من يأسه أن يرى أملاً فى استمرار الرأسمالية التقليدية ، ويبدى عجبه من محاولة أورويل أن يتخذ لنفسه نوعا من الاشتراكية الحرة الخاصة فى وجه الاشتراكية الحقة ، فاشتراكية أورويل عملية أكثر منها عقائدية ، مما عرضه المتزمتون من الاشتراكيين الذين انتقدوا كتاباته الأدبية التى تعوق قضيتهم ولا تخدمها ... كتابات عن الزهور والربيع والشعر . ربما تولدت هذه الرؤية بعد أن رأى أورويل من أى أفعال من الماركسيين فى أسبانيا بعد أن حاربوا فى صفهم ... أفعال لم يستطع أورويل أن يتجاهلها مثلما فعل زملاؤه الاشتراكيون المتزمتون .

كانت الاشتراكية الإنجليزية عند أورويل تحمل من الإنجليزية أكثر مما تحمل من الاشتراكية ، فقد أحب وطنه أكثر مما أحب حزبه ، ولم يرقه تجاهل زملائه من الاشتراكيين للتراث القومى الإنجليزى ... اللغة ... الزهور البرية ... شكل الكنائس ... الشعر (وقد كان يؤلمه أن الاشتراكية يمكن أن تضحى بنشر ديوان من الشعر على حساب الاهتمام بإعادة التيار الكهربائى) . الحنين إلى الماضى ... حنين يصيب الاشتراكية فى صميمها لأنها يجب أن ترفض الماضى بصفته شراً من الشرور ولابد لأعينها أن تنصب كلية على المستقبل . وخير دليل على عشق أورويل للماضى ماحذا ببطل روايته ونستون سميث أن يشترى ألبوما جميلاً به أوراق بيضاء وأداة قديمة

من أدوات الكتابة ليحتفظ لنفسه بمذكرات كتب فيها كيفما اتفق ثم أطلق بعد ذلك العنان لأفكاره فكتب ما يودى بحياته « يسقط الأخ الأكبر » .

لا يفوت « بيرجس » أن يعرى موقف أورويل من الطبقة العاملة ، إذ يقول عن مشاعره إنها لم تزد على بغض شديد لهم ... لقد حاول أورويل أن يحبهم دون جدوى ... صحيح أنه كان مؤمناً فى قرارة نفسه بقضية إنصاف العمال . لكنه لم يستطع أن ينظر إليهم بصفتهم بشر من لحم ودم بل هم حيوانات ، وإن اتصفوا بالنبل والقوة ، خلقت من طينة غير تلك الطينة التى خلق منها ، وقد حاول جاهداً أن يعيش حياتهم فهام على وجهه فى شوارع لندن وباريس ، إلا أنه مثلما كان يشفق عليهم كان يشفق منهم .

٤ ـــ قراءة فى « انجسوك » :

فى هذا الفصل يلقى « بيرجس » الضوء على « انجسوك » التى تتشكل من مجموعة من المبادىء تبتغى كل وسيلة لإخضاع الطموح الشخصى لمصالح الحكم الجماعى متخذة « الأخ الأكبر » رمزاً ينصهر الجميع فى الإخلاص له رغم أنه شخصية خيالية من اختراع الحزب ... وخلاصة « انجسوك » أن يذوب العقل الفرد (إدراك الفرد) فى العقل الجماعى (مايراه الحزب) ويدلل أورويل على ذلك بأن حاصل جمع ٢ + ٢ يمكن أن يكون خمسة أو ثلاثة أو أربعة حسبما يتراءى للحزب ، لأن المرء يستمد إدراكه من الحواس ، وما أهون التحكم فى ذلك وليس ببعيد على الأذهان تعذيب ونستون سميث وإقناعه فعلاً بأن حاصل الجمع خمسة ، وهذا التلاعب فيما يفهمه الفرد بالأسلوب المعروف بازدواج الفكر وسيلة للتوفيق بين ذاكرة الفرد وبين مايراه الحزب أنه الحقيقة فى أى لحظة من لحظات التاريخ ... الماضى لا يحدد الحاضر ، بل الحاضر يغيره ، لأن السجلات فى يد الدولة ... ومن طبيعة السجلات أن تتغير ، وإذا مالوحظ هذا الاختلاف أو هذا التعارض فهنا يظهر دور « ازدواج الفكر » وهو « القدرة على أن يكون للمرء معتقدان متناقضان فى آن واحد وأن يتقبل كلا منهما ... ويجب أن

تكون هذه العملية شعورية وإلا فلن تنفذ بدقة كافية ولكنها يجب أن تكون لا شعورية فى نفس الوقت ، وإلا سيتولد لدى المرء إحساس بالكذب ، ومن ثم إحساس بالذنب » .

ويرى بيرجس أن هذا يعد انعكاساً حقيقياً لما كانت عليه طبيعة شخصية أورويل الذى لم ينكر أنه يحمل فى داخله شخصيتين واسمين مختلفين هما « أريك بلير » و « جورج أورويل » ؛ الأول خرج من عند حافة الطبقة الحاكمة وحاول أن يعيش حياة العمال ، والثانى مثقف لا يثق بالمثقفين ... كاتب لا يثق بالكلمات .

هذا الازدواج فى الفكر لن يتأتى من خلال التقيم اللفظى بل تصر الدولة على إيجاده من خلال لغة حديثة أسمتها « اللغة الجديدة » ... قواعدها منتظمة ... تركيباتها بسيطة ... مفرداتها خالية من المترادفات غير اللازمة والاختلافات الدقيقة بين المعانى ... لغة تختفى فيها نهاية الأفعال غير القياسية ... وسيؤدى هذا فى آخر الأمر إلى أفكار محدودة ومفاهيم مقصوصة وعقل يقبل بالميسور ويقتنع به .

ونأتى للشعارات الثلاثة لدولة أوشينيا فنجد أن عقد ازدواج الفكر يضمها بين جنباته ، فالحرب سلام ، لأن العمال لن يطالبوا الدولة بشىء أثناء الحرب ، لذا فهى لا تنتهى أبداً ويبقى النظام الحاكم فى راحة ودعة من هموم العامة .

و « الجهل قوة » إذ ماأيسر أن تسوس الأغبياء ؛ « والحرية عبودية » إذ قامت الدولة مشكورة بتوفير جهد المرء الذى قد يبذله فى إشباع شهواته وتنظيم حاجاته النفسية . هذه هى صورة عالم ١٩٨٤ كما يراه أورويل ... عالم من الخوف والخيانة والعذاب ... عالم من الانسحاق وسحق الآخرين ... عالم يتقدم لا ليكون أكثر رأفة بل أكثر قسوة ... لا عواطف غير الخوف والسخط والإحساس بالنصر وإذلال النفس ... ليس ثمة حب للمعرفة أو إحساس ببهجة الحياة ... أهم من هذا كله الإحساس بالسيادة ، متعة الشعور أن تطأ عدواً لا حيلة له .

وينتقد بيرجس هذا النهم الشديد للسلطة فى ذاتها ، لأن السلطة فى رأيه وضع يسمح للمرء أن يتحكم فى الآخرين وحين تجتمع له أسباب الدنيا يضمن لنفسه ما يجعله يحس بأن ذلك مكافأة السلطة ... هناك متعة الاختيار بين أن يخافك الناس أو يحبوك ، وحين تقتصر السلطة على إتيان الأذى نشك فى وجود هذا الاختيار وبالتالى نشك فى وجود السلطة ... إن السلطة التى تتحدث عنها رواية أورويل مرض غير مفهوم . حتى إن لم يكن كذلك وقالوا عنه إنه نوع جديد من الصحة لنوع جديد من البشر فسنبقى النوع القديم من الإنسانية وليكن ما يكون .

ولا يخفى بيرجس رأيه كواحد من الغرب فى تسلط الحزب الحاكم فى دولة « أورويل » فهو يرى أن « الطبيعة » سترفض بشدة مقولة الحزب باختفاء التلوث ... ولن يمنع الحزب وقوع الكوارث والزلازل حتى اللغة الجديدة لا تفلح فى إعطاء الانطباع بأنها ستزدهر ولن ينالها هى ذاتها شىء من الإفساد اللغوى الذى تمارسه .

ويلخص بيرجس نظرته إلى رواية أورويل على أنها ليست دمية من وضع سويفت بل هى صورة مستفيضة لنبوءة مستقبل سيىء ، صورة لها مصداقية هشة فى اعتبارها إسقاطاً لمستقبل ممكن الحدوث ... إنها مثال الشمولية التى لا يمكن أن تتحقق والذى تقلده النظم الإنسانية بطريقة يعوزها الإتقان والبراعة ... لن يبقى على الوجود غير القدرة على التخيل ... إلا أن الكتاب يظل مخطوطاً مستقبلياً لأسوأ مخاوف الإنسانية .

٥ ــ اليوتوبيا الفاسدة « الكاكوتوبيا » :

يفرد بيرجس هذا الفصل لمناقشة فكرة المفاضلة بين السعادة والحرية فى رواية « ١٩٨٤ » التى يسميها بيرجس « الكاكوتوبيا » أى اليوتوبيا الفاسدة ، وفى روايتى « نحن » لزامياتن و « عالم جديد شجاع » لأدولس هكسلى ، ويرى بيرجس أنه لو لم تظهر رواية « نحن » لما شعر أورويل بأدنى دافع نحو كتابة روايته .

وزامياتن هذا أديب روائي روسى مات في باريس ١٩٣٧ ، وكان قد نال حظه من الاضطهاد على يد القياصرة قبل الثورة البلشفية وعلى يد أصحابها بعد قيامها على حد سواء ، فسئم الحكومات على اختلاف أشكالها ونزع إلى نوع من الفوضوية البدائية مقتبساً اسم روايته من الشعار الذى رفعه « باكونين » أبو الفوضوية « أنا لا أريد أن أكون أنا ، بل أريد أن أكون نحن » . وتدور أحداث روايته في القرن السادس والعشرين وتتشابه في كثير من تفصيلاتها مع ماقاله أورويل ، فالمواطنون لا يعرفون إلا بأرقامهم ، وزيهم واحد ، وهم مراقبون من خلال بيوتهم الزجاجية ، حتى حاكم الدولة شخصية غامضة غموض « الأخ الأكبر » عند أورويل ، وإن كان اسمه هنا « ولى النعم » ولقد اختير بالانتخاب وإن لم يكن له منافسون !!

وتقوم فلسفة الدولة التى تخيلها زامياتن باستحالة الجمع بين السعادة والحرية ، لذا فالدولة توفر على المواطن آلام الاختيار (الحرية) ... تلك الآلام التى عاشها آدم وحواء بعد أن أكلوا « فاكهة الاختيار » ؛ وهذا المنطق نفسه هو مانجده في رواية « عالم جديد شجاع » التى يضحى فيها بالحرية من أجل السعادة ، ولا يغيب عنا أن هذه الفكرة لها جذورها في التراث المسيحى وكان أحد طرفيها الراهب البريطاني « بيلاجيس » الذي أنكر أن الإنسان مولود والخطيئة الأولى حالة به ، أى أنه موصوم قبل أن يولد . بل يرى أن معصية آدم تعود إلى رغبته في ممارسة حقه في اختيار المسلك الذى يريد ، ولا تعود إلى استعداد مسبق للرذيلة وهو التيار الذى تزعمه القديس أوجستين .

ويربط بيرجس بين مفهوم الحرية والسعادة ، وبين فكرة الخير والشر من منظور الدولة التى يتخيلها أورويل ، فإذا أعطت هى الحرية للمواطن فذاك يعنى إنسانيته ، وإذا حجبتها اسقطتها عنه ، وإذا ماوهبت الدولة الموت لإنسان ففى ذلك من الشر الكفاية لكن أن تعذبه فذلك أسوأ وأضل ... هى تحتفظ بالاختيار الأخلاقى لها وكفى ... إرادة المحكومين وحريتهم تزيد وتنقص وفقا لزيادة الطبيعة الاستبدادية للدولة ... الدولة هى الإرادة التى يجسد من خلالها الحاكم السلطة على المحكومين .

٦- حوار عن الدولة والدولة العظمى :

يتناول بيرجس في هذا الفصل ماتنبأ به أورويل فيما يختص بالقوى السياسية ، وكان أورويل قد تخيل أن القوى الشمولية ستبتلع الدول الصغرى وستكون لها السيادة شرقاً وغرباً ، إلا أن بيرجس يرى أن الواقع يدحض هذا التصور لأن القوة الحقيقية الآن في يد العرب (كان العرب وقت كتابة الرواية عام ١٩٧٨ ، يملكون سلاح البترول) ولقد تعرضنا في بداية المقدمة لهذه النقطة .

ويمضي بيرجس في مناقشة الواقع السياسي للعالم مقارنا إياه بما جاء في رواية « ١٩٨٤ » فيعترف أن أمريكا وروسيا والصين تكاد تماثل دول أوشينيا ويوريشيا وإيستيشيا على الترتيب ، لكن ليس هناك حرب دائمة بينهم كما قال أورويل ، بل تقاتل الدول الصغرى بعضها البعض نيابة عنهم . وهذه الدول العظمى تدرك سهولة إشعال فتيل الانفجار النهائي (القنبلة الذرية) ، تماما كما يدركون أن العاقبة لن تكون فناء الملايين فحسب ، بل عالم من التجهيزات الأليكترونية المتداعية لدى جميع الجوانب .

ولا يخفى علينا أن الشمولية والديكتاتورية لم تعد حكراً على الدول العظمى ، بل تتبارى أنظمة الحكم في الدول الصغرى في انتهاج أعتى أساليب القهر والاستبداد ، وتدعي هذه النظم أنها تفعل ماتراه الأفضل للشعب على حين أن « أوبراين » صوت السلطة في رواية « ١٩٨٤ » يقول « إن انجسوك تنشد السلطة لذاتها وهذا قول يحمل الكثير من الصدق مع النفس » .

وفي إشارة ذكية ينتقل بيرجس إلى العالم المعاصر ليرى كيف تستخدم التكنولوجيا في إحكام سيطرة الدولة على الفرد ؟ ويضرب مثلاً على ذلك بالتعداد الذي جرى في بريطانيا عام ١٩٧١ وجمعت فيه المعلومات التامة عن كل مواطن واختزنتها العقول الأليكترونية التي صار لديها قائمة منسقة بأسماء اليهود ، وقائمة أخرى بالمفكرين المتمردين حتى أن الدولة صار لديها عناوين كل أصحاب الشعر الأحمر .

وجه آخر من ممارسة الدولة لسلطانها على الفرد من خلال طغيان مالى فى شكل مطالب استهلاكية لا قرار لها ... سلب المال من جيب المواطن لأجل كماليات تافهة . ويرى بيرجس أن الدائرة التى لا تنتهى تتلخص فى قيام الدولة بأمرين « إدارة السياسة الخارجية التى تعنى وجود جيش ، وحفظ السلام الداخلى الذى يعنى بالتالى وجود شرطة » أى « البنادق والملفات » .

صحيح أن الدول الغربية اليوم لن تكون بالشكل الأوروبى ، لأننا نقرأ ما نريد ، ونطالع الأدب المكشوف فى الشوارع ، ونستطيع شراء مايخدش الحياء من تحف الفنون التشكيلية ... وننال مانطالب به من حريات ، ومع هذا تظل الدولة غولاً .

٧ ـ أولاد باكونين :

يفرد بيرجس هذا الفصل لفكرة الفوضوية ومؤسسها « مايكل باكونين » ، ورغم أنه كان أرستقراطيا روسيا ، إلا أنه طبع الكلمة بطابعه ولولاه لظلت الكلمة مجرد فكرة خيالية فى كتب لا يقرؤها إلا القليلون ... أما هو فقد أضفى عليها الطابع الإنسانى والبطولى .

ويرجع ميل باكونين الذى ولد فى عام ١٨١٤ ، إلى مالاقاه من استبداد فى طفولته لم يضارعه إلى ماوجده فى أوروبا من استبداد حين شب عن الطوق ، ثم يتناول بيرجس بعد ذلك رحلة « باكونين » إلى أعلى درجات سلم الفوضوية مروراً بالتحاقه بكلية عسكرية ثم إشعاله الاضطرابات والمظاهرات فى الجامعات ثم فى بولندا وبراغ ، وانتهى به الحال إلى النفى فى سيبيريا ، ثم هرب إلى دنيا الثورات ونازع ماركس زعامة المؤتمر الدولى ثم حاول فى النهاية أن يموت ميتة الأبطال فى ساحات بولونيا ، إلا أن الانتفاضة الإيطالية انتهت نهاية مخزية ، لذا فقد زحف إلى سويسرا ومات بعد أن اكتشف الوهم الذى عاش أسيراً له ، وهو انتصار الفوضوية الثورية على قوى الرجعية .

وعادت الفوضوية على يد الشباب فى وجه الكبار ... الشباب يدخلون فى صراعهم الأزلى مع الكبار الذين يسألون لِمَ ؟ والشباب يسألون ولم لا ؟ ويربط بيرجس بين اندفاع الشباب والعالم الذى تخيله أورويل ، لأنه من الممكن دفعهم لحب الأخ الأكبر باعتباره عدو الماضى وعدو القديم ... والحقيقة أن عالم أورويل يتصف بفوضوية لا تعترف بأى قوانين ... فوضوية تنظر للماضى على أنه فراغ يملؤه الحاضر بخرافات من كل صنف ... هو عالم ينبذ الماضى وتقاليده ويحتقر كبار السن ، حتى « اللغة القديمة » مرفوضة فى عالم أورويل ، ولا بديل عن اللغة الجديدة لتعبر عن اندفاع الشباب ... جميع الشباب على استعداد لتدمير الماضى لا لشىء إلا لأنه الماضى ... المهم تصفية كل ماهو عتيق وتمجيد انطلاقة الثورة بالشباب ، أما مابعد الثورة فشىء آخر .

وفى نهاية الفصل يربط بيرجس بين فوضوية أورويل وتجسدها فى رواية « ١٩٨٤ » من خلال الصراع الأبدى بين فرد هو ونستون سميث وجماعة هى الحزب الحاكم ، الفرد صغير فى جهله وكل حريته التى يطمع فيها أن يقول الصدق ، وقد صدق الحزب فى انتقاده على إفلاسه السياسى ، حتى إذا أوتى نظام عقائدى فليس له أن يقف فى وجه الحزب ... كل مايطمع فيه إحساس بالرضا الهادىء حين يستطيع أن يقول إن حاصل جمع اثنين زائد اثنين هو أربعة وليس خمسة .

٨ ــ إنسان بافلوف الآلى :

يعرض بيرجس فى هذا الفصل إلى مناقشة استخدام العلم فى إخضاع الفرد والتحكم فى ردود أفعاله وقبل أن يمضى فى ذلك نجده يتناول أساليب الدولة فى تغيير معتقدات المتمردين ، ويقول إن الحزب الحاكم لا يهتم بالتصفية الجسدية ، بل يهتم أساساً بتحويل المتمرد إلى مواطن صالح ... لابد من إظهار الخواء العقلى أولاً ثم حشوه بنفايات فكرية يريدها الحزب .

ولم يأت انتصار الدولة على « ونستون سميث » من خلال عملية من عمليات « بافلوف » التى تنزل بشخصية الإنسان إلى مجرد كتلة من ردود الأفعال المنعكسة ... بل كان على ونستون أن يسحق مقاومته « للأخ الأكبر » من خلال أعمال إرادته مع بعض العون الذى تقدمه له « وزارة الحب » مشكورة من غسيل مخ وجلسات تعذيب بالتيار الكهربى وفئران الحجرة (١٠١) ... كان يجب عليه أن يعرف مدى قصور مصادر إدراكه ... يجب أن يعرف أن مالديه ليس إلا عبارات براقة ورغبات بدائية ... لقد أظهروا له خواء جوهره ، وهو الآن يعرف أن هذا الخواء يجب أن يملأ بالشيء الوحيد المتاح وهو الإخلاص للحزب وحب الأخ الأكبر ... أى أن انجسوك تعتمد على شيء من ممارسة الاختيار لأن قبول سلطتها لا يعنى شيئاً إن لم يكن قبولاً حراً ... وفى هذا فارق كبير بين رواية أورويل ورواية « عالم جديد شجاع » لهكسلى التى تجرى فيها الدولة الحاكمة تغييراً للنفس الإنسانية فى مرحلة قبل الولادة أو من خلال عملية إخضاع النفس لأفعال منعكسة شرطية فى مرحلة الطفولة ؛ وقد جاء صدور رواية هكسلى قبل وفاة « بافلوف » بأربعة أعوام ... ذلك الوقت الذى ذاع فيه صيت تجاربه العلمية التى تستند إلى مقولة « إن الناس إن لم يكن قد خلقوا صالحين فمن الممكن أن يكونوا ذلك » .

ولقد استفاد هكسلى من هذه التجارب استفادة واضحة ، ففى روايته نجد أطفال الفقراء مدفوعين إلى كراهية السلع الاستهلاكية التى لا يمكنهم شراؤها أبداً ... فهم يدفعون إلى الحب كى يفوزوا بلعب جميلة ... لكنهم ما أن يلمسوها حتى تدق أجراس كهربائية وتزعق صفارات الإنذار وتصيب اللعبة ذاتها محبيها بصدمات كهربائية ... وبعد عدة جلسات من هذا النوع يبدأ الأطفال فى كراهية اللعب وهكذا الحال بالنسبة إلى دفع الكبار إلى كراهية الشمبانيا والكافيار .

بل إن بيرجس نفسه قد استفاد من هذه الفكرة وطورها فى عمل روائى له اسمه « البرتقالة الآلية » عام ١٩٦٠ تجسد كراهيته للفكرة الرائجة بأن بعض الناس مجرمون والبعض الآخر أخيار ... وهى قصة تدور حول تطبيق

قوانين « بافلوف » أو القوانين الميكانيكية على كائن حى له ، مثل الفاكهة ، صفات اللون والمذاق الحلو ؛ وطبق عليه بيرجس قوانين « بافلوف » فاختار له الموسيقى هواية وعشقاً ، ثم جعل الدولة تحقنه بمادة كيميائية فى دمه تسبب الغثيان أثناء سماعه للموسيقى ، ومنذ ذلك التاريخ ارتبطت الموسيقى بالغثيان ، وصار البطل يكره موتسارت وبيتهوفن مثلما يكره الاغتصاب والقتل .

٩ ــ مــوت الحــب :

من أهم الموضوعات التى ملكت على بيرجس تفكيره تغير العواطف وتبدلها نتيجة الضغوط الخارجية التى لا نهاية لها ، ويؤمّن بيرجس على ماقاله أوورويل فى روايته من أن الإنسان يمكن أن يكون كارها لشىء أحبه بالأمس ، وأبلغ مثال على ذلك حب ونستون للأخ الأكبر بعد بغضه له ، ويلتفت بيرجس، إلى الحاضر الذى يعيشه ، ويقر بأننا عشنا زمنا كنا نعرف فيه الصفات التى تستحق أن نكرهها ، أما الآن فلسنا على يقين بعد ماذا نحب أو نكره ، إذ تقوم الصحافة الرخيصة بإلباس الرذائل ثوب الفضيلة ، فقد صار التسامح ضعفاً ، والجبن حذراً ، بل لم تعد هناك فكرة وجود شىء مكروه فى ذاته .

وعاطفة الحب ليست استثناء من بين العواطف التى تبدل حالها ، فالحب فى رواية أوورويل ليس هو حب الغير المجرد من الهوى ، كما علمنا الدين ، أو حتى هو الحب الرومانسى لدى عشاق القرن التاسع عشر ... إن الحب الذى بين « ونستون سميث » وبين البطلة « جوليا » لا معنى له إلا ممارسة الزنا الذى تحرمه الدولة لأنه يقدم متعة لا تستطيع الدولة التحكم فيها ... الجنس صورة من صور التمرد ، وهكذا اكتسب الزنا فضيلة عن غير حق . إن عبارة أحبك التى صرحت بها البطلة لونستون تحمل من الاستهزاء بالقيم نفس القدر الذى تحسه من إنشاء الدولة « لوزارة الحب » .

وهنا يكمن الضعف الفنى الرئيسى فى رواية أوورويل من وجهة نظر « بيرجس » ، وهو النقص فى الصراع بين نظرة الفرد للحب ونظرة الدولة

له ... فالبطلان لا يقدمان ضد « الأخ الأكبر » القوة الموجودة بين زوجين ... لا يقدمان قيم الأسرة ، ويبدو أن أورويل ــ هكذا يرى بيرجس ــ يؤيد ويحرض على هذه المقابلة الزائفة بين رذائل الدولة الأخلاقية ورذائل الفرد الأخلاقية ... كل ما فى الأمر أنه كان يتنبأ بالمستقبل ، لأنه بحلول أيامنا هذه كادت النظرة التقليدية للحب تختفى دون جهد من جانب الدولة المتسلطة ... وصار مصير علاقة « جوليا ونستون » هو النهاية المتوقعة لكثير من علاقات عصرنا المتساهل ، لأنها تحمل بذرة الموت من بدايتها ... الموت لا يفرض عليها من شىء خارجها بل طبيعة العلاقة هى التى تؤدى إليه .

وهذا النزول بقيمة الحب إلى الاكتفاء منه بالعملية الجنسية أبشع ماقدم أورويل على حد تعبير « بيرجس » ، وذلك بالتالى نزول بمن يقومون بالعملية الجنسية إلى أن يكونوا مجرد أشياء ... هنا يصبح من السهل أن ننظر للبشر ، فى أى شكل من أشكال ارتباطهم الاجتماعى ، على أنهم أشياء ليست لها جوهر مستقل مجرد أسماء لنكرات يمكنك التعميم عليها . وهذا هو الشرط الرئيسى الذى تتطلبه دولة أورويل الأوليجاركية ... لم يكن من الميسور السيطرة على طبقة العمال (٨٥ ٪ من الشعب) بغير الوصول بهم إلى مجرد أسماء ... لا شرطة الفكر ولا الرقابة الدائبة يمكن أن تضمن لهذه الدولة البقاء على الدوام ، بل لابد أن تضمن أن مامن خطر يأتى من هذه الجموع الغبية .

وفى نهاية هذا الفصل الختامى من المقدمة يصدر « بيرجس » حكمه النهائى على رواية « أورويل » ... « ليست رواية ” ١٩٨٤ “ بنبوءة بقدر ماهى دليل على اليأس ــ ليس يأساً من مستقبل الإنسانية ، بل هو يأس شخصى من العجز عن الحب ... لو كان أورويل يحب البشر لما كان « أوبراين » ــ القائم على غسيل المخ ــ قادراً على تعذيب ونستون سميث ... حين يصرخ ونستون من العذاب يصبح موت الحرية أمراً محققاً ... إن الرواية صورة مضحكة رهيبة لما يمكن أن يحدث للبشرية » .

ليس هناك شيء اسمه الطبقة العاملة ... هناك فقط رجال ونساء من درجات متباينة من الوعى الفكرى والدينى والاجتماعى ، وإذا نظرنا إليهم من وجهة النظر الماركسية فسيكون ذلك أمراً مهيناً مثلما ننظر إليهم من علٍ ... لسنا ملزمين بأن نسد فجوة الدم والتعليم واللهجة والرائحة بأن نرتبط بزواج من خارج وسطنا حتى نكفر عن ذنبنا ... لكننا ملزمون بألا نحيل أسماء مجردة مثل الطبقة والعنصر إلى شعارات للبغض والخوف والكراهية وعلينا أن نحاول تذكر أننا جميعا للأسف من نفس الطينة ، أى أننا جميعا نبعث على الاشمئزاز ... لقد شق أورويل فى روايته فجوة لا يمكن أن يكون لها وجود ، وبنى فيها دولته المستبدة التى لا يمكن أن تتحقق ... دولة ترسى قواعدها فى الهواء ... قلعة فى الرمال ... لذا فسندعها تتحطم فى صمت ... لا يمكن أن يكون عام ١٩٨٤ مثل هذا أبداً .

وهكذا يختتم بيرجس مقدمته النقدية الطويلة بعد أن ألقى الضوء على معظم جوانب رواية أورويل ، إن لم يكن جميعها ، ولم يكتف « بيرجس » بهذا فقط ، بل إنه يتبع روايته هو « ١٩٨٥ » بخاتمة نقدية يتناول فيها ماتنبأ به هو من أحداث ورؤى ، ولقد حاولنا أن نحافظ على هذه الخاتمة كما هى وكما أراد لها بيرجس بعد انتهاء روايته ، ثم إنه يتبعها بملحق صغير عن لغة العمال التى يقدمها فى روايته مثلما قدم أورويل « اللغة الجديدة » فى رواية ١٩٨٤ .

وإذا كان أورويل يرى أن كابوس القرن العشرين فى الشيوعية الشمولية التى ستكتسح العالم ، فإن بيرجس يرى أنه قد جانبه الصواب ، ورؤيته البديلة التى يصورها تجعل كابوس القرن هو بالتحديد . العرب ، فهم لديهم ــ كما قال ــ مقومات الدولة العظمى : المال والبترول والعقيدة التى تدعوهم لنشرها .

وفى غير هذه النقطة الأساسية نجد تشابهاً كبيراً بين شكل ١٩٨٤ و ١٩٨٥ ، وليس هذا مجال المقارنة والمفاضلة بين الروايتين ، لكن هناك بعض النقاط الواضحة مثل صورة « الأخ الأكبر » التى يستبدل بها صورة

« بيل » رمز العمال ، ومثل الوحدة التى يعانى منها البطلان وثورة كليهما على النظام ، ووجود فكرة فى ذهنيهما يبغيان تحقيقها وفشلهما فى تحقيق هذه الفكرة ، ومثل اللغة الجديدة (١٩٨٤) ولغة العمال (١٩٨٥) ، ومثل الأغنيات التى تقابلنا من حين إلى آخر فى الكتابين . كما أن فى الكتابين اهتماماً بما هو شعبى وحنيناً واضحاً إلى الماضى . فضلاً عن هذا فإن البطل يتم اعتقاله فى الروايتين وتجرى محاولات لتغيير فكره لا مجرد تعذيبه .

وقد يتضح لنا من هذا أن الكتاب من الناحية الفنية يفتقر للجانب الإبداعى ، ويتميز بالالتزام الشديد بإطار رواية أورويل . بل إن الشخصيات فى الرواية كلها شخصيات نمطية لا نحس فيها بأى تطور مقنع . وشخصيات بهذا الشكل لا يمكن أن توجد فى الحياة . وروايات بيرجس ــ كما أسلفنا ــ روايات أفكار . فالشخصيات مجرد وسيلة لدى الكاتب لتجسيد هذه الأفكار . فهى تذكرنا بما يسميه إ . م . فورستر (الشخصيات المسطحة) وهى تسمى أحياناً شخصيات نمطية أو كاريكاتورية ... ولا يوجد بها من العناصر الإنسانية المميزة إلا عنصر واحد وهذا العنصر هو الفكرة ، وكما يمضى فورستر فليس لدى هذه الشخصية « فكرة ثابتة ، فالشخصية نفسها هى الفكرة ، ولا حياة لها خارج إطار هذه الفكرة » (٥)

فكل شخصيات الرواية تقريباً ــ بف جونز ، إليزابيث ، كولونيل لورنس وغيرهم ــ تتسم بهذه الصفة . فكل شخصية تمثل فكرة ، وإذا نزعنا عنها هذه الفكرة لم نجد للشخصية أثراً . وكما يقول بيرجونزى فإن بيرجس قد يرسم شخصية تثير الاهتمام ، « ولكنه لا يملك حيالها سوى الدفع بها فى حكاية متعددة الفصول ، وتكاد كل روايات بيرجس تعكس هذا الضعف الأساسى فى إبقاء بناء روائى طويل وتطويره » (٦)

---

(٥) جوانب الرواية. أ . م . فورستر . بليكان صـ ٧٦.
(٦) الروائيون المعاصرون صـ ٢٠٨ .

غير أن الشيء الذى برع فيه بيرجس هو استخدامه للغة . ولعلنا نذكر أن له كتاباً عن تبسيط اللغة . فاهتمامه باللغة والتلاعب بالألفاظ والتركيبات واضح فى ١٩٨٥ . وهذا يعكس تأثير جيمس جويس على بيرجس ، كما يتفق بيرجس فى هذا مع أورويل فى الاهتمام بأن اللغة تشكل الأفكار التى تدور بذهن الإنسان ، فالإنسان يفكر بكم المفردات التى لديه . وكلما زادت المفردات إزدادت المفاهيم التى يفكر بها المتكلم . وعلى هذا بنى أورويل اللغة الجديدة على تقليل عدد المفردات . لكن بيرجس فى ١٩٨٥ بنى لغة العمال على التبسيط الشديد فى اللغة بجميع مستوياتها : الصوتى والصرفى والتركيبى . وهذا التبسيط يمكن الوصول إليه عن طريق تبنى اللغة العامية وجعلها اللغة الأساسية لدى الدولة وفى المدارس ومعاهد العلم ، وقد تضمن هذا بالضرورة إلغاء معظم المناهج الدراسية واستبدال مناهج أخرى بها . مما أدى إلى استقالة العديد من المدرسين . والهدف من تبسيط اللغة هو تشويش الفكر عند المواطنين وفصلهم فصلاً تاما عن ماضيهم وتراثهم الفكرى والأدبى ، وهذا أقصى ماتتمناه السلطة .

وبعد ، فرغم أن القارىء العربى قد يصدم فى كثير من مبالغات الكاتب فى روايته ، وتشويهه لعقيدة العرب وتضخيمه لإمكاناتهم ، فإن غاية مانتمناه أن يجد القارىء فيه نموذجاً لطريقة التفكير الغربى حياله ، وهو أمر بدأ يغيب عن أذهان الكثيرين .

أ . ص

م . ع



١ • حريق الميلاد

الأسبوع الأخير قبل أعياد الميلاد ... ظهر الأثنين والجو دافىء رطب ... وأصوات المؤذنين فى غرب لندن تتعالى معلنة أنه لا إله إلا الله :

« أشهد ألا آله إلا الله
أشهد ألا آله إلا الله »

شق « بف جونز » طريقه عبر حشود المشترين متعددى الجنسيات ماراً بمحل الاسطوانات الصاخب ، والسوبر ماركت المبهرج بزينات العيد ، والحانة القديمة التى أصبحت الآن وكالة سياحية متخصصة فى تنظيم الرحلات إلى مكة ، وإن ظلت معروفة بـ « البلنبوش » ... انعطف « بف » عند ناصية طريق « تولبدل » قاصداً شارع مارتر ، حتى بلغ عمارة « هوجارث » الشاهقة حيث يقطن ، لكن قلبه غاص بين أضلعه وهو يقول فى نفسه مكتئبا إن من يعرفه لا يكاد يصدق أنه يقطن هنا ، مع تلك العصابة من الشبان العدوانيين قاطعى الطريق ... هؤلاء الإرهابيون الذين يسمون « عصابات الكومينا » و « كومى نا » أصلاً مقطع فى اللغة السواحلية يستخدم فى الأرقام من ١٣ إلى ١٩ ، ثم توسع فى استخدامه فأصبح يعنى مرحلة المراهقة عادة ، فى مثل هذا الوقت من اليوم تجدهم فى المدارس ينهبون مقاصفها ... لكن هناك حالياً إضراباً للمدرسين ، وهذا هو السبب فى أن « بف » ، لم يتناول غذاءه فى المقصف اليوم .

لا تزال ابنته بيسى فى المنزل وحدها ... وليس ثمة من يرعاها بعد أن دخلت زوجته « إلين » المستشفى ، فيجب عليه أن يفتح باب المطبخ المغلق ليطعم بيسى . تبلغ ابنته الثالثة عشرة من عمرها ... تتميز بنضج مبكر من الناحية الجسدية ، فقط من الناحية الجسدية ، أما فى غير هذا فهى متخلفة بالنسبة لسنها ... يقول أطباء التأمين الصحى إن السبب فى هذا هو مادة « ينيثليا » ، وهو

عقار لتيسير الوضع ، لم تكتشف آثاره الجانبية إلا فيما بعد ... غير أن الدكتور زازيبو علق قائلا :

ــ لا أحد يسأل عن هذا الخطأ ، فالطب ياسيدى يجب أن يتقدم ..

حاول بف أن يبتسم تملقا للسبعة من شبان الكومينا الذين اعترضوا طريقه ، غير أن عضلات فمه جاءت حركتها وكأنها قد امتصت قدراً من الليمون المركز ... لم يكن يعرف أيا منهم ، فهم لا يقطنون هنا ... لكنهم دائما خطرون ، ومكمن خطورتهم أنهم أذكياء ، بل أكثر من أذكياء ، فبعضهم مثقف ثقافة عالية ... وتلك هى المشكلة : حينما لم تشجع الدولة التعليم ، أصبح التعليم قوة ضد المجتمع .

قال وهو على الدرجة الثانية من السلم :

ــ بعد إذنكم ياحضرات ... أنا ساكن هنا .

لكنهم لم يتركوه يصعد درجة أخرى ، فأضاف قائلاً :

ــ كما أننى مستعجل بعض الشىء ..

فجاءه الرد باللاتينية : « فيستينالنتى » أى فى العجلة الندامة ، قالها مبتسماً شاب ذو بشرة فى لون الكاكاو ، يرتدى قميصاً فضفاضاً رسم عليه شيكسبير ، ملوحاً بقبضة ضخمة ومعطفه يتطاير فى الهواء ، وقد كتبت تحت الصورة عبارة « قوة الإرادة » ... ثم أوثقوا ذراعى بف ، وجال الشاب الذى يتحدث اللاتينية فى جيوبه ، وهو يغنى باللاتينية : « فلنتمتع بوقتنا إذن ، قبل أن يمضى الشباب » ... ذو صوت جميل مثل رنين من طبقة التينور ، يصدر طبيعياً بلا تكلف ... لم يجد الكثير فى جيوب بف ، كل ما وجده بطاقة اعتماد للبنك الدولى ، وعلبة سجائر شبه فارغة ، وقداحة رخيصة ، وثلاثة جنيهات ورقية ، وخمس دپكرات ... دس الشاب كل شىء فى جيبه عدا القداحة فقد أشعلها وأخذ يلوح بها أمام عينى بف ، وكأنما يختبر رد فعلهما ... وبعد ذلك تثاءب وقرقرت بطنه وقال :

ــ حسناً أيها النمور ... هيا نأكل .

ثم أشعل اللهب فى شعر بف ، وترك أصحابه يطفئونه بقبضاتهم ثم أخذوا جميعاً يركلون بف برشاقة ركلاً غير عنيف ، كأنهم يلعبون الباليه ... كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك ... أخيراً تركوه ومضوا فى وهن ، وحينما وصل بف إلى مدخل العمارة عرف سر هذا الوهن ، فقد رأى صبى آل « إيرون » راقداً فاقداً الوعي قرب باب المصعد ... شبه عار وبه كثير من الرضوض وإن لم يكن نزف كثيراً ... لقد اعتدى عليه السبعة جميعاً ، ياللطفل المسكين ! يقطن آل إيرون بالطابق العاشر ، والمصعد ، بطبيعة الحال معطل ... دق بف جرس البواب ... خرج مستر « ويذرز» وهو يمضغ شيئاً ، وقد لطخت المربى ذقنه ... ظل يمضغ وهو ينظر إلى الولد الجريح ، فقال له بف :

ــ ألم تسمع شيئاً ؟ هل آل إيرون هنا ؟

فأجاب البواب :

ــ لا ... لكلا السؤالين !

ــ ألم تشاهد أى شيء على الشاشة التى عندك ؟

ــ الشاشة معطلة ولا تزال فى انتظار من يأتى ليفحصها ... إنها مسئولية اللجنة أن تعجل بهذا الأمر ... ألست عضوا فى اللجنة ؟

ــ لم أعد ... من الأفضل أن تطلب الإسعاف ..

ــ المسألة كلها تسيب لعين ..

مضى بف صاعداً إلى الطابق الثالث ... لا يجديك شيئاً هذه الأيام أن تكون شديد الشفقة على الآخرين ... فإنك قد تقضى أيامك ولياليك مشفقا على ضحايا الاعتداء فى الشوارع ومداخل العمارات والشقق ... الأقربون أولى « بالشفقة » ! وصل إلى شقته : ٣ ب ... البيت .. أخيراً ! لا جدوى من دق الجرس ، فبيسى بعقلها الصغير لن تتمكن من فتح الباب بأقفاله الكثيرة المعقدة ... لفظ بف باسمه لعين حمراء داكنة فى بروز بالحائط ، واستجابت الآلة لذبذبة صوته الخاصة ، فانزلقت فى يده مجموعة مفاتيحه التى جاءت مصلصلة عبر مجرى ، واستغرق أربعين ثانية ليفتح الباب ... كانت بيسى تجلس على الأرض أمام التليفزيون ... تنهد بف وهى تشاهد رجلاً يستعرض جسمه على شاشة

التليفزيون ... أما الآن فهناك رسوم متحركة للأطفال ، تومض بها الشاشة وتزأر وتفرقع ، فى مشاهد عنيفة ممتعة ، ولكن لا أحد يموت ، بل ولا أحد يصاب بأدنى أذى ... حتى إن صبى آل بورسون ذا السنوات الست حينما رأى « شكويك العجيب » يقفز من ناطحة سحاب من (١٢٠) طابقاً بغير أذى ، قفز ، فى ابتسامة واثقة من الطابق الثانى عشر حيث يقطن إلى بئر السلم ... حدث هذا منذ عام ، وقد سلا آل بورسون أمر الطفل ، لكنهم لم يتخلصوا من تليفزيونهم ... قال بف ببطء ووضوح لابنته :

— اتصلت بالمستشفى ؟

— نعم .

قالتها بغير أن تحول عينيها عن الصور المتحركة ، فأجاب :

— المستشفى ، التى أملك فيها ، هل اتصلت بها ؟

— معطل ..

فعاد يسأل فى صبر :

— ما المعطل ؟ تليفوننا ؟ أم مركز تليفون المستشفى ؟

فما كان منها إلا أن أعادت القول : « معطل » ، وانفرجت شفتاها فى فرحة بلهاء فاترة إذ شاهدت فأراً بقبعة تسحقه مطرقة بخارية ، ومع هذا ينجو ويضىء مطالباً بالثأر ... ثم أردفت .

— أنا جائعة ..

مضى بف للتليفون بالردهة القصيرة ، وطلب الرقم (٣٥٩١١١١) فرد عليه صوت لطيف على شريط تسجيل :

— هنا مراقبة المستشفى ، فى « برنتفد جنرال » لا تزال عمليات الإنقاذ والإخلاء جارية ... ممنوع الرد على الاستخبارات الفردية لمدة أربع وعشرين ساعة على الأقل ... هنا مراقبة المستشـ ... » .

لم يكن قلبه قد استقر بعد من اضطرابه المضاعف ، من الركل الذى يشبه الباليه ، ومنظر صبى آل إيروين ، وصعوده السلم رغماً عنه ، أما الآن فقلبه يدق

بشدة ... اندفع إلى التليفزيون ، وبدأ يبحث فى قنواته رغم عويل بيسى وضربها كعبيه بقبضتيها ... عثر على نشرة الأخبار ، يقرؤها رجل صغير الذقن ، كثيف الشعر ، وفى الخلفية صورة صغيرة لألسنة لهيب تندلع :

ــ ... تنظر فى الأمر جدياً ، ويعتقد أن الحريق قد بدأته عناصر غير مسئولة لم يتم بعد تحديد هويتها ، وإن كانت أجهزة سكوتلاند يارد تقوم بالفعل بتعقب ماوصفته بأنه مفاتيح هامة لمعرفة الفاعل ... ويسرى شعور بأنه قد تم ــ عن عمد ــ استغلال إضراب رجال المطافىء الذى دخل أسبوعه الثالث ، والإضراب الذى بدأ أمس تأييداً له فى ثكنات الجيش فى منطقة لندن ، وقد ذكر السيد هاليفاكس وزير الأمن العام أنه فى غياب مرافق المطافىء الرسمية فإن على المواطنين الحذر من المزيد من أعمال الإحراق المتعمدة غير المسئولة ، وأن يتعرفوا فى الوقت نفسه على معلومات الاحتياط ضد الحريق التى توفرها وسائل الإعلام ..

خرج بف من الحجرة وهو ينشج « ياربى ! » ... وأخذ يعبث بالأقفال المتعددة والمذيع يقول : « كرة القدم أهم مباريات الليلة » . ترك بيسى بفهمها البطىء دائماً تصيح قبل أن تحول التليفزيون إلى الرسوم المتحركة مرة أخرى ، وقد بدأت حلقة قديمة من حلقات « بوباى » ... سكنت قانعة بهذا ، ثم تذكرت جوعها ، لكن بف كان قد خرج من الشقة قبل أن ترتفع شكواها ..

نزل السلم مضطرباً وهو ينشج ... لا يزال الصبى يرقد فاقداً الوعى فى انتظار الإسعاف ، وأغلب الظن أن البواب قد عاد لغذائه ... جرى إلى الشارع العمومى ... ليس ثمة سيارات أجرة ، لكن هناك أوتوبيساً متجهاً لبرنتفد حيث الحريق ، وقد أوقفه اختناق المرور فركبه ، ولما صعد تذكر أنه ليس معه ثمن التذكرة ... إلى الجحيم ! أليست صدمة الحريق الذى بلغ السماء ، والغم الذى هو فيه ، أليس كل هذا بالثمن الكافى ؟ أجل ، وقد تيقن من هذا حينما عاود الأتوبيس زحفه البطىء ، فقد قال له المحصل الأسود ..

ــ لا عليك يارجل ... فأنت تبدو مرهقاً للغاية ... لتدفع المرة القادمة !

ثم وصل المكان ... حاول أن يندفع خلال رجال الشرطة (إذ لم تكن الشرطة وقتها فى إضراب وهو يصرخ :

زوجتى زوجتى ! إنها زوجتى ، تباً لكم ..

لون السماء يتدرج بين الأحمر القانى والأرجوانى والأصفر الفاقع والفاتح فلون الدخان ... شظايا الرماد تنطلق عالية كأنها شياطين سوداء صغيرة ، والحر يلفح الوجوه فى اجتراء كعملاق عربيد ... أما النوافذ فعيون لا ترى فيها غير اللهب ، ثم تتهاوى فى حزن فى نهاية الأمر ... رأى طبيبين خائرى القوى يرتديان معطفين أبيضين محترقى الأطراف ... ورأى الأسرة والنقالات تشحن فى سيارات استعيرت من مصنع بيرة مجاور ... صاح بف فى الطبيبين :

ــ زوجتى ... إلين ... مسز جونز ... عنبر ٤ ج .

هزا رأسيهما ، وكأنما هز الرءوس أمر مجهد بدنياً ... رأى إمرأة عجوزاً ترقد شبه عارية متدثرة ببطانية ، وقد احترق شعرها الأبيض ، فصاح فيها :

ــ أنت ... أنت تعرفيننى وتعرفين زوجتى .

فهمس صوت مألوف لاهث :

ــ لا تدعهم يفلتون من العقاب ..

فصاح :

ــ إيلى ... إيلى ... ياإلهى .. !

ركع بجوار النقالة التى بانتظار الشحن ... إنها زوجته وليست زوجته ... استعصت أجزاء من جسدها على الحريق ؛لكن جل هذه الأجزاء عظام ... كان جاثيا على ركبتين بجوارها ، ثم حاول فى نشيج يائس أن يميل ويحتضنها ... لم يجد بين يديه إلا حفنة من جلد محترق تحته لحم مشوى ! إنها الآن لا تحس بأى شىء ، لكن الصوت كان صوتها ... ولم تكن كلماتها الأخيرة عن الحب : أحبك ... أو إرع بنتنا بيسى أو ياللخسارة أو سنلتقى من جديد ، بل كانت « لا تدعهم يفلتون من العقاب » ... قال بصوت متهدج :

ــ آه ياحبيبتى المسكينة ..

من فوقه قال صوت متعب :

ــ ضعوا هذه فى سيارة ت . م .

« التخلص من الموتى » ، و« إجلاء الأحياء » ... يرمز إليها بكتابة « ت . م » و « أ . أ » بالطباشير على سيارات مصنع البيرة ... وجد بف جسده يرفع برفق ليستوى واقفا ، وسمع صوتا طيبا أجش يقول له :

ـــ ليس بيدك شيء ياأخى ... إنه العار الصارخ ... هذا هو العالم الذى نعيش فيه .

وعاد للمنزل ، وبينما هو سائر فى طريقه تقهقر خطوتين إلى الوراء ... فقد رأى نفسه فى زجاج واجهة أحد المحلات ، رجلاً متدلى الفك ، مشوة الفم ، قاسى النظرات ، احترقت من شعره شعيرات بلهب صغير ، كأنها رسالة نبوئية ... حين وصل مدخل العمارة وجد الجسد الخامل لا يزال راقداً ... فى انتظار سيارة إسعاف ، أغلب الظن أنها لن تأتى الآن ، فتركه وصعد السلم .

لم يكن من اليسير أن يوضح لبيسى بالتحديد ما الذى حدث ، أن يوضح لها إنها الآن يتيمة الأم ، وأن أمها قد نضج لحمها حتى الموت بفعل عناصر غير مسئولة ، وأن هؤلاء الذين عليهم أن يطفئوا الحرائق قد أضربوا عن العمل منذ أسابيع فى سبيل المزيد من المال ، وأن الجيش ـــ إما خوفاً أو انطلاقاً من اقتناع فكرى أصيل بحق الامتناع عن العمل ـــ قد تمرد .. لكن « تمرد » كلمة قديمة بطل استخدامها فى هذا المجال ، فلم تعد مرتبطة فى الأذهان إلا بالأفلام القديمة عن الأسطول البحرى البريطانى ... إنها كلمة من الطراز القديم ، تماما كالشرف ، والواجب ... ليس من اليسير أن يوضح لابنته أن إمكان امتناع الرجال والنساء عن العمل مقبول عامة من حيث المبدأ كحق من حقوقهم ، وأن هذا الحق قد انتقل أخيراً من محلات التجار إلى ثكنات الجيش بعد بعض المجادلات العقيمة حول الشرف والواجب ، .. لا ... لن يخبر ابنته بأى شيء الآن ... كفاه مالديه ليفكر فيه ويعانيه أيضاً ، ولا حاجة به لكى يتعب ذهنه بحثا عن منطقة تفكير فى مخ بيسى .

كانت تشاهد فيلما قديما عن الأمريكيين وهم يحاربون اليابانيين ... وكانت تأكل قبل أن يأتى حبوبا من علبة صبت فيها لبناً ... غير مبالية بتسربه ... ونثرت علبة السكر ... كما هو واضح ، على الأرض من حولها . كل ذلك حدث لأنه ـــ

فى استعجاله ، نسى أن يعيد إغلاق باب المطبخ الذى لا يمكن أن تؤتمن بيسى عليه ... ذهب إلى المطبخ فى هدوء هذه المرة ، وبدأ يعد وجبة مطبوخة لبيسى ... فلكل إنسان الحق فى وجبة مطبوخة فى الغداء ... حقا لقد فات موعد الغداء منذ وقت طويل ... لكن المناقشات الفارغة حول المواعيد لن تمنع هذا الحق عن أحد ... بالنسبة له فهو لن يعود للعمل اليوم ... أما غداً فسيكون مختلفاً ... غداً سيكون مختلفاً تماماً ..

قام بشواء بعض السجق ، وصنع بطاطس مهروسة من حبات بطاطس مجففة كانت عنده ، كما أعد بعض الشاى ... نادى ابنته وأخذ إليها طبقها ... ياللطفلة اليتيمة المسكينة ! مشغولة بمشاهدة أبناء أمريكا وهم يحيلون حياة اليابانيين إلى جحيم ... جلس على مقعد أرجوانى متداع متشابك اليدين ، يرقبها وهى تأكل ... جرفت كل الطبق وهى لا تكاد تراه ... وفى النهاية تجشأت ، ياللطفلة اليتيمة المسكينة « البريئة » ! حينما جاءت « النهاية » مع دقات طبول النصر أغلق الجهاز فى رفق ، فصدرت عنها أصوات امتعاض كأنها ثغاء حيوان ، ورفعت يدها لتفتحه لكنه أمسكها فى حنان وقال لها :

— لدى أشياء يجب أن أقولها لك .

— لكن التليفزيون سيعرض « سبيرو » و « سبارو » الآن !

— سبيرو وسبارو أو أى شىء آخر لابد أن ينتظروا ... يجب أن أقول لك إن أمك قد توفيت ... لقد ماتت حرقا فى المستشفى ... هل تفهميننى يابيسى ؟ أمك العزيزة ... زوجتى العزيزة ... لن نراها مرة أخرى بعد الآن ..

ثم انخرط فى البكاء ، وسالت أنفه فقال وهو يتنشق باحثا عن منديله : « آسف ... غصبا عنى » ! ... لكن عصابة الكومينا سلبت المنديل فيما سلبت ... رأى بعينيه المغرورقتين بالدموع طفلة تنظر إليه فاغرة فاها ، محاولة أن تستوعب مايقول ... كانت تنظر فى المستقبل ، محاولة أن تتصور حياة بغير أم ، ثم قالت :

— ومن الذى سيعد لنا عشاء عيد الميلاد إذن ؟

هذه هى البداية : إنها تفكر فى مستقبل أزيلت منه بعض أسباب الراحة ، ثم قالت :

إنك لا تطهو جيداً مثل ماما .
ثم بدأت تتمخط باكية وهى تقول :
ــ مسكينة أمى ... مسكينة أنا ..

لقد بدأت الآن تستوعب المزيد ..
ــ سأتعلم يابيسى ، سنتعلم ... أنا وأنت ياابنتى .

ونظر إليها بعينين تملؤهما الشفقة الحزينة ، إنها طفلة فى الثالثة عشرة لكنها تبدو كبنت عشرين في أوج نضجها ... جاهزة بنضجها المبكر لإنجاب أطفال يصبحون فيما بعد عمالاً بلهاء يخدمون المملكة المتحدة ... أو « تاكلاند » ، كما يسميها « بيل : رمز العمال » ، لقد امتحن بف قدرتها على تعلم أى شىء غير أزرار التليفزيون ، إنها ضحية الطب الردىء ، والهواء الردىء ، والطعام الردىء ، ضحية التعليم الهزلى والثقافة الشعبية الحقيرة ... عقلها بلغ السابعة وتوقف عند ذلك ، وفى العام الماضى تم إجبارياً تركيب لولب لها لا تصل إليه أصابعها لتعبث به ، قال فى نفسه : حسناً : كل شىء على مايرام « لا تدعهم يفلتون من العقاب » ... لو كان سيتحدى النظام ... فبعيد عن الاحتمال أن تكون بيسى رفيقة الكفاح المناسبة ..

والآن وقد فهمت بيسى أن هناك فراغاً ما فى المستقبل ، وعليها أن تقبله فى حياتها ، بدأت تملأ بعض هذا الفراغ بفتح التليفزيون على نهاية « سبيرو » و « سبارو » ... تنهد بف وهز رأسه وهو يشاهد هذين الحوتين ويسمع إنجليزيتهما المكسرة على الطريقة الصينية :
ــ هو ليس تأتى ... أنا عارف هو ليس تأتى ... أنا عارف هو تأتى سريعاً .

كان يعلم أن صدمة ستحيق به حالاً ، فقام بعملية تلطيف للصدمة ... ذهب لدولاب المطبخ وتناول زجاجة نصف مملوءه بالبراندى الاسترالية عليها عبارة (احذروا التقليد الأجنبى) ، كان قد احتفظ بها للطوارىء . جلس على مائدة المطبخ وبدأ يرتشف منها ... صنبور المياه يقطر فى رتابة ، كالحياة ... نتيجة الحائط أمامه تصور فتيات سمراوات عاريات وسط الجليد ، فرحات بالشتاء ضاحكات عن ضروس محشوة ــ ديسمبر ١٩٨٤ . كانت « إيلين » قد رسمت

دائرة حول ١٠ ديسمبر لأنه اليوم الذى دخلت فيه المستشفى ، ودائرة أخرى حول ٢٠ ديسمبر وهو اليوم الذى كان من المفروض أن تغادر فيه المستشفى ... كانت مريضة بالتوى ، ومرت بفحوص كثيرة مضجرة لتعرف هل تشخيص د . زازيبو سليم أم لا ، ولو كان سليماً فالنتيجة هى استئصال الطحال ... قال الجراح ما ننج إن العملية مضمونة تماماً ، لكن عينيه كانتا تكذبان لسانه ، وقال له أحمد الله يارجل على خدمات التأمين الصحى ، لكن بف بحث فى هذا المرض بالمكتبة العامة ... العملية ليست مضمونة على الإطلاق .

حبس دموعه وعب مافى الزجاجة ... أحس بطعم يشبه السكر المحترق ، كان مقدمة للنار التى شعر باضطرامها فى بطنه ... ثم بدأ يحس أن بداخله شعوراً مبهما ، كقصيدة عاطفية حالمة قوامها المشاعر الخالصة : هناك نظام فى هذا الكون ، معنى ، عناية إلّهية تحكم كل شىء ... ترك دموعه تسيل ، بل وبدأ يستمتع بها ... « العملية ليست مضمونة على الإطلاق » ... ثم أيقن أنه لن تكون هناك صدمة ، فلم يحدث أى شىء لم يكن يتوقعه ... ذلك المرض ... « إن استئصال الطحال قد يؤدى إلى تسكين مؤقت لأعراض المرض ، لكن احتمالات الشفاء تكون فى ٨٥ ٪ من الحالات سلبية » .

نعم ، كان يتوقع أن تموت إيلين ، وإن لم يكن يتوقع هذه الميتة الشنيعة ... وماذا عن كلماتها الأخيرة ، وعما يجب أن يفعله ؟ إنه مبدأ أصيل عنده بعُث الآن من جديد ... جرح قديم نكأته كلماتها الأخيرة ... « الكلمات الأخيرة لزوجتى يا ناس ! يا ناس ! ألا يجب علىّ أن أحقق رغبة زوجتى الأخيرة ؟ » لكن الجرح القديم كان ساخنا منذ خمسة أعوام ... وإن كان سرعان مااندمل ..

فقد هاجر عمه جورج وعمته روزا إلى إستراليا فى الستينيات . وعاشا حياة سعيدة فى مدينة إديليد ، تلك المدينة المحافظة ، يذهبان إلى الكنيسة ، ويأكلان المحار ... وكان جورج ناجحاً فى عمله بالطباعة ... وظلا قرابة عشرين عاماً فى حياتهما تلك ، كأنهما استراليان أصيلان ... ولم يزرفا ولو دمعة حنينا على إنجلترا التى تركاها خلف ظهريهما ... ثم حدث فى ١٩٧٨ أن مرضت روزا كأسوأ مايكون المرض ، لقد شلت شللاً كان يضطرها لاستخدام رئة صناعية

كهربية ، تلازمها كأنها قطعة أثاث دائمة بحجرة المعيشة فى « الجلورياسوم » (هذا هو الاسم باللغة الاسترالية كما قال عمه فى خطاب له) ، على طريق باركسايد . وفجأة وبغير سابق إنذار ، أضرب عمال الكهرباء ... « الإضراب » هى الكلمة الصحيحة ... وبالبشاعتها من كلمة ! لم يكن ثمة وقت للإسراع بها وبرئتها الحديدية إلى المستشفى التى بها تيار للطوارىء ، ماتت بسبب حاجتها إلى التيار الذى يمدها بالحياة ... بل ، قتلت ، كما صرخ جورج ... وعندئذ ذاع الخبر فى كل الصحف ، واتهم جورج قائد الإضراب جاك ريز بالقتل العمد . ولم يكن هناك أى لوم على النقابة ... فالعمال قد أضربوا بصفة غير رسمية ، بدون إذن من النقابة . وصرخ عمه : نعم ، ولكن من الذى اخترع هذا السلاح ؟ ملعون نظام النقابات بأكمله ، ولتذهب « النقابية » كلها إلى الجحيم ... ولأعلنها الآن مادمت بصدد الموضوع إنه ليس من حق أى إنسان أن يتوقف عن عمله بإرادته تحت أية ظروف ، لأن رغبة الإنسان فى العمل هى التى تعطيه إنسانيته . وفى غمار هذا الجنون الواضح قتل العم جورج « الفريد وج » السكرتير العام لنقابة عمال الكهرباء فى دولة استراليا ، قتله بالرصاص وهو خارج من سيارته الرسمية أمام منزله الخاص ، أما جاك ريز قائد الإضراب فقد أفلت من العقاب .

وعاش العم جورج أيامه المضطربة والعنيفة أحياناً فى مكان أخضر مريح اسمه « مصحة باتريك وايت » .

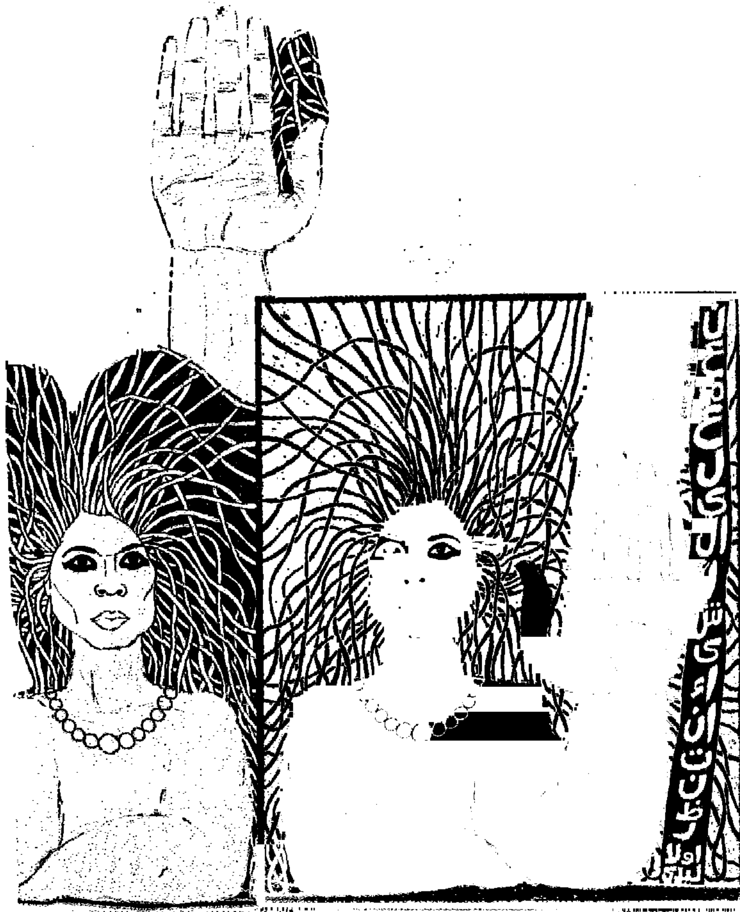
وهناك قصة أخرى لم تذكر قط فى صحف بريطانيا (أو صحف تاكلاند) ، ربما كنوع من التكتم الصحافى ، أو الإرهاب ، أو الرشوة ، أو ربما كنوع من اللجوء لقانون خاص بالنظام العام . وهذه القصة حدثت فى أحد أيام يناير بإحدى مدن ولاية منيسوتا بالولايات المتحدة « النقابية » ! كما أطلق عليها البعض ساخرين ... كانت درجة الحرارة ٣٥ درجة فهرنهايت تحت درجة التجمد ، وفجأة هدد أعضاء نقابة اتحاد عمال الكهرباء بقطع التيار عن كل مصادر الطاقة بالمدينة لو لم يصدر أمر من الرئيس بالاستجابة الفورية لمطالبهم ، وهى زيادة باهظة فى الأجور . وحينما تحدت الحكومة هذا التهديد ، حدثت خمس عشرة ألف حالة وفاة من شدة البرد ، وهو عدد إخفاؤه عسير على الناس . وكان لابد ، بعد ذلك من أن يحصل العمال على مطالبهم ... عندئذ حاول عمال آخرون

استغلال نفس هذه الطريقة الشيطانية فى مرافق أساسية أخرى . كالغاز والمياه والطاقة والبترول وتوزيع التموين . فتم استدعاء الحرس الوطنى ، الذى كان لا يزال يفهم المدلول الحقيقى لكلمة التمرد . فنشبت معارك مع حراس الإضراب الذين وقفوا صفوفاً يمنعون العمال من الدخول ، وانهمر الرصاص ، وأخيراً عم الخجل ، وعاد النظام والاحترام بعد مقتل ابن جيم شللدون بطريقة وحشية . وقد عرف بف كل شيء عن هذه القصة ، فقد كان ابن عمه الذى عاش طويلاً فى إحدى مدن مينسوتا يكتب له كل شيء فى خطابات . وحينما لم تكن تصله خطابات من ابن عمه لم يكن ذلك بسبب الرقابة ، وإنما بسبب إضراب عمال البريد ، ولم يكن هناك إضراب فى هيئة البريد وقتها ، فوصلته الخطابات كلها .

* * *

وهكذا ماكانت كلمات زوجته الأخيرة « **لا تدعهم يفلتون من العقاب** » سوى صدى لأغنية قديمة فى أعماقه . أطلق بف تنهيدة وهو منكب على زجاجة البراندى شبه الفارغة ، متوقعاً أن يترجم هذا السخط العارم الطويل إلى فعل فى نهاية المطاف ... لم يكن يريد أن يموت شهيداً فى سبيل حرية لم يعد الكثيرون يؤمنون بها أو حتى يفهمونها . لكنه أحس وكأنه قطع تذكرة فى قطار لا يعرف وجهته ، وأنه المسافر الوحيد فى هذا القطار ... كل مايعرفه أن هذه الرحلة لابد منها .





٢ • تاكلاند الشجاعة

حدق « دفلين » فى بيانات الكومبيوتر وقال :

بف ؟ أهذا حقا هو اسمك الأول : بف ؟ أليس اختصاراً لـ « بيفرلى » مثلا أو أى اسم آخر ؟

فقال بف :

تستطيع أن تعتبره اختصاراً لثلاثة أسماء : « بيفردج » و « بيفين » و « بيفان » . فقد كانت هذه من أكبر الأسماء حينما ولدت ، أقصد من أكبر الأسماء فى عالم « الاشتراكية » ... فقد كان أبى من كبار الاشتراكيين .

فقال دفلين :

« بيفردج كان ليبراليا ، وإن كانت فكرة « التأمين الاجتماعى » فكرة راديكالية أساسا ..

ــ فكرة راديكالية مأخوذة عن ألمانيا فى عهد بسمارك .

فقطب دفلين جبينه وهو يقول له:

يبدو من كلامك أنك رجل متعلم !

متعلم ! تبدو الكلمة مهجورة قديمة ، لكن دفلين رجل فى الستينيات من عمره ، ولم تواكب مفرداته اللغوية دائماً تطور الـ « ل . ع » أو « لغة العمال » . ومضى يقول وهو ينظر إلى بيانات الكومبيوتر :

ــ مظهرك لا ينم عن إنك عامل فى ... فى مصنع حلوى ... نعم نعم ... كل شيء مدون هنا ، لقد كنت من قبل ذلك مدرسا للتاريخ الأوروبى فى مدرسة « جاك سميث » الثانوية العامة ... لكن سبب تركك للوظيفة غير مكتوب .

ـ لقد تركت الوظيفة بسبب توجيهات الوزارة ... لقد اختصرت مناهج التاريخ اختصاراً مخلاً ... وكأن « تاريخ الحركة النقابية » هو كل التاريخ الأوروبى ، وهو ـ فيما أعرف ـ ليس كذلك ! وليس حتى أهم جانب من جوانب التاريخ . لكننى احتفظت بمشاعرى لنفسى ولم أقم بأى احتجاج عام ... وإنما قلت إننى أريد تحسين حالى .

ـ فقررت أن تفسد بطون الأطفال بدلاً من أن تنمى عقولهم ؛ هذا ما سيقوله أصحاب الأحكام العامة غير الموضوعية !

ـ لقد قمت بتحسين حالى بالفعل ... فقد تيسرت حالتى المادية وأصبح مرتبى عشرين جنيها فى الأسبوع . ومن المقرر أن يزيد إلى ثلاثين جنيها فى السنة الجديدة ..

ـ إلا إذا لم تعمل فى المصنع فى السنة الجديدة ، هذا لو أصررت على هذه الـ ... الرجعية .

لابد أن أصر عليها . أما كنت أنت تصر عليها لو عرفت مدى الفساد والقذارة التى آلت إليها الحال ؟ إن النظام الذى بدأ نوعاً من الدفاع عن النفس أصبح الآن حلفاً لقوى الفساد ! نظل جميعا نحلم ثم نفيق بعد ذلك ... لقد قتل هذا النظام زوجتى بفساده وقذارته . فهل تتوقع منى أن أتحمل بعد الآن دنسه وشره العارم ؟ لقد رأيت بعينى رأسى زوجتى محترقة اللحم متفحمة العظام ... ثم تطلب منى أن أؤيد هذا الإضراب الآثم لرجال المطافىء الملاعين ؟

فقال دفلين فى رقة :

لم يطلب منك أحد أن تفعل شيئاً ..

وقدم لبف علبة سجائره ، فهز رأسه رافضاً ، فقال دفلين ، وهو يتناول سيجارة ويشعلها :

أنا نفسى يجب أن أقلع عن التدخين ... أى مجنون يطيقه !

كان مرسوماً على علبة السجائر صورة مؤثرة ، وإن كانت صغيرة ، لرئة

أكلها السرطان ... أوامر وزارة الصحة ، لكن التحذير بالكلام لم يؤد قط إلى نتيجة فعالة ، ومضى دفلين يقول :

ليفعل رجال المطافىء مابدا لهم ، وليفعل الجيش مابدا له ... إننا بطبيعة الحال نوافق من حيث المبدأ على سلاح الإضراب ... لكن حاول أن تكون متفهما ، لا تلق بمسئولية وفاة زوجتك على أسلوب أساسى من أساليب النقابة ... إنما اللوم كله يقع على هذا الخنزير الفاسق الذى أحرق المستشفى .

ـــ طبعاً أنا ألوم هذا أيضاً ، لكننى إذ ألومه إنما أهاجم مبدأ الشر . فمرتكبو هذا الحادث ، هم أيا كانوا حثالة شريرة من القتلة الصعاليك ، ولو قبض عليهم فسيتم عقابهم ، لا ، فكلمة « عقاب » كلمة قديمة هه ؟ سيتم « إصلاحهم » ... ولكن حتى لو تمكنت منهم وقتلتهم ، وأنت تعرف كيف سأقتلهم ..

فقاطعه دفلين ، وقال وهو ينفث دخان سيجارته :

ستتغلب على هذه الصدمة .

ـــ حتى لو استطعت أن أراقبهم وهم يحترقون ، ويصرخون صراخاً لابد أن زوجتى عاشته ، سأظل أحس فى داخلى بالعجز والسخط ، لأننى سأدرك أننى أواجه الشر بالشر ، إننى قد أضفت إلى كم الشر فى هذا العالم ، وإن الشر سيستمر لا تقدر قوة على تصفيته أو تدميره ، سأحس أن الشر هو البداية وهو النهاية ..

فقاطعه دفلين :

إن ماتقوله ليس من شأننا ، بل هو أقرب إلى اللاهوت وكلام الكنائس ... أسلوبك فيه بليغ ومؤثر بحق ... هذه الأساليب البلاغية مفيدة أحياناً وستظل كذلك ... أنا نفسى كنت أستخدمها أيام شبابى ، إلا أنى كنت أقول أشياء مثل « إن شرور الرأسمالية يجب أن تصفى ... أن تدمر » ... أسلوب إنشائى بليغ ، ولغة دينية . آسف لمقاطعتك أثناء الحديث ..

ـــ دعنى أقولها بطريقة أخرى ... لو شاهدت رجلاً يُسب فى الشارع ، وينهب ويسلب ويضرب ، بل ويعتدى على شرفه . ورأيت الناس واقفين لا يحركون

ساكناً إزاء مايحدث ، ألن تعتقد أن الذنب ذنب الصامتين بقدر ماهو ذنب المعتدين ؟

ــ ليس بنفس القدر ، فهم لم يفعلوا أى فعل ضار ، بل لم يفعلوا شيئاً على الإطلاق . إن الناس يُسألون عن أشياء فعلوها ، لا عن أشياء لم يفعلوها .

ــ غلط ! بل لعل وزرهم أكبر ... لأن من يعملون السيئات إنما يشكلون جزءاً دائماً من حياة الإنسانية ، مما يدل على أن الشر موجود ولا يمكن إخراجه من الوجود بتشريع أو إصلاح أو عقاب ... لكنه واجب الآخرين أن يحدوا من حدوث هذا الشر فى الحياة ، وقيامهم بهذا الواجب هو الذى يكسبهم إنسانيتهم ، وامتناعهم عن القيام به جريمة ، يجب أن يحاسبوا عليها ، يجب أن يحاسبوا ويعاقبوا ..

فقال دفلين :

ــ لم يعد هناك شيء اسمه الواجب ، كما تعلم ... هناك الحقوق فقط ... إن عبارة « لجنة حقوق الإنسان » تبدو معقولة بالنسبة لنا ، ولكن لجنة « واجبات الإنسان » كلام فارغ ... أليس كذلك ؟

فقال بف :

واجب الإنسان تجاه أسرته ... واجبه تجاه فنه أو حرفته ، واجبه تجاه وطنه ، كل هذا كلام فارغ ..

ــ إننى أسلم بواجب واحد : واجب الإنسان أن يتأكد أن حقوقه مصونة ... لكنك لو قلت « حق الإنسان أن يتأكد أن حقوقه مصونة » فلن يتغير شيء فى مضمونة العبارة ... كلا ، أرفض هذا « الواجب » الذى تتشدق به .

فقال بف فى ثورة :

إذن فمن حق رجال المطافىء أن يقفوا متفرجين بينما النار تأكل إحدى المستشفيات ، أن يقفوا متفرجين ويقولوا : « اعطونا حقوقنا ولن يحدث هذا بعد ذلك ــ أو لن يحدث قبل المرة القادمة على أية حال ! إن هذا لشرّ أشد من الشر الآخر ..

فقال دفلين وهو يطفىء عقب سيجارته :

حسنا ... ربما يهمك أن تعرف أن مسألة المطافىء فى « برنتفد » قد بدأت بالفعل تجنى ثمارها الإيجابية ... فرجال المطافىء يجلسون اليوم مع « مجلس الأجور » ، وقد ينتهى الإضراب غداً . فكر فى هذا قبل أن تثور على ماتسميه بالشر . إن أى شىء يزيد من نصيب العامل لا يمكن أن يكون شراً ... فكر فى هذا ، واكتبه فى أول صفحة من مفكرة ١٩٨٥ .

فقال بف :

بل اكتبه أنت فى مفكرتك ، اكتب « إن الناس أحرار » . فقد نسيتم ــ أيها الناس ــ معنى الحرية .

حرية أن تموت جوعا ... حرية أن يستغلك الناس .

قال دفلين وفى صوته مرارة عميقة وإن لم تعد ذات معنى :

ــ تلك الحريات التى يسرنى ألا أراها إلا فى مناهج التاريخ التى رفضت أن تدرسها .

وأضاف وهو يتمتم :

إنك فرد غبى أيها الأخ ... رجعى غبى أيها الرفيق ... إنك تبغى الحرية ، وأقسم لك بحياة المسيح ــ أو موته أو عدم وجوده ! ــ إنك ستنالها ..

ولوح لبف بالمذكرة الرسمية التى قدمها له مدير المحل الذى يعمل به بف ، وقال له وقد بدأت لهجته الإيرلندية تظهر فى كلامه :

ــ لقد ولت أيام الحرية السوداء ، إلا من حياتك وحياة الرجعيين من أمثالك ... إنك لم تتوقف فقط عن تدريس التاريخ ، بل ولّيت التاريخ ظهرك أيضا ... ألا تحب أن تتذكر أنه منذ عشرين عاما فقط لم تكن نقابتى ــ ولا نقابتك ــ قد رأت النور ... كانت تجاهد لتولد وتخرج للحياة ... وأقسم لك إنها خرجت للحياة منتصرة رغم كل الآلام ... لقد كان كل من يعملون على آلات إنتاج الشوكولاته وسكر النبات وجوز الهند بالكريمة أسوأ حالاً فى

مساوماتهم من عمال المناجم وسبك المعادن وعمال السكك الحديدية . لماذا ؟ بسبب وجود أمثالك من الرجعيين ، بأحكامهم غير الموضوعية ..

فقال بف :
إن ماتقوله كلام فارغ ، وإنت تعرف ذلك .

فصاح فيه :
أنت تعرف جيداً ماأعنيه ... فتبعا لنظام بال ، وبورجوازى أساسا ، للقيم ، كان من المحظور ترك عمال المناجم يضربون لفترة طويلة يتجمد فيها المستهلكون من البرد ــ لكن ماذا عن السلع الترفيهيه ؟ لتذهب للجحيم ولتأخذ عمال الحلوى وراءها ، لكن الأمر الآن قد تغير ياهذا ... حينما نقوم بإضراب يقوم عمال المخابز بإضراب معنا ، فلو لم يستجب أحد لطلب معقول لزيادة الأجر عند عمال الشوكولاته لن يجد الشعب خبزاً يأكله ... ولن يوجد كلب رجعى أحمق ليقول: « فليأكل الناس جاتوها » ... لأنه لو لم يوجد خبز لن يوجد جاتوه ... وقريباً ... قريباً جداً ، ربما قبل ١٩٩٠ ، سيأتى الوقت الذى سيصبح فيه كل إضراب إضراباً عاماً ... فحينئذ سيستطيع منتج فرش أسنان أن يتوقف عن العمل مطالباً عن جدارة بأجر كاف ، وسيفعل هذا وكله ثقة أن الأضواء ستنقطع وأن الناس سيرتجفون برداً ، وأن القطارات لن تسير وأن المدارس ستغلق أبوابها ... هذا هو مانمضى إليه قدما أيها الأخ : « النقابة الجماعية » ، كما يحب بتيجرو المولع بالكلمات الرنانة أن يسميها . ورغم هذا مازالت عندك الوقاحة والجرأة والغباء والرجعية وسوء النية لتتحدث عن الحرية .

أطلق زفرة حارة ، وبعصبية أشعل سيجارة أخرى ... أما بف فقد تحدث فى هدوء قائلاً :

كل ماأطلبه هو إلغاء قرار غلق المصنع بالقوة ... إننى أطالب ، كإنسان حر ، بحقى فى العمل بدون أن أرغم على الدخول فى عضوية نقابة ، أليس هذا مطلباً معقولاً ؟ إن أمثالى ممن يعارضون إغلاق المصنع إنطلاقاً من مبدأ أخلاقى ..

ــ ليس مبدأ أخلاقياً كما تعرف ، وليس إيمانا بفكرة أو معتقد ... إنما هى

الحمية ... ولن ألومك على هذه الحمية ، بل لن ألوم أى إنسان عليها ، لكننى ألومك لأنك حولت هذه الحمية إلى ماتحسبه عقيدة ... إننى أقول لك أجلها لما بعد أعياد الميلاد ، أشرب حتى الثمالة ، وأملأ بطنك بلحم الديك الرومى ، وعالج نفسك من آثار الإفراط فى الشراب والطعام ، ثم ارجع بعد ذلك إلى عملك ، إلى وضع مكسرات البندق فى كريمة الشوكولاته أو أى شيء آخر من هذا القبيل .

فقال بف :

لكن حميتى ، كما تسميها بحق ، إن هى إلا ذروة تراكمات وجدانية لإيمان نما طويلاً بأن إغلاق المصنع إثم ، وأنه ليس من العدل أن نرغم الناس على أن يصبحوا مجرد خلايا فى جهاز ضخم يضم الكسالى ويضم اللصوص ... إيمان بأن من حق الإنسان أن يعمل إذا أراد ... أن يعمل بغير أن يتوقف حين يسمع صفارة المدير ... إيمان بأنه فى ظروف معينة يكون عمل الإنسان « واجباً » عليه ، يكون واجبا عليه أن يطفىء الحرائق ــ إذا كانت هذه مهنته ... يكون واجبا عليه أن ..

كان يريد أن يقول : أن يضع البندق فى الشوكولاتة ... لكنه وجد الفكرة سخيفة ، ثم عاد فرأى أنها غير سخيفة ... ربما كان هناك طفل يموت ورغبته الأخيرة علبة مشكلة من تلك الحلوى بالذات ، والإضراب يشمل الجميع ، والبلد كلها خالية من أى علبة ... العامل الشجاع يتحدى التهديدات والضربات ويذهب إلى آلته ... لا ... لن يجدى هذا ... المبدأ ... المبدأ هوما أسعى إليه .

قام دفلين وسار إلى مبرد المياه ... مكتبه بسيط للغاية به الأثاث الضرورى الذى لا ترف فيه ... مكون من الألوان الأساسية ... والجو بها شديد الدفء والجفاف ... على الحائط ملصق بإطار ، مرسوم عليه صورة « بيل : رمز العمال » ... إنها اللوحة الأصلية التى رسمها تيلسون وليست مجرد تقليد مطبوع لها . أخذ يتأمل بيل : إنه عامل وسيم صارم الملامح ثاقب النظرات تبدو عليه أمارات الذكاء ... على رأسه قبعة من القماش يطل من تحتها شعره المجعد ، يرتدى زى العمال الأزرق ويمسك فى يده أداة كأنها مفتاح .

نظر بف إلى دفلين وهو واقف فى ضوء النافذة ، يشرب الماء البارد من كوب ورقى ... رأى بف أن ثمة تشابها بينه وبين « بيل » . بل لعل بيل قد رسم على هيئته منذ ثلاثين عاماً مثلاً ... فقال له بف :

ـــ أهذه صورتك ؟

فصوب إليه دفلين نظرة حادة ، بل وناقمة ، وقال :

تلك ؟ هذه ؟ بيل ؟ ليس بالضبط ... إبنى ... ووجد بف فى لهجته ما دفعه إلى التساؤل :

ـــ مات ؟

ـــ مات بالنسبة لى ... برقصه الباليه وحركاته المخنثة :

ـــ أكان شاذاً ؟

ـــ ممكن جداً على قدر معرفتى به ... فإن اللقطاء الذين صاحبهم كلهم من المتشردين اللواطة .

أحس دفلين أنه تجاوز موضوع الحديث فى كلامه مع هذا اللعين الموجود أمامه ، الذى يقول فاغراً فاه فى قرف :

ـــ لابد أن هذا يسبب صراعاً مريراً فى داخلك أيها الأخ دفلين ، وأنت تعلم أن أصحاب الحركات المخنثة مشدودون إلى نقاتهم بالضبط مثل عمال الغلايات وسائقى النقل ... أعنى عارضى الأجسام والراقصين ومحترفى المتعة ... إنهم جميعاً يطالبون بحد أدنى من الرسوم وغير ذلك من الحقوق . وأنا رجعى بدرجة تكفينى لمتعة ساخرة حين أعلم أن بيل رمز العمال هذا يحمل فى يده مفتاح الربط ذاك للمرة الأولى فى حياته . ياله من عالم قذر ذلك الذى أوجدتموه ..

فقال دفلين :

ـــ أظن أننا تناقشنا بما فيه الكفاية .

ثم عاد إلى مكتبه وتناول التقرير الذى أرسله مدير مصنع بف ، وقال :

ـــ لقد مزقت بطاقة عضوية النقابة أمام أنظار جميع زملائك . وأعلنت جهراً سخطك على النظام . وكان زملاؤك متسامحين إذ يعلمون أنك لم تكن فى حالتك الطبيعية . ولا أعتقد أن الأمر ـــ تحت هذه الظروف ـــ يتطلب أى إجراء تأديبى .

ــ إجراء تأديبى من أى نوع ؟

ــ إقرأ اللوائح : فقرة ١٥ قسم د بند ١٢ : غرامة لا تقل عن ضعف قيمة الاشتراك السنوى ولا تزيد على خمسة أمثاله ... لكننا سنتساهل فى هذا ــ فتمزيق بطاقة العضوية لا يعنى شيئاً ... تماما مثل أيام المسيحية الأولى حين كان يتم تعميد الأطفال . مزق شهادة التعميد ولن تصبح بذلك إنساناً غير معمد ... إنك عضو فى النقابة ، وهذا هو الواقع ..

ــ إلى أن أبدأ فى المضى فى سبيلى وامتنع عن التوقف كلما سمعت صفارة رئيس العمل .

ــ أنت عضو فى النقابة شئت أم أبيت ... السجلات تقول هذا والسجلات عندنا كألواح التوراة ... ولكن ..

قالها ونظر إلى بف نظرة صارمة ... رجل أصلع ذو وجه عجوز مترهل ... له عينا مهرج رغم صرامة نظرته ، وفم يتحرك كأنه يمضغ الهواء أو بقايا طعام كانت قد اختفت فى ضرسه المنخور ثم خرجت منه الآن ، كان « بيل رمز العمال » يبتسم لبف ابتسامة لطيفة مشجعة ... ثم قام بف بتكملة العبارة ، رغم وضوح معناها :

ــ ولكن ، حينما أهمل بعد ذلك الاشتراك فى أعمال الصناعة ...

ــ هناك إضراب للطحانين ليلة رأس السنة وأتمنى أن تعود إلى رشدك بحلولها . ولو لم يحدث هذا ، يمكنك أن تعتبر أنك تفعل بذلك آخر ما تستطيع ..

فقال بف وهو يقوم :

ــ سترى .

ــ أنت الذى سترى أيها الزميل .

وغادر بف مكتب الأمين العام لنقابته ــ أو نقابته السابقة ، وأخذ المصعد من الطابق الثالث والعشرين حتى وصل الردهة التى لا تزال تحمل ملامح فندق الهيلتون القديم ، وإن أصبحت الآن المقر الجديد للمواصلات ، لا توجد نقابة واحدة فى شبكة النقابات على مستوى الدولة كلها إلا ولها ممثلون هنا ، من منظفى

المداخن حتى مؤلفى الموسيقى التصويرية للأفلام ... لوحة كبيرة فوق مكتب الاستقبال مكتوب عليها (مجلس نقابات العمال بالمملكة المتحدة) ، وتحتها اختصار العبارتين بالإنجليزية Tuc = Tuk ، أى أن المملكة المتحدة تساوى مجلس النقابات ... وهذا هو السبب فى أن أحد ظرفاء مجلة تايمز سمى بريطانيا العظمى « تاكلاند » وأعجب الاسم كبار رجال النقابات ، فأخذوه مأخذ الجد وقاموا — أو قام كتبتهم — بتأليف « نشيد العمال » ، مستغلين فيه هذا الاسم :

صلابة الحديد فى الضلوع
عواصف الرياح تصدها القلوب
يشدنا الوداد للأمام
من لحظة الميلاد
حتى رقدة التراب

* * *

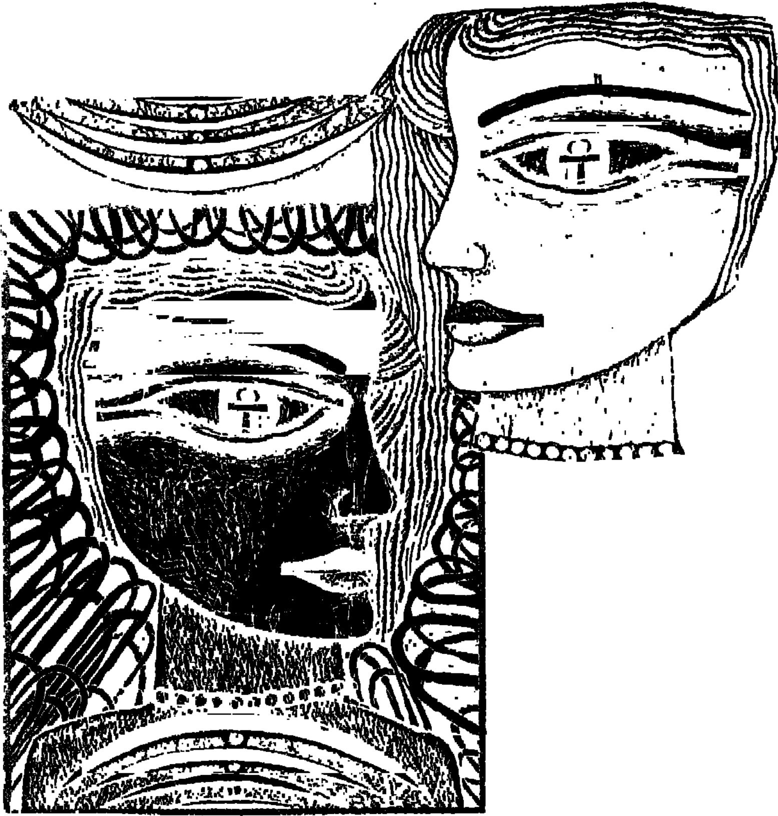
نسخر من فردوس الآخرة الموعود
ونعلى فى الدنيا جنتنا
نبنيها بالحب والضحك
تاكلاند الشجاعة
قوة شامخة

غنى عن القول أن كلمات النشيد لا تعرفها سوى نسبة قليلة من العمال ، خارج المبنى بدأ الرذاذ الدافىء لتوه . رفع بف نظره إلى العلم المرفرف على قمة المبنى الملون الشاهق ... علم أحمر بلون الدم مرسوم عليه ترس فضى ، أما المنجل والمطرقة فهما لم يعودا يرمزان لاتحاد عمال العالم وإنما « للاشتراكيين التقدميين » الذين سعوا ، باسم العمل المقدس ، إلى إنشاء أنظمة حكم قمعية ترفض النقابية ، بل إنهم أنشئوا هذه الأنظمة فعلاً فى أوروبا من قديم ... إن « نورين بيفان » ، ولعله أول من أطلق عليه اسم بف ، لأنه مثله من أبناء « ويلز » ، قد قال ذات مرة كلمة حكيمة ، وإن لم يجهر بها قط . قال إن النقابية ليست اشتراكية

أى أنه عندما يكون العمال هم أصحاب العمل ، فلن يكون هناك من يحاربونه . أما فى تاكلاند فلايزال الصراع القديم بين العمل ورأس المال موجوداً ، وربما يظل موجوداً إلى الأبد ، سواء أكان صاحب رأس المال هو الرئيس الخاص (وهو منصب آخذ فى الاختفاء) أو كان ممثلاً فى الدولة .

لم يستطع بف إلا أن يبتسم وقد التوى عنقه من النظر لأعلى إلى الترس الطائر ... فقد تذكر أن المِلْكية لا تتفق مع فلسفة العمل ، وأن مجلس النقابات قام بتأجير هذا المبنى من العرب ، وماذا يكون حال تاكلاند بدون العرب ؟ النفط الذى لا يتوقف سعره الباهظ عن الارتفاع يتدفق من أرض الإسلام ، وبفضله تظل مصانع تاكلاند تعمل ، وأرض الإسلام لم تعد مجرد الصحراء الحارة ، بل المحيط البارد أيضاً . فقد رهنت تاكلاند بترول بحر الشمال للعرب مقابل قرض للحكومة حينما أغلق صندوق النقد الدولي خزائنه في وجه بريطانيا نهائياً . وتمت المطالبة بقضاء الدين وحبس الرهن . وأصبحت الأهلة على رايات الإسلام ترفرف فوق حقول البترول الباردة . إن العرب قد جاءوا ليمكثوا فى بريطانيا . فهم يملكون « الـ » دوشستر ، و « الـ » كلاريدجز و « الـ » براونز والعديد من فنادق « الـ » هيلتون و « الـ » ايداينز . ومنعت المشروبات الكحولية فى البارات ، كما منع لحم الخنزير فى المطاعم . إن العرب ليملكون أشياء لا يعرف الناس أنهم يملكونها ، بما فى ذلك معامل التقطير ومصانع البيرة . وقريباً جداً سيقوم فى شارع جريت سميث المبنى الذى يرمز إلى قوتهم ... سيقوم « مسجد الحرم » أو مسجد لندن الكبير . وحتى يذكروا بريطانيا أن الإسلام ليس دين الأثرياء فقط يتدفق كثيرون من العمال الكادحين من مسلمى باكستان وشرق إفريقيا إلى بريطانيا بغير عوائق ؛ فقد تم تعديل قوانين الهجرة (التى كانت ــ سابقاً ــ ذات بنود صارمة) لصالح الشعوب الإسلامية . وهذا التعديل نتيجة سياسة حتمية لإحسان العرب المالى على بريطانيا .

ومع كل هذا فالمفروض أن يغنى العمال الذين نسوا مسيحيتهم قائلين : « نسخر من فردوس الآخرة الموعود » ... فى لحظة بصيرة قال بف نفسه :
ــ على أولئك الساخرين ألا يأمنوا جانب أناس يؤمنون بالحياة الآخرة .



٣ • أنت "ظهر" في التليفزيون

مثل المسلمين الصالحين ، أضرب عمال المطاحن البريطانيون عند المغرب ، لا عند الفجر . إن ما ينتجه هؤلاء تسميه بريطانيا دقيقاً ، وهو في الحقيقة تراب ناعم أبيض ، به مواد مسببة للسرطان وقيمته الغذائية ضئيلة .

وفي فجر ليلة عيد الميلاد لم يجد الناس خبزاً ، فالخبازون قد أغلقوا الأبواب على مالديهم من مخزون الدقيق وأضربوا هم أيضا . وانضم للإضراب عمال مصانع الحلوى . أما ربات البيوت ، اللاتى لم تكن قد جمعتهن نقابة بعد ، فقد اشتط غضبهن حين لم يجدن خبزاً أو فطائر ، وأثرن القلاقل في الشوارع العمومية ، وفي الثالثة بعد الظهر استجاب مجلس الأجور واعداً ببحث إيجابى لمطالب العمال بزيادة أجورهم عن العمل الليلى إلى ثلاثة أضعاف . وانتهت الإضرابات قبل الموعد المقرر لبدء إجازة أعياد الميلاد عند العمال الذين يعملون نهاراً بنصف ساعة ، بحيث يمكن للجميع أن يحتفلوا بالعيد في الوقت الذى يحدده صاحب السلطة .
ورغم هذا لم يجد الناس خبزاً لأعياد الميلاد .

وفي الثامنة صباحاً ذهب بف إلى مقر عمله . «مصانع بن للشكولاته » معلنا استعداده لأداء واجبة ، منتصب القامة ، مستوى المنكبين ، سريع الخطى ، على باب المصنع وجد في انتظاره عصبة من منظمى الإضراب ، ووجد أيضاً قوة من رجال الشرطة ، يلوكون أشرطة خوذتهم بأسنانهم ... قبض رجال الشرطة ـــ رغم أن ذلك جاء على مضض ـــ على رجل ألقى قطعة صغيرة من الحجارة على بف ، وإن كانت أخطأته . سمع صيحته :

في صف من تقفون أيها العساكر الملاعين ؟
فرد رئيس القوة فى ضيق :
تعرفون القانون مثلى تماما ..

توقفت قريباً منهم سيارة من سيارات تليفزيون تيمز ... انتظرهم بف ، فلا قيمة للعمل الذى سيقدم عليه إن لم يشهده العالم كله . وهذه هى الطريقة الجديدة « فعلى شاشة التليفزيون تكتسب الأشياء صدقا على صدقها » . نزل المذيع « فيركلاف » من السيارة ، واضعاً يديه فى سترة صوفية أنيقة ، مهتزاً شعره الأحمر مع نسيم الصباح ... تبعه من السيارة مصور يحمل آلة التصوير فى يديه وفنى آخر يحمل معه جهاز تسجيل الصوت . أومأ كل من فيركلاف وبف إلى الآخر محيياً . فالمذيع كان يوما ما زميلاً لبف ، مدرسا للغة الإنجليزية حتى ظهور منهج « لغة العمال » . الاستخدام الشائع هو القاعدة الوحيدة فى اللغة . فإذا كان ٨٥ ٪ من الشعب البريطانى يقولون « أنت كان » إذن فـ « أنت كان » هى الصيغة الصحيحة ، ويستطيع المتحذلق فى اللغة أن يعزى نفسه بأن مفكرى القرن الثامن عشر أمثال جوناثان سويفت كانوا يستخدمون هذه الصيغة كصيغة قياسية .

وكان بف قد اتصل بصديقه المذيع مساء الليلة السابقة ليخبره بما ينتويه .

سار بف وفريق التليفزيون عبر البوابة المفتوحة ، وسط زمجرة العمال المضربين الذين كانوا يتوجهون بالسباب إلى الكاميرا ، ولم يسجل هذا مسجل الصوت ، فهو يستطيع أن يحصل على كل هذا السباب والزمجرة من تسجيلات جاهزة بالاستديو ... سار الفريق وراء بف إلى جناح المدير . وجاء للقائهم السيد « بن الصغير » ، وقد انتابته عصبية شديدة . وضع مهندس الصوت السماعات على أذنيه وأدار جهاز التسجيل ، مشيراً بإبهامه إلى بف معربا عن استعداده . فقال فيركلاف :

إبدأ التسجيل .

ــ صباح الخير يا سيد بن . جئت للعمل فى الموعد المعتاد ..

ــ لا يمكن ــ كما تعلم ــ فالمصانع مغلقة . هناك إضراب .

ـــ أنا شخصيا لست مضربا ياسيد بن ، وأطالب بحقوقي كإنسان حر ... لقد جئت هنا كي أعمل .

ـــ ياللعنة ... لا يمكنك ، وتعرف ذلك تماماً ... كن عاقلاً .

ـــ أتمنعني حقي الأساسي كعامل ؟

ـــ لا تكن غبياً ، فأنت تعرف حقيقة الموقف بالضبط .

ـــ هل أنت من جماعة الكويكرز ؟ تلك الجمعية الدينية التي تؤمن بالبساطة والسلام ؟

ـــ وما العلاقة بين هذا ومانحن بصدده ؟ أغرب من هنا فوراً .

ـــ أتطردني من العمل يا سيد بن ؟ وعلى أي أساس ؟ فائض على الحاجة ؟ غير كفء ؟ غير مطيع ؟

ـــ لا أطردك من العمل ... إنما أعطيك يوما إجازة .

ـــ بل تمنعني من تنفيذ عقيدة أساسية لدى عمال مصانع الحلوى ـــ حرية الموظف في أن يؤدي عمله ، وحصانته الكاملة ضد أي قسر خارجي لإقناعه بعدم تأدية واجبه .

ـــ أنت تعرف الموقف مثلي تماماً : إنك في مصنع مغلق لا تستطيع ، ولا حتى أنا ـــ أن تفعل شيئاً إزاء هذا .

ـــ ألا تقتنع ؟ ألا تستطيع مجرد أن تمثل أنك مقتنع ؟

ـــ أنا مستعد أن أمثل أنني أعمل ... خل بيني وبين آلتي .

فقال في ضيق شديد :

ـــ التيار مقطوع ... إذهب عنا .

ـــ وهل ذلك من العدل ؟ هل أنت عادل بنفس درجة أسلافك الذين سبقوك بالإيمان بنفس مذهبك ؟

ـــ ليس هذا هو المقصود ... إننا الآن في العصر الحديث .

ـــ إن علاقتنا ـــ أنا وأنت ياسيد بن ـــ يحددها عقد عمل ، علاقة صاحب عمل وموظف ... هل تنوي فسخ هذا العقد ؟

فقال السيد بن في تجهم :

ـــ طيب ... تعال معي ..

وقاده إلى المصنع ، متراجعاً أمامهم المصور مصوباً الكاميرا إليهم . سرعان ماكان بف يقف أمام آلته الميتة وسط سائر الآلات الميتة ، والمذيع فيركلاف يجرى معه حواراً :

ـــ هذه إذن هى طريقتك فى شجب أسلوب الإضراب ياسيد جونز ... ألا تعتقد أنها طريقة رجعية بعض الشىء ؟

ـــ العدل رجعية ! الحنان رجعية ! الواجب رجعية ! إذا كانت العصرية تقر حرق الأبرياء حتى الموت ووقوف رجال المطافىء ساكنين ليطالبوا بحقوقهم كعمال ، فإننى ليسعدنى أن أكون رجعياً !

ـــ أتدرك أنك بذلك تدفع إلى طردك من وظيفتك ، وأنه من المحتمل ألا تقبل فى أية وظيفة أخرى ؟ هل تدرك أن المصنع المغلق حقيقة واقعة ، وأن إغلاقه يجلب للناس الربح ؟

ـــ من حق العامل كفرد أن يقرر متى يتوقف عن عمله ومتى لا يتوقف ... فلتذهب النقابية للجحيم .

ـــ بهذا فإنك قد حكمت على نفسك بالبطالة مدى الحياة ؟

ـــ ليكن ..

توقف أزيز آلة التصوير ، أغلق المسجل جهازه وتوقف عن العمل ... سأل بف : « كنت موفقاً ؟ »

فقال المذيع فى ابتسامة :

ـــ ممتاز ... لكن كان الله فى عونك .

وخرجوا جميعاً ، منظمو الإضراب يسخرون ويتوعدون بينما يمنعهم رجال الشرطة المتبرمون . ونقلت عربة التليفزيون بف إلى المصرف الذى يتعامل معه ، حيث سحب ١٥٠ جنيها ، مسجلاً أن الباقى من رصيده ١١,٥٠ جنيه . ذهب إلى سوق الكريسماس ، فبيسى المسكينة يتيمة الأم يجب ألا تحرم من حقها فى طعام العيد ... إنها تعرف معنى عيد الميلاد ، فقد قصت عليها مسز أبوبكر ، مدرستها فى الفصل ، القصة كلها ، فآخر الرسل قبل محمد ﷺ ، النبى عيسى ، الذى يطلق عليه أهل الكتاب تبعاً لمبادئهم : يسوع ، قد ولد ليخبر الناس عن

رحمة الله سبحانه وتعالى وعن عدله ... لهذا يجب أن تأكلوا حتى التخمة .

كان فى المطبخ يشرب خمر ليلة عيد الميلاد حينما سمع بيسى تنادى :

ـــ دادى ... دادى ... هذا الرجل يشبهك :

دخل الصالة ورأى نفسه فى الأخبار ... لكنه لم يسمع صوته ... لابد أن نقابة العاملين بالتليفزيون المختصة تمارس سلطانها ، مهددة بالإضراب إذا سمح لهذا الكفر أن يذاع على الملأ ... رأى نفسه مع السيدين وأمام الآلة الميتة لمدة عشر ثوان : كخبر سريع وسط الأنباء المحلية . وسمع المذيع الوقح يحاول أن يتظرف بقوله :

ـــ وأمامكم أيها السادة رجل يمكن أن نتمنى له عيداً سعيداً ... ولكن لا نستطيع أن نتمنى له سنة سعيدة .

ثم انقطع المشهد بعد ذلك ، ورأى ـــ على صوت البوق وهو يعزف مارش شوبان الجنائزى ـــ صورة رجل مشنوق مرسومة بالطباشير على أحد الجدران ... ثم « وهكذا تنتهى نشرة الأخبار المحلية » .

قالت بيسى :

ـــ يشبهك ياأبى ..

ـــ طبعاً يشبهنى يابنتى ... فهو أنا ..

نظرت بيسى إلى أبيها فى رهبة لم تبدها قط من قبل : دادى فى التليفزيون :

ـــ ولماذا أنت « ظهر » فى التليفزيون ؟

تنهد بف فى حيرة : أيخبرها بكل شىء ؟ كلا ... ليرجىء الأمر ، وليدع البنت المسكينة تستمتع بطعام رأس السنة . جلسا معاً تلك الليلة يأكلان البلح ويقشران الجوز ... عيناها ملتصقتان بالشاشة وعيناه قلقتان لا تسكنان . يغلقهما من حين لآخر فى كآبة وشقاء ... وشاهدا معاً « سانت بنج » و « روز مارى كلونى » فى « الكريسماس ذى الجليد الأبيض » . وحينما حان موعد الساعة العربية حولا الجهاز إلى قناة أخرى ، شاهدا فيها نسخة موسيقية جديدة مأخوذة عن رواية تشارلز ديكنز : « ترنيمة الميلاد » ، لم يتطور فيها البطل إلى نموذج

لصاحب العمل الحنون كأب ، ولكنه رأى ، مفزوعاً من الهواجس الشريرة ، إلى أى مدى ستصل قوة العمال ... كانت هدية العيد هى إرهابه من قبل نقابة العمال الإكليركيين .

ثم قام بف بإعداد الطعام له ولابنته ... وجلسا يأكلان على الأرض أمام التليفزيون ، وبالقرب منهما تتوهج المدفأة الكهربية ... وجبة شهية لليلة عيد ميلاد باردة ، مكونة من فخذ خنزير ومخللات أتبعها بفطيرة بالخمر صنعها من كعكات اسفنجية بائتة جافة ، وكاستارد بلا بيض . ثم شربا خمراً استرالية (احذروا التقليد الأجنبى) وأقداحاً كبيرة من الشاى المحلى بالسكر ... وفى ساعة متأخرة كان هناك فيلم (أجراس سانت مارى) بطولة سانت بنج أيضا الذى لعب دور قس كاثوليكى ، وانجريد برجمان التى لعبت دور راهبة ... لكن الفيلم كان مقطعاً بدرجة أضاعت معناه . ثم ذهبت بيسى إلى فراشها القذر (فقد أهمل بف الغسيل ، وأيقظت أباها فى الرابعة صباحاً وهى تصرخ باكية من رجل له مخالب وثلاثة رءوس . كانت قد بللت فراشها من ذعرها وسمح لها بف — فى شىء من الضيق — أن تأتى إلى سريره وسرير إيلين المسكينة الراحلة ... كانت ابنته عارية ، بعد أن أغرقت قميص نومها المتسخ أصلاً ، الأمر الذى جعل بف أكثر ضيقاً وقلقاً ... وحينما تخلصت من الكابوس تماماً (كانت فيه أشياء أخرى غير الرجل ذى الرءوس الثلاثة ، كالثعابين البيضاء البشعة ، والأيدى الممدودة من المستنقعات) هدأت وقالت :

— أنت ظهرت فى التليفزيون يادادى ..

— ثم اقتربت منه فى غزل صريح كان لابد أن يقاومه . ياللطفلة المسكينة ! ستكون بالنسبة له مشكلة لن تطاق ... قرر أن يهدئها بأن يخبرها بحقيقة الموقف ... لن يفسد هذا عليها عيد الميلاد ، فلسوف تنسى كل شىء بحلول الصباح ... فقال لها :

— اسمعينى جيداً يابيسى ياحبيبتى ..

— نعم ياعزيزى ... أنا مصغية ..

— اسمعى ... الأيام القادمة ستكون أياماً صعبة ... سأطرد من وظيفتى ولن تأتى لنا أية نقود أبداً ، ولا حتى من التأمين القومى . وربما يطردوننا خارج هذه

الشقة لأننى لن أستطيع أن أدفع الإيجار ... سيقولون لك « إننا نواجه هذه الأيام الصعبة بسبب غبائى الذى جعلنى عاطلاً عن العمل » .

ـ من الذين سيقولون لى ؟

ـ مدرسوك وزملاؤك من الأطفال الذين سيخبرهم آباؤهم عن الموضوع ... لكنك ياابنتى يجب أن تفهمى لماذا أفعل هذا ... لا أحد يجب أن يتعرض للاضطهاد ، حتى المسيح نفسه ... لكن هناك أشياء لا يمكن أن يخضع لها الإنسان ، وأنا لا يمكن أن أخضع لما تريده النقابات من اضطهاد ... هل تفهمين ؟

ـ أى « اضط ... » هذا الذى تتحدث عنه ؟

ـ أريدك أن تفهمى مأأقول لك ... إن أمك المسكينة قالت وهى تموت « لا تدعهم يفلتوا من العقاب » ، لهذا ، وقد يبدو الأمر جنونا بالنسبة لك ، فإننى أجاهد بنفسى ضد قوى النقابات جميعاً . لن أستطيع أن أنتصر عليهم ، لكننى على الأقل أستطيع أن أكون شهيداً لقضية الحرية ... وذات يوم ... ربما بعد أن أموت بزمن طويل ، سيذكر الناس اسمى وقد يجعلون منه شعاراً لهم ويحاربون الظلم الذى تمثله النقابات . أتفهمين يابيسى ؟

ـ لا ... وأعتقد أنك ممل ..

ـ حسناً ... ربما تفهمين هذه يا بيسى ... ستضطرين للذهاب إلى ما يسمونه ببيت الفتيات .

ـ بيت ماذا ؟

ـ بيت الفتيات ... مكان ستعنى بك فيه الدولة ، أنت وكثير من الفتيات ، حتى تكبرن وتصبحن قادرات على العمل .

أخذت تفكر فى كلامه دقيقة على الأقل ... ثم قالت :

ـ سيكون فيه تليفزيون !

ـ طبعاً ... فبيت بلا تليفزيون لا يعتبر بيتاً ، حتى ولو كان بيت الدولة للفتيات . سيكون لديك تليفزيون بلا شك .

ـ لعل عندهم جهازاً من تلك الأجهزة الكبيرة الجديدة ..

ـ محتمل جداً .

ـــ يمكنهم أن يعرضوا فيه الصور الكبيرة الضخمة ... مثل المرة التى شاهدنا فيها الوحوش .

ـــ تقصدين « اغتصاب فى السماء » .

ـــ أهكذا كان اسمه ؟ أنا وأنت وماما شاهدناه معاً .

ثم قالت ورنة النصر فى صوتها :

ـــ والآن ليس هناك ماما وإنما أنا فقط ..

تحول عنها فى بؤس وتظاهر بأنه غائب فى سباته أخذت بيسى تضرب على ظهره بقبضتها برهة كلما أسرع بإرسالها إلى بيت الفتيات كان أفضل ... كلما أسرع بـ ... وبدأ من مسجد تشزويك أذان أول وقت من أوقات اليوم .

لا إلـه إلا الله .

فى اليوم التالى طها بف الديك الرومى المحشو والقنبيط (تكلف ٣,١٠ جنيه) والبطاطس ، وسخن سجق الكريسماس المعلب بينما كانت بيسى مشغولة بشيئين : التليفزيون والهدايا ... دمية صغيرة لها ساقان طويلتان مثيرتان ونظرة خبيثة وقحة ، وجهاز راديو ستريو مزدوج له سماعة للأذن ، ونتيجة التليفزيون لعام ١٩٨٥ . وبعد الغداء ، الذى سلمت بيسى بأن أمها لو كانت موجودة لما أعدت خيراً منه ، استمعا إلى خطبة الملك فى التليفزيون . كان الملك « تشارلز الثالث » مائلاً للبدانة والقصر أذناه كأذنى خفاش ، فى أخريات عقده الرابع ، تقريباً فى سن بف ... تكلم الملك عن هذه الأيام السعيدة المباركة ، ودعا الله أن يبارك الجميع ، وأشار فى النهاية بإصبعه مبتسما فجاءت جلالة الملكة وهى غير الملكة إليزابيث الثانية ، الملكة المعتزلة وهى الآن الملكة الأم ، أما ملكتنا فهى جميلة سمراء تتزين بكثير من اللآلىء وهى تبتسم أيضاً ... أحاطها الملك بذراعية ولوحا بأيديهما إلى الجماهير ، وكأنهم ، أى الجماهير ، مسافرون فى قطار يستعد للرحيل ... وبعد ذلك جاءت أغنية « حفظ الله الملك » .

وفى المساء ، جلسا يأكلان الديك الرومى البارد وفخذ الخنزير والبطاطس والقنبيط المحمرة ، مع شراب من عصير التفاح بالشمبانيا . وكانا يشاهدان فيلم « فندق الإجازة » ، وهو أيضاً بطولة سانت بنج (الذى اعتبرته بيسى مادة مفروضة

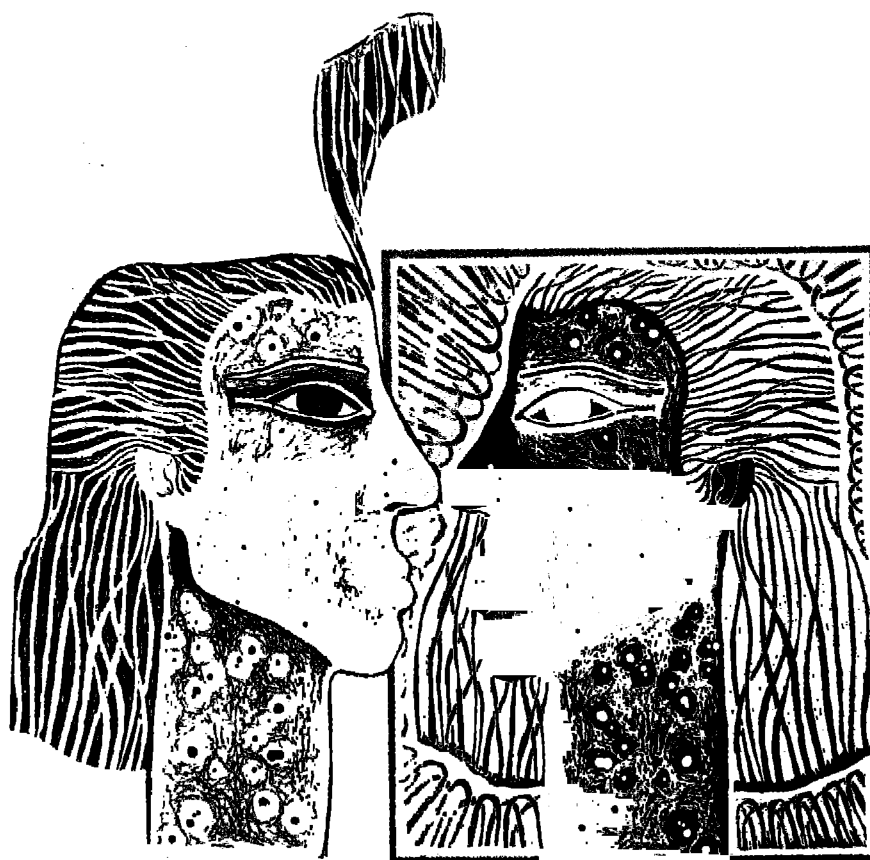
عليها فى الكريسماس) . وفجأة انقطع التيار الكهربى ... تضاءلت الصورة على شاشة التليفزيون بسرعة الضوء حتى وصلت لنقطة فى حجم رأس الدبوس ثم تلاشت ... بدأ وهج المدفأة الكهربية يبهت تدريجياً ثم خلف أصوات انقباض مزعجة . لا شموع عندهما فبقيا فى ظلام دامس ... صرخت بيسى وبكت وهى فى حالة من الكرب الشديد ... فقال لها أبوها مدمدماً :

ـــ الآن ... الآن هل فهمت ؟ هل عرفت الآن مالذى أجاهد ضده ؟

قالت باكية إنها فهمت ... لكن الطفلة المسكينة يتيمة الأم لم تكن قادرة على التعميم ..

الطب ، ياسيدى ... يجب أن يتقدم .





٤ • إلى الشارع

في ٢٧ ديسمبر عاد بف إلى عمله ، وفى الحال سمع الصفارة تنطلق بقوة ... وامتثالاً لعقدها مع النقابة قامت الإدارة بطرد بف من العمل بصفة رسمية ... وذهب بف لمكتب العمل ... حيث أصر على مقابلة المدير شخصياً ، لا مجرد تلك المرءوسات اللواتى يلكن اللبان ، وتحت أعينهن حلقات سوداء من أثر السهر والشرب ليلة الكريسماس . أخبر المدير بوضعه ، فقال له المدير بلهجة جافة إنه لا يمكن تسجيله فى « مكتب العمل » ؛ لأنه لا يرغب فى الامتثال للشرط الأساسى للتوظيف فى أية مهنة من المهن المدرجة بالمكتب ، أى فى أية مهنة يمكن تصورها ماعدا مهنة قرض الشعر . ولما وجد أنه ـــ رسمياً ـــ عاطل ، بل ولا يمكن توظيفه ، ذهب ليستفسر عن إمكان تسلم إعانة بطالة تبعا لقانون التأمين القومى . فقالوا له إنه ليس من حقه أى شىء مادام قد رفض الوظيفة باستهتار وصل إلى حد رفض الانصياع لشروط العمل كما بينها قانون نقابات العمال الخاصة (بالعضوية الإلزامية) قرار ١٩٧٩ . قال بف :

ـــ لقد كنت أدفع نقوداً للصندوق ... كل أسبوع ... منذ بدأت العمل فى سن العشرين .

ـــ ولماذا بدأت العمل كبيراً هكذا ؟

هكذا قالت ـــ من وراء حاجز ـــ امرأة فظة بدينة صبغت شعرها بلون أزرق خفيف ، وهى تضرب بقلمها فى عصبية على المنضدة الصغيرة قبالتها . فأجاب قائلاً :

لقد التحقت بالجامعة ، وحصلت على شهادة .

ـــ الدفع الإلزامى لصندوق التأمين لا يعنى بالضرورة إعطاءك الحق فى صرف إعانة . هناك شروط معينة يجب أن تنفذ ، وأنت لا تريد تنفيذ هذه الشروط ..

ـــ ماذا أفعل إذن ؟ أموت من الجوع ؟

ـــ تنفذ الشروط !

ذهب إلى إحدى الحانات . طلب كوبا صغيرا من البيرة المرة وسجقاً بارداً ، وجاءته المسطردة مجانا من المحل . ثم اتصل بعضو البرلمان النائب عنه ، أو بالأحرى اتصل بسكرتيرته ، التى رتبت له موعداً فى آخر النهار ... لم يكن البرلمان منعقداً ، فقد كانت هناك إجازة أعياد الميلاد . لذلك فمن الممكن أن يقابل السيد بروذرو فى الخامسة بمكتب لقاءاته .

كان السيد بروذرو ، عضو البرلمان ، رجلاً أنيقا فى أواسط العمر ، يرتدى ملابس من صوف التويد ، وكأنه يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى الريف ، تفوح منه رائحة عطر بعد الحلاقة ، يبدو عصريا بطريقة مثيرة .

كان يدخن غليوناً يجد صعوبة فى إبقائه مشتعلاً ، فقد بدت المطفأة أمامه « كمقبرة جماعية لأعواد الثقاب الميتة » . استمع إلى قصة بف وقال :

ـــ وما الذى تتوقع منى أن أفعل ؟ أأغير القانون ؟

ـــ القوانين تتغير بالفعل ... أعرف أنها عملية بطيئة ، ولكنى قد تعلمت أن مجلس العموم هو المكان الذى تعارض فيه القوانين الظالمة وتقترح القوانين العادلة .

ـــ لابد أنك قد تعلمت هذا منذ زمن بعيد جداً .

كان الغليون فى فمه مشتعلاً ... سحب منه نفسين أو ثلاثة وبعدها انطفأ من جديد ، فقال :

عليك اللعنة !

فسأل بف :

ـــ لم لا تدع هذا الأمر .

فسأل فى شك حاد مفاجىء وقد اتخذ موقفا دفاعياً .

ــ أدع ماذا ؟

ــ التدخين ... فلم يعد يستحق عناءه بعد أن وصلت الأوقية منه ثلاثة جنيهات ونصفا . كما أنه من الواضح أنك لا تستمتع به .

فتنهد فى ارتياح قائلاً .

ــ آه ... حسبت أنك تقصد ... أنت تعرف قصدى ..

ــ حسناً ، لابد أنك قد سألت نفسك مراراً ما جدوى البرلمان ... أعترف لك بأننى قد جئت إلى هنا بلا بصيص من الأمل ... فأنا أبدو كأبله يعيش فى الماضي حينما كان الأعضاء يعنون بدوائرهم الانتخابية . لكننى يجب أن أستخلص سروراً مريراً من عدم جدوى كل هذا . يجب أن أتظاهر بالإيمان بأن الحرية الديمقراطية لا تزال موجودة ، إن ذلك مثل محاولة إيمان زوج بوفاء زوجته حينما يراها بعينيه مع اللبان على البساط ، فهو يفكر فى عبارة « لن يفرقنا إلا الموت » ، وأنا أفكر فى عبارة « الحكومة فى خدمة الشعب » . سذاجة ، أليس كذلك ؟ حنين إلى الماضى .

أحس بف أن إخفاق صاحبه فى إشعال الغليون متعمد بشكل ما ... فقد ظل منشغلاً بمحاولة إشعال النار بلا طائل ... لكن هذه العملية العقيمة أعطته الفرصة للتملص من الأسئلة المحرجة ، بل الهروب من مجرد التجاوب مع محدثه كما يفعل الآن ... ومع هذا ، فقد نطق أخيراً ، وإن لم يشعل الغليون بفمه ، وقال :

ــ لا تستطيع أن تقف فى وجه التاريخ .

ــ جميل ، ولكن من الذى يصنع التاريخ ؟

ــ ليس « من » الذى يصنعه ، لكن « ما » الذى يصنعه . فالتاريخ لا يصنعه أفراد وإنما تصنعه حركات ، اتجاهات ، مبادىء ، تيارات ، إن ما حدث فى بريطانيا لم يحدث نتيجة ثورة دموية مدمرة ، ولكننا سرنا فى طريقنا الديمقراطى ، ولم نشهد أثناء مسيرتنا نحو التطور أى تغيير قام على العنف . ثم نفيق ذات يوم لنقول ها قد تحقق حكم البروليتاريا على أرضنا . إن مالم يحدث بعد فى بلاد قامت فيها ثورات دامية قد حدث عندنا بلا أدنى مشقة . لا أعرف ماذا كان كارل ماركس سيقول لو بعث من جديد ، لكن ..

ـــ سيقول إن ما يتمناه لم يحدث ، وإن وسائل الإنتاج ليست فى أيدى العمال ، وإن الرأسمالية لم تتحطم .

ـــ إنها فى طريقها إلى الدمار ... وبسرعة . فلا تكاد توجد شركة فى البلد إلا وقد انتقلت إلى يد الدولة ... إن الدولة هى الآن صاحبة العمل ، الرئيس الأكبر .

ـــ بالضبط ، وفى مقابل الرئيس يقف المرءوس . الدولة هى الرئيس القذر المستغل ، والنقابات تحارب الدولة وكأنها ترتدى القبعة الرسمية لرجال الأعمال . والمشكلة أن النقابات تنتصر دائماً . كأن الحكومة مجرد آلة لطبع أوراق النقود . انظر إلى حالة التضخم ، ومع هذا هل ارتفع صوت واحد فى البرلمان ضد هذا الدمار الذى يوشك أن يحيق بالبلاد ؟ لقد آن الأوان أن يضحى بعضكم بوظيفته فى سبيل الدعوة للحرية والاحترام والعودة إلى الفطرة السليمة النقية التى أصبحت من مخلفات الماضى .

ـ التقط السيد بروذرو عدوه القديم وحاول مرة أخرى أن يشغله ... مقبرة أعواد الثقاب المحترقة أصبحت كالتل . كف عن محاولته مرارة وقال :

ـــ هذه مسئولية منظمى البرلمان . أما نحن فما علينا إلا التصويت فى الاقتراعات أو الامتناع عن التصويت . وأما دوائرنا الانتخابية فلم يعد أعضاؤها من أهل منطقة واحدة . وإنما هى قطاع عرضى يضم كل النظام النقابى ، والشكوى والتذمر لا يعودان على أحد بفائدة . فهذا هو المسار التاريخى الذى لا يمكن أن يقاومه أحد . إن أيامنا تختلف عن أيام فوكس وبيرك وويلكس . فليس هناك سوى حزبين سياسيين .

ـــ كأنهما حزب واحد . فكرة المعارضة فكرة هزلية ، الاشتراكيون والمحافظون ، مجرد أسماء مرتبطة بالماضى والتاريخ . أى اختلاف يوجد اليوم بين عقائدكم الفكرية ؟ أيامها كان الحزب الحاكم ، يستطيع العمال أن يحولوه إلى حزب عاجز . « افعلوا مانقول وإلا فإنه الإضراب » . وازداد صوته عمقا وخشونة وهو يقول : « ثم يأتى يوم أو يومان من الرفض الشكلى بحجة منع التضخم أو مساعدة صادراتنا على المنافسة فى السوق العالمية . وبعد ذلك يطبع

المزيد من الأوراق المالية بلا رصيد يدعمها . أما الرفض الشكلى فهدفه إظهار أن الحكومة تحكم حقا . غير أنه لا يحمل أى معنى لأولئك الذين يموتون من شدة البرودة ، أو ليرحمنا الله ، من حرارة اللهيب ..

فأجابه بصوت لا تعاطف فيه :

إننى آسف لما حدث . لابد أنك تعانى مرارة الحزن والألم . على أية حال سيعود عمال المطافىء إلى عملهم غداً . لو كان فى هذا أى عزاء لك .

ــ للأسف ، ليس لدى زوجة أخرى حتى لا يحرقها عمال المطافىء حتى الموت . ليكن ، سأنسى هذا ، يجب أن أنساه . إنما جئت إليك لأسألك ، أو قل لأطالبك ، أن تفعل أى شىء فى حالتى . إنك أمام رجل عاطل . وقد يظل هكذا إلى الأبد . لا حق له فى إعانة الدولة ، لأنه اتبع مايمليه عليه ضميره الفردى . ورفض الإذعان للإرادة الجماعية .

فقال وهو يتشبث فى الغليون بعناد :

تعرف تماما أننى لا أستطيع عمل أى شىء لك . إنك تقاوم التاريخ . أما أنا فأعقل من أن أحاول مقاومته . بصراحة أنا ممنوع من فتح فمى ، ولو حفظا للمظاهر ، للدفاع عنك ؛ لأنك خارج على القانون . إن عضوية النقابة شرط أساسى لحقك الانتخابى . أما أنت فلم تعد ممثلاً فى البرلمان .

ــ فلأنضم إذن إلى جماعة المسنين والمجانين والمجرمين ؟

ــ هناك ــ كما تعرف جيداً ــ نقابة للمواطنين المتقاعدين . تقول (مجانين) ، (مجرمين) . أعتقد أنها كلمات مناسبة . أنت حر فى نفسك يا ... « أخ » .

لم يكن واضحاً هل استخدم كلمة « أخ » بحكم العادة النابعة من عقيدة اشتراكية أو أنه استخدمها بالسخرية والازدراء اللذين تستخدم بهما الكلمة أحياناً فى الأفلام الأمريكية . لكن المؤكد أنها نقلت لبف بوضوح أنه (ليس بالأخ) . فقال بف : كنت أتوقع كل هذا بالطبع . إننى بشكل ما ألقى بيدى إلى التهلكة . سمنى إن شئت « شاهداً » ، وهى من نفس مادة « شهيد » . لكننى كان يجب أن أتظاهر ، أتوهم أن الآلة لا تزال تعمل بينما هى ملقاة فى ركن من أركان

متحف . أتمنى لك أحلاما مزعجة من وحى حالتى ياسيد بروذرو . تشجع . ولا تنس أن تتخلص من هذا البايب النتن .

قال هذا وخرج .

حينما عاد إلى شقته وجد بيسى التى لا تزال فى إجازتها تأكل بأصابعها بقايا الديك الرومى البارد وتحملق في بله فى « رد » و « رود » و « ريد » على شاشة التليفزيون . جلس مرهقاً سائلاً نفسه هل ثمة شىء يستطيع بيعه ليؤجل يوم الطرد من الشقة ، وهو يوم قادم لا ريب . لا شىء غير ملابس إيلين وحقيبتى سفر قديمتين . أما الأثاث فهو ملك صاحب العقار . وهو ليس شخصاً محدداً ، وإنما وحدة تعاونية تعمل بالحواسب الألكترونية ولا تستطيع أن تخاطب فيها ضعفاً بشرياً كالرحمة والشفقة ... سيأتى أمر الطرد خلال أسبوع أو نحوه . وعندئذ سيحصل رجال شرطة الإيجار أو « الفتوات » ليضطروه إلى إخلاء الشقة . حتى التليفزيون لا يملكه ، فهو مؤجر من إحدى الشركات . آخر الشهر ـــ الذى هو أيضا آخر العام ـــ آت لا محالة ... يومها سيستردون منه كل شىء . قال لابنته :

ـــ آن الأوان . لبى حاجتك .

ـــ ماذا ؟ « ديش وداش » سيأتيان حالاً .

ـــ كما تريدين ... بعد هذين الديش والدايش ، يجب أن نذهب أنا وأنت إلى المكان الذى قلته لك من قبل .

فقالت وعيناها لا تغادران الشاشة :

ـــ أين ؟

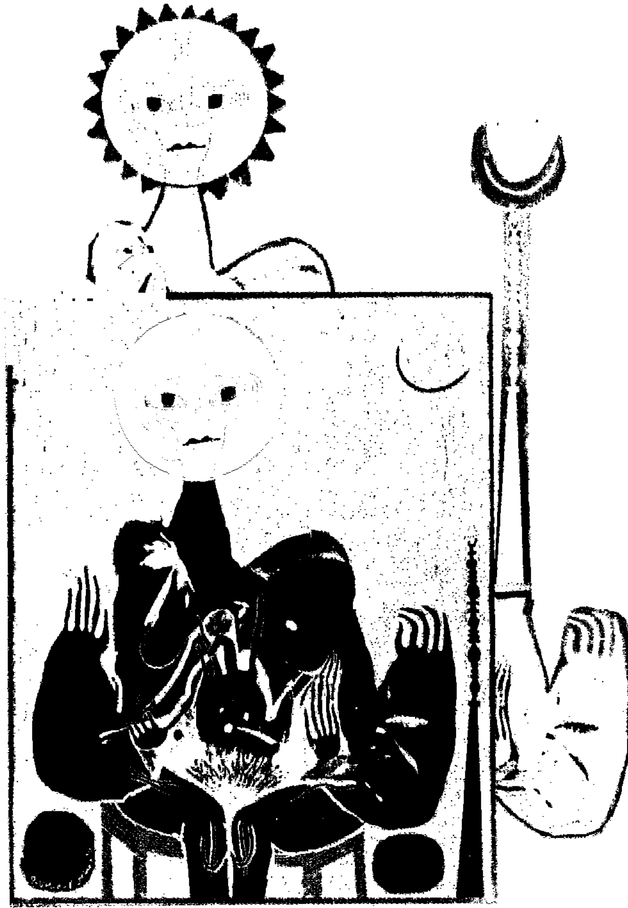
ذهب للمطبخ ، وتجرع مابقى من خمر العيد ، أثمة مايباع ؟ فتح درجاً من الأدراج : كلها سكاكين صاحب العقار ... ولكن مهلاً : ماهذه ؟ مطواة بزنبرك ؟ جيدة الصنع ، صلبة وحادة ... السلاح يمرق بسرعة عند الضغط على الزر ... يذكر أنه قد وضعها هنا ليبعدها عن يدى بيسى ... ولكن من أين حصل عليها ؟ نعم نعم ... الصبيان البالغان السادسة فى شارعه وهما يهددان بها طفلة تصغرهما بسنة . لماذا ؟ لا لشىء سوى الرغبة المجردة فى الإرهاب ، يومها ضرب الصبيين وانتزع منهما المطواة .

إذا كان نائب البرلمان قد وضعه بصفة شبه رسمية فى طائفة المجرمين ، فلابد أن يتسلح بأسلحة المجرمين . وضع المطواة فى جيب بنطلونه ... ثم ذهب ينتزع بيسى مما جاء بعد ديش وداش . لم تبك أو تتذمر ، فلم يكن هناك إلا الأخبار . لكنها قالت :

ــ لنسرع ... الـ « سكس بوى » آت فى الحال ..

بيتك هو أى مكان يابيسى ــ مادام فيه تليفزيون .





٥ . الثقافة والفوضوية

جاء العام الجديد تصحبه برودة قاسية . تنعم بيسى بالدفء فى أحد بيوت الفتيات فى « إزلنجتون » . ومن هناك تسافر يوميا إلى المدرسة فى أوتوبيس سماه أبوها ساخراً ـــ بعد أن رأى بعينيه زميلاتها ـــ « أوتوبيس العذارى » . وبعد المدرسة تعود بيسى إلى الشاى والتليفزيون . أما بف فينام فى أى مكان يمكن النوم فيه ... فى بيوت « جيش الخلاص » ، أو فى مواقف قطارات السكك الحديدية ... ومرة نام فى كنيسة ويستمينستر .

قروشه القليلة سرعان ما نفدت (سبعة جنيهات ونصف من الأوراق والديكرات ... والديكر هذا عملة قديمة أدخلت فى عصر الملكة فيكتوريا حتى يقسم الجنيه على عشرة ، فتكون الديكرات العشرة بجنيه ذهبى ، ولكن كان من الحكمة رفض هذا الرأى . أما التقسيم العشرى الذى حدث فى ستينيات هذا القرن ، لإرغام بريطانيا على مواكبة بقية دول المجموعة الأوروبية ، فقد جلب المائة بنس ، يسميه الناس احتقاراً الـ « بى » ، وهو يستحق هذا الاسم بجدارة . فمع زيادة التضخم أخذت البنسات تفقد قيمتها . فالجنيه عشرة ديكرات ، وليس هناك تقسيم أدق من هذا ... تنبأ أن الجنيه التاكلاندى سرعان ماسيكون مثل الليرة الإيطالية ، لا ينقسم إلا نظرياً . يمكن أن يشترى بالديكر علبة كبريت صغيرة ، إذا أراد ، ولكن مافائدة ذلك بالنسبة له ؟ فالتبغ ، سلوى الوحيد والعاطل ، فوق طاقته ، وأقل كعكة أو سندويتش لا تقل عن جنيه) أعطاه جيش الخلاص ـــ شريطة أن يصلى حمداً وشكراً أولاً ـــ سلطانية حساء ... طالت لحيته وأصبح فى حالة يرثى لها من البؤس والقذارة . كان يعتقد أنه سيقضى معظم النهار فى حجرات المطالعة بالمكتبات العامة ، لكن المكتبات العامة قليلة هذه الأيام ... ولو حدث ووجدت مكتبة فهى ملأى بالمسنين الذين يغطون فى نومهم .

قال أحد شبان الكومينا :
العمال لا يحتاجون إلى المكتبات ... بل يحتاجون إلى الملاهى .
فقال آخر مدمدما :
كم أود أن أشج رؤوس الأوغاد بالهراوة .

أوقفت عصابة صغيرة منهم بف فى رغبة واضحة لسحقه وسلب مامعه ... لم يحس بأى خوف . ولا بد أنهم قد شعروا بذلك ، استند إلى ملصق ممزق على الحائط لـ « بيل رمز العمال » ، وتحته كلمة « تاكلاند » وقد حولها أحد الخطاطين إلى كلمة بذيئة . استند واضعاً يده اليمنى فى جيبه ممسكا بالمطواة وابتسم وقال باليونانية :

تتساقط العبرات عند الشدائد . والبأس تظهره معاناة البشر (*) .

أحاطوا به من دهشتهم ... أخذوا يفحصونه بأعينهم ويتشممونه بأفواههم وقال أحدهم :

ــ أتعرف اليونانية أيضاً أيها الرجل ؟
فقال بعد أن تلا بيتاً باليونانية :
وهذا البيت لسوفوكليس ، من مسرحية « أوديب فى كولونا » .
ــ يعنى ؟
ــ « ليتنى ماولدت » .

خرجت زفرة عميقة من بعض الشبان ، وكأنها آهة رضا بما يقول . كان زعيم العصابة شابا أسمر اللون ذا ملامح آرية تتبدى إذا أعطى بروفيل وجهه . أخرج علبة دخان فنلندى وقال لبف :

ــ تدخن ؟
ــ شكراً ... اضطررت للامتناع عنها .
ــ مطرود من عملك ؟ تكره النقابة ؟ ضد الدولة ؟
ــ نعم ونعم ونعم ..

---

* فيرجيليوس ــ سنة ١٩ ق .م .

كانوا سبعة من شبان الكومينا ، ليسوا سوداً كلهم . وفجأة قال القائد : آه ، فعلى الجانب الآخر من الشارع ، شارع جريت سميث فى ويستمينستر ، حيث تقبع أساسات المسجد الجديد ... بيضاء من الجليد ، كان هناك رجل أحمق يسير وحده إلى وجهة محددة ... رجل له هدف يسعى لوصوله ، قال القائد :

ـــ حسن . تعال معى ياتود . والباقون موعدنا فى سوبى حوالى العاشرة .

ـــ اتفقنا .

ـــ اتفقنا ياتوس .

وهكذا مضى بف مع توس وتود ، والأخير شاب ضعيف المظهر ، لونه ضارب للاصفرار ، يتراقص فى مشيته من شدة البرد . أخذاه إلى مقصف العاطلين ، بعد ويستمينستر بريدج ، وهناك أطعماه سندوتشات اللحم وأرغفة السجق وطبقاً من الحلوى وسقياه كوبا من عصير الطماطم . كانت المرأة من خلف النضد قد قالت لهم إنهم يجب أن يظهروا شهادة البطالة قبل السماح لهم بتناول الأطعمة بسعر مخفض ومدعوم ، فما كان من الشبان إلا أن زمجروا فى وجهها . قال توس لبف وهو منهمك فى التهام الطعام :

ـــ هل سبق أن سمعت عن « ميزوساكو » ؟

ـــ يابانى ؟ مخترع نظام الكمان ؟

ـــ جميل جدا !! لكنك بعدت عن الصواب ... تستطيع أن تعتبره متخصصا فى العنف ... لكن « نظام » كلمة معقولة ... نعم ... نظام العنف .

فقال تود بجد :

كان يقول إن المشكلة تنبع من فصل الثقافة عن الأخلاق ... إن الثقافة تتطور خلال المجتمعات وهذا مايجعلها تدعو إلى القيم الاجتماعية . أى أنه كان يعنى ، أن الكتب لا تدعو إلى الشر ولكنها تدعو إلى الخير .

فقال بف وهو يمضغ بصوت مسموع :

أعتقد أن الكتب يجب ألَّا تدعو إلى شىء ، فالمعرفة والجمال لا صلة لهما بالأخلاق ... ولكن من ميزوساكو هذا ؟

فقال توس وهو يدخن سيجارته نفاذة الرائحة :

إنه مسجون فى مكان ما بأمريكا ... كان يدور على الجامعات ، ويتحدث فى حدائقها داعيا إلى الحرية فى التعليم والعمل وعدم التأثر بالمصالح الشخصية . وكان يتحدث عن الـ ج . س .

— جيم سين ؟

— الجامعة السرية . تدفع مصروفاتها عن طريق السرقة . والسرقة تعنى بالضرورة العنف . وتعلم هذه الجامعة الأشياء غير المفيدة كاللاتينية واليونانية والتاريخ . إن التعليم الذى حصلنا عليه تعليم حقير ... سليم ؟

— سليم .

— حقير لأنه مرتبط بالعمل . حقير لأنه يسوى بين الجميع ، التلاميذ النابهون غير مرغوبين . وهناك أشياء معينة لا يسمح بها هذا النظام التعليمى ، لأنه يعتبرها غير مفيدة بالنسبة للعمال . ومن هنا نستنتج أن هذه الأشياء غير المسموح بها لابد أن تكون الأشياء الوحيدة التى تستحق عناء المعرفة .

— أتفهمنى ؟

— كلامك فيه منطق .

— إننا جميعا نذهب إلى المدرسة حتى نبلغ السادسة عشرة . هذا هو القانون ... ليكن ... نذهب إلى المدرسة ولكن لا نستمع إلى الوسخ الذى يسمونه « الاجتماع » أو « لغة العمال » ، إنما نقعد فى آخر صف ونقرأ اللاتينية .

— ومن يدرسها لكم ؟

— من المدرسين من هم ضد الدولة ... أنت مدرس ؟

— تاريخ ... غير مفيد بالمرة .

— حسن ... هناك أولئك المطرودون من المدارس لعدم رغبتهم فى تدريس الهراء المقرر أن يدرسوه . أليس كذلك ؟ يهيمون على وجوههم كما تهيم الآن .

ثم نعطيهم ذلك الطعام كما نعطيك الآن ... ثم يعلموننا فى المقابل بعض ماعندهم ... يعلموننا تعليماً حقيقياً ... لا ذلك الهراء الذى تعطيه مدارس الدولة ..

— هل تريد شيئاً الآن ؟

قال تود .

شيئاً واحداً ... كيف انزلقنا إلى هذه الفوضى والفساد .

أخذ بف نفساً عميقاً ثم سعل على فتات الحلوى ... وقال :

ــ إن العمال يقولون إنها ليست فوضى ... هل والداك يقولان إنها فوضى ؟

ــ والداى لا يقولان أى شيء ... إنها يذويان ... لكن لابد أننا فى حالة فوضى وفساد ؛ لأن الوضع لا يطاق .

قال بف وهو يبتسم رغما عنه لصراحة عبارة توس :

أوافقك على هذا ... ولكن دعنى أفسر لك أزمتنا بسرعة وبكل بساطة ... منذ بداية التاريخ كان هناك الذين يملكون والذين لا يملكون . فى السياسة نما وتطور حزبان أساسيان الأول لضمان أن الذين يملكون سيظلون يملكون بل ويزداد ما يملكونه . والثانى لتحويل من لا يملكون إلى مالكين . لا أغنياء ولا فقراء ... وإنما يأخذ كل فرد مافيه الكفاية ... إنها المساواة والمجتمع العادل ... الاشتراكية . ودولتنا الآن دولة اشتراكية. بل إنها اشتراكية منذ ١٩٤٥ . من هم الذين كانوا لا يملكون ؟ العمال ، البروليتاريا . كان الذين يملكون ــ أو الرأسماليون ــ يطحنونهم ، ونظم العمال أنفسهم فى هيئات أكبر من أن يستغلها الرأسماليون وكانت النقابات . ومع هذا حاول الرأسماليون أن يستخدموا عمالة غير نقابية . ولكن أتى الوقت الذى اعتبر فيه هذا عملاً خارجاً على القانون ... لقد كانت للنقابات ــ ولا تزال ــ اليد العليا . وأصبح الذين كانوا مستغلين بالأمس ناعمين اليوم . فأين الخطأ فى هذا ؟

فقال توس :

ــ ولكن مادامت الحياة فاسدة وكئيبة ولامتعة فيها فلابد من أن يكون هناك خطأ ما ..

فقال بف

ــ أقول لك من أين جاءت الأخطاء ... قديماً كان هناك « حزب العمال المستقل » ، ثم جاء حزب عمالى جديد قضى على الأول . وبدأ الحزب الجديد كهيئة تنفيذية سياسية لـ « مجلس نقابات العمال » . وذهب جزء من الاشتراكات فى النقابات لتأييد الحزب ، وهو أمر مفهوم جداً . إن هدف الاشتراكية كما نعلم هو اشتراك الجميع فى الملكية . هو إلغاء الملكية الخاصة قدر المستطاع . فبدلاً من أن تكون السكك الحديدية والمناجم وصناعة الصلب مصدر أرباح باهظة تدخل

جيوب المساهمين الأثرياء ، تذهب الأرباح إلى الدولة فتستطيع أن تعطى العمال مزيداً من المال وتدخر بعضها للتنمية والتطوير . المشكلة الوحيدة أن الصناعات المؤممة لا تدر ربحاً أبداً . لماذا لا تدر ربحا ؟ لأنه ليس ثمة حافز على الربح .

فقال توس فى شىء من الملل :

نعرف كل هذا ... البيروقراطيون والكل على أحسن حال ، ولا أحد يفصل من عمله .

فقال بف :

والآن نصل إلى « التناقض الأعظم » ، ففى الدولة الاشتراكية أنت لا تحتاج إلى أية نقابات : لِمَ ؟ لأن السلطة رسميا فى أيدى العمال ... فضد من يريد العمال أن يدافعوا عن أنفسهم ؟ إن الاشتراكية فى دول أوربا الشرقية لا نقابات لها ، وهذا أمر منطقى . ولكن لأن النقابة البريطانية قد بدأت يوماً فيجب أن تستمر فى الوجود ! بل ويجب أن تستمر فى البحث عمن تعارضه ... بالطبع لا يزال هناك قليل من أصحاب الأعمال الخاصة . ولكن الدولة هى صاحبة العمل الأساسى . ولا يزال لدينا هذا الثنائى التقليدى : صاحب العمل — والعامل . فالعمال يجب ألا يعتبروا هيئتهم التنفيذية السياسية جزءاً من أنفسهم ولكن كياناً منفصلاً عليهم أن يعارضوه . فهم يعارضون ، وعلى الخصوم أن يذعنوا . لأنهم ليسوا خصوماً حقيقيين . وعلى هذا فإن كل مطالب رفع الأجور تلبى والتضخم يتفاقم .

بدا الاثنان عابسين غير قانعين بما قال . فقال تود :

إنك لم تفسر لنا أى شىء . لم تفسر لنا الهراء الذى نأخذه فى المدرسة . لم تفسر لنا لماذا نجلس نحن وأنت فى هذا المكان .

فقال بف :

حسناً ... سأفسر لك . إن الصراع فى القرن التاسع عشر لم يكن صراعاً اقتصادياً فحسب ، بل صراعاً ثقافياً أيضاً . لماذا يحتكر البورجوازيون الذوق والجمال ؟ كان أمثال راسكين ، ووليام موريس يريدون تنوير العمال . ولكن مع تركيز ماركس على أن الحقيقة الأساسية فى الثقافة وفى التاريخ حقيقة اقتصادية لم يعد ورق الحائط الجميل أو حجرات القراءة المجانية ذات أهمية كبيرة . واختفى مبدأ الاستهلاك الواعى الراشد . لم يكن ثمة مايفعل سوى الاستهلاك .

استهلاك ماذا ؟ استهلاك كل ما يعطى المتعة بأسهل الطرق . وظهر الذوق « الرخيص » . فالصناع مستعدون دائماً بتقليد « مبسط » للإبداع الفردى الأصيل . فالشراء يجب أن يعنى المتعة . لو اشتريت كتاباً لم تفهمه ستنفجر غضباً ... « يجب » أن تفهمه ... أوَ لَمْ تدفع فيه نقوداً ؟ يجب أن تبسط الأشياء ، وتصبح مصادر متعة سهلة . وهذا يعنى الهبوط بالمستوى العام لمنع الفروق الفردية . كل عامل معه مال من حقه أن يحصل على أفضل مايستطيع المال شراءه . فيجب أن يعاد تعريف هذا « الأفضل » على أنه ما يرضى الذات بأقل مجهود . وكل إنسان له نفس الحقوق الثقافية والتعليمية . وهكذا بدأت عملية الهبوط بالمستوى العام . فما الداعى لِيَبَزّ إنسان إنسانا آخر فى الذكاء ؟ هذا ضد المساواة ! لن تجد أى تقدمى من تقدميى القرن التاسع عشر كى يحدث العمال عن جمال شعر هوميروس . وكما تعلمان فقد تعلم بعض العمال القدامى اليونانية ، والعبرية . وكانوا يسمون هذا السمو بالذات . ولكن معنى هذا أن بعض الناس يسمون بذواتهم والآخرين لا يسمون . ياله من تفاوت وظلم بشع ! من هنا جاءت مناهج مدارسكم الحقيرة ، ومن هنا جاء الفساد والكآبة وفقدان الاهتمام بأى شىء . ربما كان نابليون وحشاً ، ولكنه لم يكن فاسداً كئيباً . فماذا يستطيع العظماء مثل يوليوس قيصر والمسيح أن يفعلوا للعامل ؟

فقال توس بمرارة :

إننا لا نعمل فى أية وظيفة . ولن نعمل أبداً . فنحن لسنا أغناماً نسير وراء جرس كبيرنا . إننا نواجه حياة الجريمة والعنف . الثقافة والفوضى . كم أتمنى التوفيق بينهما . أقرأ « فرجيل » ثم أبقر بطن رجل يسير فى الطريق . فأنا أكره ما يسمونه عدم التــ ... ... ماهى الكلمة ؟

« عدم التناغم » ، قالها تود .

فقال بف فى شىء من الضيق :

لا يمكن أن تتجنب هذا مادمت بشراً . فلا مفر من الجريمة مادمت تعادى « دولة العمال » كما قال لى نائبو البرلمان .

فقال توس فى قلق :

جريمة من نوعين : اقتباس أسلوب روبين هود فى السرقة ، كما رأيت الليلة ، والفعل المجانى ، أو بالفرنسية « الأكت جراتيو » .

ـــ من قال لك هذه الكلمة ؟

ـــ رجل اسمه هارتويل . لقد تحدث إلينا فى مكان لا أذكره بالتحديد ، كان رجلا كثير الشراب . حدثنا عن « كامو » ، ذلك الفرنسى الجزائرى ، لاعب كرة القدم . لعلك قد سمعت عنه . هذا الرجل قتل رجلاً آخر وعندئذ عرف أنه إنسان ـــ لقد فعل شيئاً لم يكن هناك داعٍ لفعله ، ثم رأى أن هذا هو الذى يمنحه الحرية ، فالإنسان وحده هو الذى يمكنه القيام بالفعل المجانى ، بلا مقابل . أى شيء فى هذا الكون الهائل ، بكل نجومه وكواكبه ، له قوانين يجب أن يتبعها ، إلا الإنسان ، ولكنه يجب أن يظهر حريته عن طريق فعل أشياء مثل القتل والضرب .

فقال تود :

لكن مانفعله ليس شيئاً مجانيا بلا مقابل ، ولا يمكن أن يكون ، فإذا كنا ضد الدولة فيجب أن نكون ضد الدولة كما ينبغى ، وهذا يعنى انتهاك القانون لأنه شيء تابع للدولة . كما أن اللاتينية واليونانية ضد الدولة . وهكذا يسير العنف ، وشكسبير وأفلاطون مع بعضهم البعض ، بل لابد لهم من ذلك . والأدب يعلمنا الانتقام ، إننى حين قرأت دون كيشوت مضيت أضرب فى طريقى كل إنسان ليس نحيفاً وطويلاً وذا نظرة حالمة ، والبدناء أتركهم لحال سبيلهم أيضاً .

فقال توس لتود :

ما تلك الكلمة الكبيرة التى قلتها لى أمس ؟

ـــ التكافل ؟

ـــ بالضبط . فبدوننا ـــ مثلاً ـــ كيف كان يمكن لجماعة « المسيحيين العصريين » أن تستمر ؟

دار رأس بف . أكل هذه الأشياء تحدث ؟! ثم سأل توس :

فسر ماتقول .

هؤلاء « العيال » الذين أنشئوا « جماعة المسيح السرية » ، فى هذه المنطقة الصغيرة التى أغلقت منذ مدة . عندهم شيء يسمونه « عشاء الحب » ، يمارسون فيه الحب حقيقة : أولاداً وبناتاً ، وأولاداً وأولاداً . أما طعام الوليمة فما هو إلا قطعة خبز وجرعة خمر . أحياناً نسرق لهم الخبز بأنفسنا ! يقولون إن الخبز

والخمر هما يسوع حقيقة . وبعد ذلك يخرجون بحثاً عن المتاعب .

فقال بف ، وقد أصبح مستعداً لتصديق أى شيء :

أهو « العنف المسيحى » ؟

— لا ... لا ... إنهم يخرجون رغبة فى أن يضربهم أحد ، حتى يطبقوا المبدأ المسيحى العصرى : أحب أعداءك . وهنا يأتى دورنا . والمشكلة أننا نصبح ودودين لطفاء ، فلا نضرب بالقوة الكافية ، عليهم أن يحصلوا على نبيذهم بأنفسهم .

قال جملته الأخيرة فى قسوة مفاجئة . فقال بف والضيق لايزال يلازمه :

الأشياء الوحيدة المهمة تعتبر هدامة مخربة . فالفن هدام والفلسفة كذلك . لا تنس أن الدولة قتلت سقراط .

فقال توس مقطباً جبينه :

أعرف قصته : « ياكريتو ..! إننا مدينون لأسكليبياس بديك » فقالها بف بعد ترجمتها للغتها الأصلية :

« أو كريتون ! تو أسكليبيو أو فيلمن الكترونا » .

— قلها ثانية ... قلها ثانية !

حثه توس وهو يجذبه من ياقة معطفه المتهرئة ثم قال : هذه هى الكلمات الأصيلة . أشعر أن الرجل المسكين ينطقها أمامى .

فكتبها بف ، الذى كان لا يزال معه قلم جاف ، بالحروف الإنجليزية على علبة سجائر توس . قرأها توس بسرعة ثم قال :

يقشعر بدنى حين أقرؤها بالإنجليزية . أحس بالقشعريرة تسرى فى أوصالى . فما بالك بالآن ... أحس بها تملأ كيانى كله . لقد قررت لهذا أن أسحق كل أولئك اليونانيين الذين يديرون هذا المطعم القذر بكامبرول . ثم وجدت أن المدير اسمه سقراط . قلت ياللسخرية ! وأعطيته مايستحق من عنيف الركلات .

ارتجف بف من داخله وقد عادت إلى ذهنه صورة ابن آل إيروين المغتصب الجريح . هل عانى ومات لأنه لم يكن شخصية فى كتب الأدب ؟ أم أنه كان يتمنى المعاناة والموت لأنه كان متطرفاً من المسيحيين العصريين ؟ من يعرف أى

شيء عن قلب الإنسان المظلم ؟ سألهما :

ألا تخافان أن يقبض عليكما ؟ أن تلقيا فى السجن ؟

أخذ توس يهز رأسه ببطء وهو يقول :

لا ... لا نخاف . إن ذلك هو الاختبار الأخير لنعرف هل نستطيع الحياة وحدنا ... داخل عقولنا وحدها ... إن هذا مما يدعونا لنملأ هذه العقول . لنعرف هل تستطيع أن تغذى نفسها بمعزل عن أى شيء آخر بعد ذلك . تلك هى الحرية الحقة ، أن تكون وحيداً فى زنزانتك ومعك عقلك تجول فيه كما تجول فى قطر من الأقطار . لكن أحداً منا لا يقبض عليه « النجورو » يهربون منا .

ــ لا أعرف الكلمة : أهم الشرطة ؟

ــ حلوف بالسواحلية ، الخنازير بالعربية ، وهى ألعن من الأخرى ــ لا يريدون أن يلوثوا زيهم الرسمى بدمائنا ... ثم بدأ يقرأ :

ــ أو كريتون ! تو أسكليبـ ...

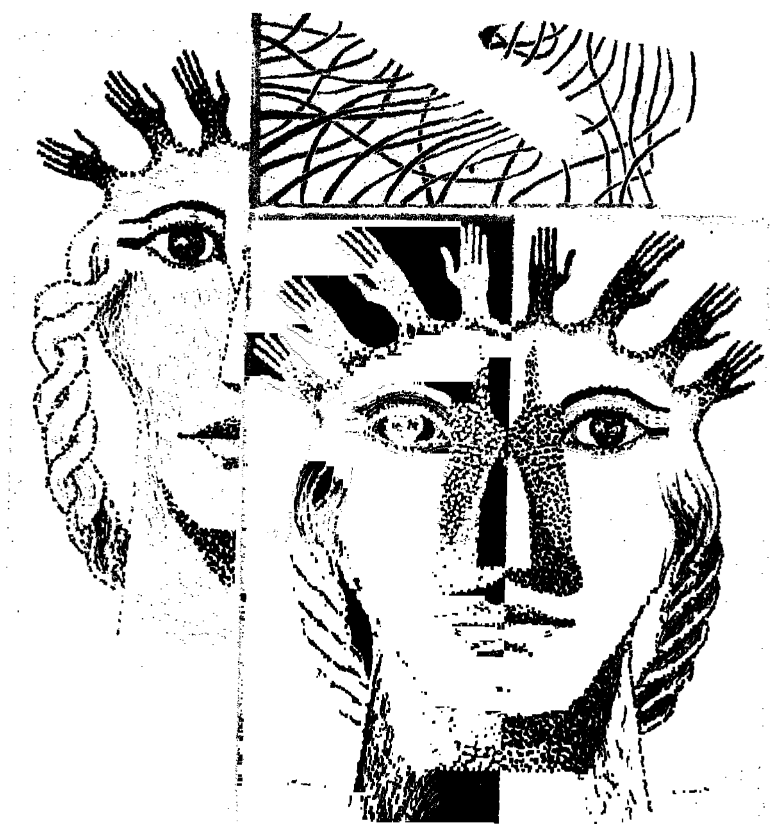
ــ فقال بف متحمساً :

ــ « لذلك أد الدين عنا ولا تهملنه » ــ هذه بقيتها . هاتها بالإغريقية ... هات الأصل ... أريد أن يكون الماضى أمامى كما كان ... بلا تغيير .

فقال بف :

آسف ... نسيت الباقى . لكنك محق فى رأيك عن الماضى . فنحن لا ندين بشيء لحاضرنا أو مستقبلنا ، فلنبق الماضى حياً إذن ، ولنؤد الدين ؛ فلابد أن يؤديه أحد .





٦ • البريطانيون الأحرار

في الليلة التالية جاء بف وهو يكاد يتجمد من البرد إلى مصنع معطل على طريق هامر سميث . مدخل المصنع يحيطه سور ، وبوابته على مسافة من الطريق . وجد فيه رجالاً ملتفين حول نار يبدو عليهم الشظف والإرهاق . اقتحمت أنفه رائحة شواء فغرق فمه باللعاب . دخل عبر الباب المفتوح فجاءه صوت يقول :
لا مكان ... لا مكان .

رجل يبدو عليه أنه باحث أو دارس ، يرتدى سترة قصيرة وبنطلونا من الصوف الاستكلندى وحذاء متسخاً برقبة طويلة . غير أن بف رأى فى عينيه نظرة كريمة طيبة ، فجلس بلا دعوة على برميل زيت قديم وقال :

ضد الدولة كلكم ؟
رمقوه بنظرة حذرة ، وقال الرجل الذى استقبله :
ـــ ما مهنتك ؟
فقص عليه بف قصته ، فأومأ الرجل برأسه وقال :
اسمى رينولدز ، ٥٩ سنة ، كان ممكنا ، لو كنت أريد ، أن أظل ساكتا لمدة شهر أو نحوه وأن اعتزل العمل فى السن المعتادة وأتسلم معاش الدولة . كنت ياسيدى مدرساً أول للأدب بالمدرسة الثانوية العامة بولينجتون ..
يابروفسير ... لقد سمعنا حكايتك مراراً ..

قالها رجل جاحظ العينين ، ذو رأس مستدير محلوق بالموس كأنما وقاية ضد الالتهابات الفطرية .
ـــ لا يمكنك أن تمل سماعها ياولفرد . ثم أننى أتحدث إلى السيد جونز ، لا إليك .

ومضى يقول :

إن الكتب المقررة للمستوى المتقدم لامتحان الدولة للشهادة هى كما يلى : منهج الشعر : أغنيات شعبية لولد اسمه جوفوت ، وهو عضو فى فرقة غنائية تسمى « ذى كوم باس » تغنى هذه الأغانى . وكتاب أغانى تأليف شخص أمريكى فيما أعتقد اسمه رود ولا أذكر الباقى . منهج الدراما : مسرحية بعنوان « مصيدة الفئران » تأليف الراحلة أجاثا كريستى ، وهى لا تزال فيما يبدو تعرض فى لندن للعام الأربعين . منهج الرواية : رواية اسمها « السياسيون الغرباء » أو بالأحرى ملخص لهذه الرواية بقلم هارولد روبنز . ثم كلام فارغ عن أخطاء تسلق السلم الاجتماعى للسير « جون برين » . تصدق ؟! أهذا هو الأدب ؟ .. فما كان منى ألا أن قدمت استقالتى .

ونظر رينولدز فيمن حوله كممثل ينتظر التصفيق ، فقال بف :

منتهى الشجاعة ... هل لى فى قطعة صغيرة من ذلك اللحم ... إننى أتضور جوعاً .

فزمجر رجل أسود وهو يقول :

ليحصل على مايريد بنفسه .

فقال رينولدز :

لنعمل الإحسان ... سيقوم بنصيبه من السرقة غداً لو انضم لعصابتنا . تفضل ياسيدى ... شريحة من لحم الرقبة . ربما عسيرة على الهضم ولكنها مغذية . أعتقد أن هناك أيضاً بصلة محمرة وسط الرماد . رفعها بقضيب حديدى وقدمها لبف . كانت تنز عصارتها عبر قشورها السوداء . أكل بف ممتنا ، ثم على أثر نظرة من عينى رينولدز أعطاه ولفرد وهو كاره زجاجة من مشروب أقلق معدته وسبب له نوبة سعال عند كل جرعة . تكلموا أثناء الطعام ، ثم وسط آهات الجمع أخذ رجل نحيف يرتدى قبعة واسمه تيمى يقرأ عليهم مقاطع من نسخة صغيرة متهرئة من العهد الجديد ، فقال ولفرد :

فى كل ليلة من ليالينا السوداء نسمع نفس الكلام .

فأجاب تيمى :

حتى يثبت فى ذهنك ... إن الرب نفسه قد حرم على العمال مبدأ

المساومة ، أو لم توافق على قرش ؟ إن الكلام لا يحتاج توضيحاً ، وهو كلام الرب ، فأحفظه فى مخك وتمسك به .

فقال رينولدز :

لو كنتم سامعين شيئاً الليلة ، فاسمعوا ماقال الكسندر بوب .

فقال ولفرد متذمراً :

ـــ لا مكان بيننا لكلام كاثوليكى !

فقال رينولدز :

أرأيت ؟ إنك تنضم لزمرة الجهلاء . إن قرار حرمانه جاء فى « مكتبة إيلنج العامة » لأن رئيس لجنة المكتبة كان له بعض الكلام الفارغ عن « الدولة العلمانية » ، وأنه ينبغى لك أن تذهب إلى روما إذا أردت بابوات . ولكنك ستسمع ياصديقى .

وأخذ يقرأ فى متعة واضحة :

ها هى دولتك الرهيبة ، دولة الفوضى ، تعود من جديد
ها هو ذا الضوء يذوى أمام كلمتك المدمرة
ها هى ذى يدك ، يازعيم الفوضويين العظيم ، تسدل الستار
والظلام التام يغشى كل شىء

قال بف :

دولة « الفوضى » : الفاء فساد ، والواو وهن ، والضاد ضعف ، والياء يباب . لم يكن ألكسندر بوب مضطرا لمحاربة المجتمع ، وإنما يفاخر بتمجيده ، تمجيد مجتمع الطبقة الراقية بالطبع . وفى نفس الوقت كان سارقو الخبز يعلقون فى المشانق والمتسولون يلعقون قروحهم ..

فقال رجل الدين :

معذرة ... إننى آكل .

وتابع رينولدز الحوار :

ومع هذا ، فما الذى ينتج من العدل التام ، « الظلام التام » لم يعرفه بوب ، لكنه عرف العدو اللدود والأبدى للحياة ..

فقال بف :

الكآبة .

فقال رينولدز بابتهاج :

آه ... لا كآبة الآن ... أهلا زيجيتي ... أهلا تيرتيس . انضم إلى الشلة رجلان يحملان حقيبتى كمان ، أخرج أحدهما من جيب معطفه كيلو من السجق . فقال رينولدز :

شق أصابع السجق أولاً ، فأنا لا أطيق فرقعتها عند القلى ! بعد الطعام فتح الوافدان حقيبتيهما . أخرجا آلتى كمان مختلفتى الحجم ، وعزفا لحناً زوجياً خلاباً لموتسارت . ومقطوعة لآلتين لباخ . كان مستواهما فى العزف عالياً ، وكانا رجلين ناضجين ، لابد أنهما محترفان ، ولكن بلا نقابة . قال تيرتيس :

كان ما سيحدث واضحاً لكل ذى عين منذ ١٩٧٧ . كنت عازف الكمان الأول فى « كونفنت جاردن » ، ثم أوقفوا الأوبرا اللعينة بعد الصف الثانى . قالوا إنها ستستغرق وقتاً طويلاً جداً ، ورفضوا أن يقبلوا أى وقت زائد ، فكل شىء يذهب للضرائب ، فقمت بالاحتجاج .

وقال الموسيقى الآخر :

هذا غير مهم ... الأدهى أنهم استخدموا الصفارة فى ثلاث مرات كفواصل موسيقية بعد بداية الحركة الأخيرة فى السيمفونية التاسعة . فما كان هناك داع لمجىء المغنين ولا كانت الصفارة مضبوطة على المفتاح السليم ، كان هذا فى قاعة المهرجانات الملكية فى سبتمبر ١٩٧٩ . أعنا يارب !

« لا تدعهم يفلتون من العقاب » ... خيل إليه أن صوت زوجته يقرقع بين النيران فتساءل :

وما العمل ؟

قال رينولدز :

ـــ ننتظر ... ننتظر مفاجأة من مفاجآت التاريخ الصغيرة . أعتقد ياسادة أن الوقت قد حان كى ننام .

ثم اتجه لبف وقال له :

لقد أغلق هذا المصنع أبوابه حينما لم يستطع تلبية مطالب أجور العمال فى عام ١٩٧٩ ، وقد وجدت الحكومة أن المصنع لا يستحق أن تتولى هى إدارته ، فقد كان مصنع مراتب ، ووجدنا فى المخزن كميات كبيرة من المراتب البالية . ولو نمت هنا ستشعر أنك محشور فى شطيرة .

ثم قال للأسود بلهجة حادة :
ـــ تريفور ، ألم تكن تقول إنك ستحصل لنا على بعض البطاطين ؟
ـــ ليس هذا بالأمر الهين يارجل .
ـــ يجب أن تراعى ظروفنا بمزيد من الجدية ياتريفور .

ثم قال لبف :
ـــ هل لك أى تخصص معين ياسيدى ؟
ـــ تعنى فى السرقة ؟
ـــ كلمة « سرقة » لا تعجبنا ! نفضل تخفيف وقعها بكلمات أخرى : « قش » ، « أخذ » ، « تنظيف » ، « خبط » ، « تعليق » ... ألم تدخل الجيش فى حياتك ؟
ـــ لقد ولدت مع بداية فترة السلام الطويلة .
ـــ مفهوم ... أما أنا فقد خدمت فيه مدة قصيرة ، أعطانى الجيش خلالها موقفاً سليماً تجاه الملكيات . حسنا ، سنناقش ذلك فيما بعد . أما الآن ، فتعال أبحث لك عن مكان تنام فيه ، أخرج عُقْب شمعة وأشعل فتيلتها من النار .

سارا معا ... كان جوف المصنع يبدو ككهف عميق مهجور لم يطرق منذ سنين . أضاء رينولدز مصباح زيت مدخنا بلهيب الشمعة وشرح لبف كيف ينام (ينام على مرتبة ويتدثر بمرترتين على جانبيه) شعر بف بالدفء ولكنه شعر أيضا بالقذارة ، وسأل :

ـــ هل تغتسلون هنا ؟ فـ « الخبطة » الناجحة تعتمد بالتأكيد على المظهر المحترم !

ـــ بالنسبة لخبطات التجزئة نعم . أما بالنسبة للجملة فلا بأس بالقذارة . فلو رأيت سيارة لحم تفرغ حمولتها ، قدم لهم كتفاً متسخاً لتحمل قطعة من لحم البقر وتدخل بها المخزن أو المحل وتخرج من الناحية الأخرى . وأحياناً تكون هناك مشاكل ، سنعلمها لك غداً بأسهل طريقة . وإذا طالت لحيتك فلا ضرر إطلاقاً ؛ بقليل من التهذيب تصبح بها رجلاً محترماً أيضاً . لكن الملابس المحترمة أساسية لعمليات السوبر ماركت . ولدينا « ملابس المحترمين » كما يسميها ولفرد مازحاً ، معطف وقبعة نحتفظ بهما فى كيس من البلاستيك . فلا توجد أزمة فى البلاستيك . البلاستيك فى كل مكان ، مجاناً ولا يمكن تحطيمه ، كأنه الدين ..

ثم قال :
أهلاً ... جئت فى وقتك تماماً ... الأب بارسونز ، دكتور جونز .

فقالا فى لسان واحد محتجين :
ـــ اسمى أستاذ ... أستاذ !

كان واضحا أن بارسونز الذى دخل لتوه فى حالة سكر واضح . انحنى فى كياسة بلفاعه المحكم وجسده الهيكلى وقامته الفارعة ، وقال :

أكاد أكون راضيا عن هذه الليلة كل الرضا . دعانى بعض الشبان الشرسين إلى الويسكى مقابل نبذة من التاريخ الكنسى ، واستمعوا لكلامى فى اهتمام صادق ، قالوا إنهم من أشد مؤيدى اللاتينية ، ومن أشد معارضى اعتبار « العشاء الربانى » مجرد تذكار . ثم قال لنا صاحب الحانة لا دين فى حانتى ولا سياسة أيضاً . فاحتج أحد الشبان قائلاً « هل يبقى بعد ذلك مايستحق المناقشة ؟ بل رغماً عنك أيها الحقير » ، وكان سباب ، وشجار وعراك قبل أن يصل على استحياء اثنان من رجال الشرطة ، تقريباً فسدت الأمسية ..

ثم تثاءب عالياً فى استمتاع وانكب على مرتبته بكامل ملابسه وأخلد للنوم . وأخذ القوم ينسحبون إلى الكهف الكئيب ، واحداً واحداً ، واثنين اثنين ، حتى

امتلأ بالنيام . سمع شخيراً وسعالاً وهمهمة ، وكلمات غريبة يهمس أو يصرخ بها . قال بف فى نفسه : قبل أن يغيب فى نعاسه إنه لا حياة ، لا حياة لأى أحد هنا .

فى الصباح سرق تريفور الأسود لبنا وزباديا للإفطار ، من سيارة منتجات ألبان . اغتسل بف فى برميل زيت نصف مملوء بماء المطر ، وتنشف بشىء يطلق عليه تريفور « المنشفة » ، ثم ارتدى « ملابس المحترمين » ، سترة صوفية نظيفة وقبعة أنيقة . وأصبح مستعداً لخبط سلع قليلة من السوبر ماركت . قال له رينولدز :
الناس تنظر لجيوب اللص . فابتعد عن الأشياء الكبيرة . خذ هذا الجنيه .

وأعطاه ورقة مالية تشرق بابتسامة صبيانية للملك تشارلز الثالث « العاهل السعيد » وأضاف :
لابد أن تشترى شيئاً ما .

وهكذا دخل بف متجر الطعام وقلبه يدق بعنف ... أول جريمة فى حياته ... خبأ فى سترته مرقة وخضراوات مجففة وشرائح لحم خنزير مقدد ولحوماً معبأة مجففة وجبنا . كان المحل مليئاً بالمتسوقات ، قالت إحداهن ، وهى ترتدى وشاحا ومقاعص معدنية على رأسها ، لزميلة لها :

الجرائد مقدور عليها ، ليس فيها أى شىء على العموم ، وإن كنت أحب الكاريكاتير . لكن كان فى برنامج التليفزيون الليلة « موسيقى التتويج » ، وأعتقد أن هؤلاء البهائم يجب أن يراعوا الناس .

واضح من كلامها أن كل وسائل الإعلام قامت بإضراب . لكن لماذا ؟ اشترى بف لفة خبز تزن كيلو بجنيه . ولم يعلق أحد على الانتفاخات بجسده ، وخرج من المحل ماضيا فى كبرياء ، جلسة حول النار لطيفة فى فناء المصنع . قابله رينولدز وقال :
أكياس شاى ؟ حسن . سنضعه فى هذه الغلاية القذرة ، فأنا أحب رائحة الصدأ ... نعم نعم ، لقد تم الانذار بهذا .

كان يعرف كل شىء عن الإضراب الجديد فقال :

ـــ تعرف أنه غير مسموح لأحد بالكتابة فى الجرائد والدوريات إلا إذا كان عضواً فى « النقابة القومية للصحفيين : ن ق ص » . وحدث فى الأسبوع الماضى أن نشرت التايمز عرضا لموضوع ـــ أمريكي حتماً ـــ فى علم المصريات . كان العرض ينم عن ضعف المستوى والجهل والأمية الشديدة . لكن كاتبه كان عضوا فى الـ : ن . ق . ص ، والغريب أن التايمز واتتها الجرأة لتنشر رسالة طويلة ـــ حوالى ١٥٠٠ كلمة ـــ كتبها صعلوك من أمثالنا فاضحاً فيها حقيقة مستوى الناقد وجهله وأميته . أنا ـــ بصراحة ـــ أتعجب كيف فات هذا على عمال المطابع . لهذا قام الإضراب ، ولهذا أغلقت مرافق الإذاعتين السمعية والمرئية . فلابد من اعتذار متوسل ، ولابد أيضا من تعويض مالى للنقابة القومية للصحفيين ، حتى يهون من طعم الإهانة المريرة !

اقترب من النار شاب أنيق الملبس يدعى ديرك ، ابتسم قائلاً :
ـــ حصلت على وظيفة ، وسأبدأ الليلة .

فقال ولفريد :
ـــ رابع المستحيلات .
ـــ بل هو الواقع الذى لا ريب فيه ... مطبعة خاصة ، وإقامة ، والأمر كله سرى للغاية . قابلنى توش ، بجانب الطريق العمومى وقال لى ، من جانب فمه : إن رجلاً أنيقاً حاد اللسان أعطاه جنيها وسأله إن كان يعرف أحداً من عمال المطابع ويعمل فى تكتم وسرية كما أقول . مسكن خاص ، على طريق هوبر ، سأقابله على ناصية الشارع فى التاسعة مساء اليوم .

وكان يحرك أصابع يديه كأنه يصف حروف الطباعة . سأله رينولدز :
ـــ والأجر .
ـــ خمسة جنيهات فوق ما تعطيه النقابة .

اتضح أن اليوم الطويل ليس مملا كما توقع بف . هناك مناقشات فكرية مع رينولدز ، والأب بارسونز ، ووافد جديد ، عالم فى الأشوريات ، غير مفيد للدولة ، وجد ولفريد أو « اكتسب » ـــ كيسا صغيراً من البطاطس للتحمير على النار . عرض عازف كلا رينيت آلته للنار ثم عزف الحركة الأولى لسوناتة برامز .

وحصل الأب بارسونز ، مرتدياً زيه الكنسي ، على خمر المذبح من مخزن للتموينات الدينية ببطاقة ائتمان مزورة . وعاد تريفور من سعيه ببطانيتين في غلافين من البلاستيك من سوق بالشارع . قال رينولدز وهو يتحسس الصوف بأصابعه :

نريد المزيد غداً ياتريفور .

فى صباح اليوم التالى أغرقت الشوارع بنسخ من جريدة جديدة توزع مجاناً اسمها « البريطانيون الأحرار » . أحضرها الأب بارسونز مع اللبن . جلسوا يحتسون الشاى فى العلب القديمة ويحمرون الخبز واللحم على النار ، وفى يد كل منهم صحيفة ، من أربع صفحات فقط ... مطبوعة بحروف أنيقة طباعة فاخرة لم يرها أحد منذ سنين ، طباعة تناسب مضمون مقالات الجريدة المثيرة الملتهبة . كانت جريدة بلا أخبار ، إلا خبراً عن العزم على تكوين « جيش العمال الأحرار » . قرأ رينولدز جزءاً من المقال الافتتاحي بصوت عال لتريفور ، إذ إنه بطيء في القراءة :

« إن هذا البلد الذى كان عظيماً ذات يوم قد ذاق الأمرين ــ ولا يزال ــ من تراخى نقابات العمال ، واللامبالاة التى تتسم بها ، وتعويقها المسيرة بكل سفور .. » .

ــ ما معنى هذا الكلام الكبير يارجل ؟

ــ لا عليك ياتريفور ، سألخصه لك ... هنا رجل يسمى نفسه « كولونيل لورنس » ..

وفكر برهة ثم قال :

أيكون اسماً مستعاراً ؟ قد يكون اسمه الحقيقى بالطبع ، ومع هذا فالاسم يوحى بـ ... ، لايهم ... المهم ياتريفور أن هذا الرجل يكون جيشاً خاصاً ، فبما أن « قوات المملكة » لم تعد محل ثقة ، لأنها أصبحت تابعة لنقابة ومستعدة للإضراب عند أول إشارة خرقاء ، فإن الحاجة ملحة ، كما يقول الكولونيل الطيب ، إلى تنظيم شبه عسكرى يعتمد عليه ويكون مستقلاً عن القانون ، ذلك القانون الذى يقترح الكولونيل لورنس تغييره بصيحة احتجاج عالية من الشعب ، يدعمها ويشجعها ماسيطلق عليه « الجيش البريطانى الحر » . والجيش مزود جزئياً

بالضباط ، لكنه فى انتظار تجنيد جميع الرتب . والرتب كما يلى : العسكرى الحر ، الجاويش الحر ، قائد الفصيلة ، « ديموقراطى » السرية ، رائد ديموقراطى الكتيبة . أما رتب الضباط العاملين فتبدو كالمألوف : ملازم أول — نقيب — رائد ... إلخ . ومعدل الترقية سريع ، ويعتمد على الكفاءة أكثر منه على مجرد الأقدمية ... أما المرتبات فتبدو لى غير معقولة ..

— كم يعطون ؟

— العسكرى الحر يأخذ ١٥٠- جنيها استرلينيا فى الأسبوع ، ولكن المرتب يتناسب مع معدلات التضخم .

أخذ رينولدز يفكر ثانية ، وقال قاطبا جبينه :

إن هدف « الجيش البريطانى الحر » هو الإبقاء على الخدمات الأساسية حينما تؤذى الإضرابات هذه الأرض ، الحبيبة الحبيبة ، كما يصفها الكولونيل ... ويقسم الجنود الأحرار قسماً مقدساً ليطيعن رؤساءهم فى كل شيء . ويحلفون ليخدمن البلاد بلا مناقشة . بل إن هناك نشيداً للجيش : « أقسم لك يابلدى ، فوق كل شيء على الأرض » ، أغنية مألوفة ، أنغامها فى غاية الجمال ، أذكرها ، تأليف موسيقى سويدى أو ..

— جوستاف هو لست ..

عاجله بها تيرتس عازف الكمان ، ثم أضاف :

وهو إنجليزى قح ، رغم اسمه . واللحن مأخوذ من « الكواكب » حركة جوبيتر ، شديدة الانخفاض ، ٣ — ٤ ، مايستوزو .

— وأين التعاقد يارجل ؟

فقال رينولدز فى جدية :

تريفور ... أرجو ألا يكون ماتفكر فيه هو الانضمام إلى منظمة فاشية ... « الحرية » ، « البريطانيون الأحرار » ، « العسكرى الحر » . ماهى إلا أسماء للتعمية والتمويه . هذا الرجل الذى يسمى لورنس يريد تولى السيادة على طريق هتلر ... أتوسل إليك بحق المسيح ، ابتعد عن هؤلاء ..

— أستطيع أن أستغل المال يا رجل ..

فسأل بف :

ــ ومن أين يأتى المال ؟

أجاب رينولدز :

الأمر واضح فى اعتقادى ... أنظر آخر الصحفة الرابعة .

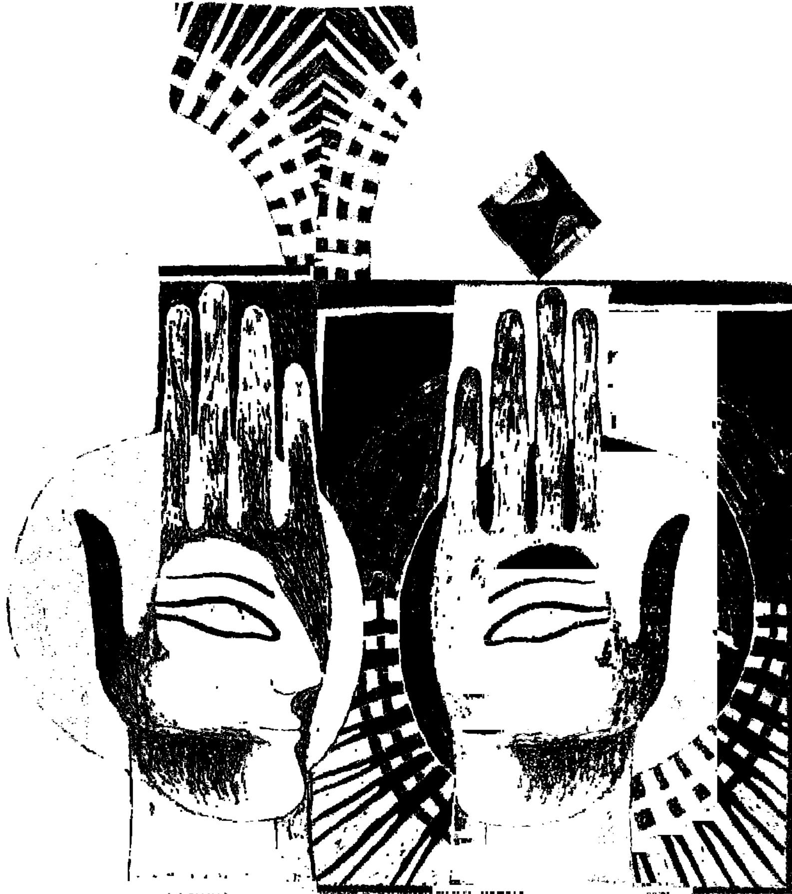
نظر بف وقرأ :

« ولنذكر جيداً ... حقيقة تدعونا الدولة النقابية ــ بل ترغمنا ــ على نسيانها . فقبل واجبنا تجاه الدولة هناك واجبنا تجاه الله ، وهذا الواجب الأسمى يشمل روحياً الواجب الأدنى ، لقد استخلفنا الله فى الأرض لنحقق بعملنا الإنسانى صفاته المقدسة التى بطبائعها نفحة منها ، لكى نقدم الحق والخير والجمال على الكسب والإنفاق . إننى لا أقصد بالله هذا الإله « الجنتلمان» الرياضى الأنيق الذى ابتدعه الأنجليكان ، وإنما أعنى الله رب الرسل جميعاً ، من إبراهيم إلى محمد .. »

فقال له رينولدز :

ــ والآن ، هل عرفت من أين يأتى المال ؟





٧ • في الحجز

إن طموح بف أكبر منه ... كان لا يزال مبتدئاً في « الأخذ » والـ « خبط » . ولكن نجاحه في عملياته الصغيرة شجعه تشجيعاً زائداً على حده ؛ فما كان ينبغي أن يحاول « أخذ » زجاجة الخمر البالغ ثمنها ١٥ جنيها من على رف المشروبات بالسوبر ماركت . فقد التقطه التلسكرين وهو يدسها بين طيات ملابسه ، وحينما وصل إلى طابور الدفع ليدفع خمسين بنسا ثمن كيلو من الخبز الأسمر أدركته فتاة أنيقة جامدة الوجه ، ذات شعر أشقر متموج جذاب ، لا يختلف عن شعر بيسى المسكينة ، وقالت له :

ـــ هذا الانتفاخ في جيبك ، أتسمح أن أراه ؟

ـــ ماذا ؟ أى انتفاخ ؟ أين ؟ ملكية خاصة ، شيء يخصنى ، أنا أعتبر هذا اعتداء علىّ لا يغتفر ..

ـــ لقد شوهدت وأنت تأخذ زجاجة خمر من ذلك الرف . هل تنوى دفع ثمنها ؟

ـــ أنوى إعادتها مكانها .

أخرج الزجاجة وحاول أن يمضى فى طريقه إلى المكان الذى التقطها منه وجمع كبير من الناس ينظر إليه ، وإمرأة عجوز مصمصت لسانها فى تحسر . قال :

بعد أن عددت نقودى اكتشفت أنه ليس معى مايكفى إطلاقاً . إنها باهظة الثمن .

سدت الفتاة الطريق أمامه ... ظهر مدير المحل متجهما كجراح فى معطفه الأبيض . قال بف :

أعيدها مكانها لو تكرمتم وسمحتم لى .

لكنهم لا يريدون أن يسمحوا ... قال المدير :

ـــ حسناً ... مقبوض عليه متلبساً بالجريمة . أبلغى الشرطة يامس بورلوك .
ـــ حاضر يامستر أولسوب ..

ومضت بساقيها الجميلتين ... قال بف للمدير :
ـــ انظر ... ستجعل من نفسك أضحوكة . كانت تعتبر سرقة لو كنت مررت بخزينة الدفع دون دفع الثمن . سليم ... لكننى لم أفعل ذلك . ستكون أمامك مشكلة كبيرة فى إثبات أى شيء .

وحاول مرة أخرى أن يعيد الزجاجة من حيث « استعارها » ، لكن المدير دفعه . ثم نادى قائلاً :
ـــ يا آلوين ... ياجيفرى .

فجاء رجلان آخران فى معطفين أبيضين تاركين عملهما فى تعبئة الأرفف . بدوا وكأنهم سيرغمون بف على الإذعان لعملية جراحية خطيرة ... أصابه الذعر وحاول الخروج والزجاجة فى يده ... لكنه فى استجابة عفوية للأمانة عاد وحاول أن يعطيها لآلوين الذى بدا متعاطفاً معه ، ربما كان هو الآخر يسرق سراً . أشاح آلوين بالزجاجة جانباً كأنما يتنصل من الاشتراك فى الجريمة . قال مستر آلسوب :
ـــ اقبض عليه ياجيفرى .

وضع آلوين يديه على بف ، فاتضح أن آلوين هو ـــ فى الواقع ـــ جيفرى ... لا ليس مع بف يحدث هذا ... دفع الأيدى المتداعية عليه بقاعدة الزجاجة القوية ... وصلت مس بورلوك مع شرطيين ... شابين صغيرين لهما شاربان كشاربى رجال العصابات . جاءا للإمساك ببف ورائحة الشاى المحلى بالسكر تفوح من فميهما . أمسكا به ... لا ... ليس هو الذى يعامل هكذا ... رفع الزجاجة مرة أخرى ، أمسك بها أحد الشرطيين وأعطاها للفتاة ... قاوم بضراوة والمشترون ينظرون ، فما يرونه يقارب مايشاهدون فى التليفزيون المضرب الآن . حاول أن يشق طريقه عبر الزبائن الواقفين فى طابور الخزينة ، فأعاده بعضهم إلى داخل المحل ، وأمسك به رجُلاَ الشرطة من جديد . ليس أمامه إلا أن يخمشهم بأظافره ، فهو لم يقصها منذ أعياد الميلاد . نجح فى صنع جرح رفيع على خد أيسر ... قال الشرطى :

لا لا ... ليس هكذا أيها العزيز .

وأسقطه بعد ضربه بالركبة فى خاصرته ... أمسك به أربعة كل من طرف ووجهه للأرض ، وخرجوا به من المحل .

فى القسم ، على مسافة شارعين ، كان الضابط يرتشف الشاى ويقضم القشدة فى تؤدة ، بينما يدون الجنح المختلفة التى ارتكبها بف ببطء بخطه الكبير : محاولة السرقة ، المقاومة أثناء القبض عليه ، الاعتداء على شرطى ، حيازة سلاح (إذ وجدوا المطواة الحادة في جيبه) وعدم وجود محل إقامة محدد . نادى الضابط إحدى الشرطيات قائلاً :

جرتى ... أحضرى لى بيانات هذا الشخص من السجل المركزى اسمه جونز ، ب . جونز .

أما هذا السجل المركزى ففيه سيرة حياة بف مسجلة فى كمبيوتر فى انتظار إخراجها فوراً عند الطلب . سألت الشرطية :

ــ الرقم ؟

ــ رُد . رقمك كم ياولد ؟

ــ أى رقم ؟ رقم النقابة ؟ رقم سجل الميلاد ؟

ــ كل أرقامك ياصاحبى ..

فانفجر بف :

ــ ملعونة الأرقام كلها ! أنا إنسان ولست رقماً حقيراً .

فقال الضابط :

لتكن أكثر تعقلاً ... البلد مكتظ بمن اسمهم جونز ، أمر عسير جداً أن نجدك حتى مع حرف الـ « ب » . هيا يارجل ... تعاون معنا ..

ــ ولماذا أعين آله حقيرة ؟

فلكمه أحد الشرطيين ، وقال الضابط وهو يكتب :

حسنا ... وغير متعاون ... لنأخذ بصمات أصابعك .

وأضطروه ليطبع بصماته بالحبر على بطاقة ، أخذت لترسل صورة منها بالتلكس ، إلى السجل المركزى . وقال الضابط لأحد الشرطيين :

ـــ أأنت متأكد أنك ذكرت كل ماحدث ؟ ألم تنس أن تذكر أنه قد سحب عليك السكين ؟ .

فقال بف :

ـــ هذا كذب .

فقال له الضابط فى رفق :

لا بد أن تتعاون يابنى . فما الحياة إلا تعاون .

ثم قال للشرطيين :

خذاه وتعاملا معه بالطريقة المألوفة .

انهالت على بف ـــ فيما بدا أنها الطريقة المألوفة ـــ اللكمات من الشرطيين وهما يأخذانه للزنزانة . رد اللكمات بمثلها ... تنهد الضابط وكأنه يتعجب من الحماقة المتأصلة فى الإنسان ممثلة فى بف . وكتب بنداً جديداً ... امتلأت ورقة الاتهامات حتى أصبحت عريضة كبيرة . قال الشرطى الذى خدشه بف فى المحل :

ـــ حسناً ياولد ... انتظر هنا حتى تحاكم فى الصباح .

دفعه فى حجرة كالجنة الصغيرة دفئاً ونظافة . بها سريران مفروشان فوق بعضهما ومبولة غرفة نوم ، بل كان هناك حوض ماء ومنشفة جافة وقطعة صابون خضراء . أما القضبان الحديدية فهى إنما تسجن هذا العالم المجنون الشرير من حوله ، ولا تسجنه هو . خلع ملابسه واغتسل ، جاء رجل متجهم يرتدى مئزراً وأعطاه طبقا من اليخنى وفنجان شاى بالسكر . رقد على السرير الأعلى واستغرق فى التأمل ... وسرعان ماغشيه ليل الشتاء المبكر ، ومن السقف تهادى إليه ضوء الفلورسنت الباهت وكأنه يبتسم ابتسامة مصطنعة ... وغاب فى نومه .

استيقظ فى الصباح على ضوضاء عنيفة . رأى شرطيين مختلفين وضابطاً غير ضابط المساء يدفعون برجل سكران قذر إلى الزنزانة فى صعوبة ... كان من الواضح أنهم يعرفون هذا الرجل جيداً . إذ أخذ الضابط يقول له :

ـــ هيا ياهارى ... كن فتى طيباً ... هيا ... هيا ... فسريرك نظيف وجاهز ضع رأسك على الوسادة .

لاحظ أن رأسه صلعاء مليء بالندوب مجعدة الجلد فى مواضع منها من أثر حريق . أخذ الرجل يغنى :

دفعوه إلى أسفل ، ودفعوا كأسه لأعلى حتى كاد الكأس يفيض ..

وكانت تتخلل أغنيته ـــ التى لا نغمة لها ـــ عبارات بذيئة وأغنيات هابطة ، ألقوا الرجل على السرير الأسفل ومضوا . تنهد بف ، وهو يتوقع ليلة لا نوم فيها . قال له الضابط النحيف الذى يبدو فى عينيه نظرة قس من طائفة الميثودست :

نعرف كل شيء عنك أيها الوغد المناهض للنقابة . لقد اطلعت على ملفك المليء بالقذارة ، وجلبنا لك اليوم القاضى آشتورن العجوز ، وأرجو من المسيح أن يسحقك .

ثم أغلق الزنزانة وهو يقول للسكران :

ـــ حسنا ياهارى ... اسحق هذا الحقير سحقاً .

بدأ هارى يغط فى نومه ... حاول بف العودة للنعاس تحول الغطيط إلى صوت محبب إليه ، صوت منشار الخشب فى الريف : الشمس أكثر دفئاً مما هو متوقع فى شمس أغسطس ... هو وإلين جالسان على ضفة جدول ، تغسل أقدامهما مياه لطيفة البرودة كالرخام . أما بيسى ، فى الرابعة من عمرها ، فهى تطارد فراشة حمراء جميلة . ماأجملك ياإلين ! ببشرتك الصافية وعينيك الخضراوين الواسعتين ، وأنفك الدقيق وفمك الواسع الضحوك ! جسدها نحيف قليلاً لكنه يبدو رشيقاً فى الفستان الصيفى القصير الذى له لون التفاح الخمرى . مرَّ فوقهما سرب من الطير تخفق بأجنحتها ... أما صوت المنشار فكان قد توقف ... أفاق بف على هز عنيف أيقظه من نومه ... كان هارى ممسكاً بقدميه يهزهما وقال له :

أمعك رشفة واحدة لصديقك العجوز ؟ يكاد الظمأ يحرقنى . أشعر بلهيبه فى جوفى كأنه النار !

فقال بف محاولاً التحول عنه :

يوجد ماء هناك ..

ـــ ماء ؟ ماء لى أنا ؟ لقد شربت فى حياتى آلاف الملايين من الجالونات ، لم تدخل فيها جوفى قطرة ماء إلا بمحض الصدفة حسناً ، مادمت لا تريد مساعدتى فلا يهمنى ... وعليك اللعنة أيها الوغد ..

كان بف قد استيقظ الآن فسأله :

ـــ ماذا كنت تقول عن الماء ؟

ـــ لا ألمسه إلا بحكم المهنة !

فسأله بف وهو ينزل من سريره :

ـــ أى مهنة تلك ؟ رجل مطافىء مثلاً ؟

ـــ جئت بها من أول مرة ياصديقى ! قسم ب ١٥ ، إننى أموت من العطش .

ذهب إلى باب الزنزانة وصرخ خلال القضبان :

إننى أموت من العطش ... أعطونى ولو قليلاً من البيرة أعرف أن عندكم كثيراً من الزجاجات هنا ... لقد رأيتها بعينى ... أنتم أيها الكلاب .

لم يرد عليه أحد ، فالظلام يلف كل شىء ... قال بف الذى وقف الآن مطلق اليدين :

ـــ قاتل ... لقد قتلت زوجتى أيها المجرم السفاح ..

ـــ هه ؟!

التفت هارى مترنحاً فى دهشته :

ـــ أنا لا أعرف زوجتك أيها الرجل ... ولم أقتل امرأة فى حياتى قط ... لعلى قتلت واحدة أو اثنتين بطريقة لطيفة ، لكن هذا أمر يختلف ! ماذا تريد إذن ؟ يا إلَهى يبدو أننى سأضطر للماء ..

أخذ إبريق الماء ورفعه وتجرع ، ثم قال وهو ينفخ :

ـــ طعمه رهيب !

قال بف :

لقد قمت بإضراب وتركت النار تأكل مستشفى برنتفد . كانت زوجتى تعالج فيها ، ورأيتها قبل أن تموت بلحظات . واتجه لهارى ملوحاً بأصابع مستعدة

لقلع عينيه . كان هارى سكران ومكرشاً أيضاً ، لكنه لم يجد صعوبة فى الإطاحة بيد بف . وقال :

ــ أنت مجنون . إننا لا نبدأ الحرائق ولكننا نخمدها ... أتفهمنى ؟

ــ لكنك لم تخمد هذا الحريق أيها السفاح القذر .

صوب إلى وجهه لكمة لكنها أخطأته . إنه من ذلك النوع من الوجوه الذى يستحسن أن تراه مقلوباً .

ــ لقد قمتم بإضراب وتركتم الناس يعانون سكرات الموت .

فقال هارى :

اسمع ... أنا غير مسئول . المسئولون هم الأوغاد الذين أشعلوا النار فى المستشفى ، الإيرلنديون هم المسئولون . نعم « الجيش الجمهورى الإيرلندى » . لقد سمعهم أحد رجالى يقولون هذا فى إحدى الحانات . ولشد ماتألم الرجل لهذا ... واندفع وهو يكاد يموت من الغم ، إننا لا نحب الحرائق يارجل ... بالعكس ، إن فرحتنا تزداد كلما قلت الحرائق ... فلا تثر هذا الموضوع مرة أخرى ... أتفهمنى ؟

لقد قمت بإضراب ، وهذا هو كل ماأفهمه ، إن زوجتى صارت عظاماً متفحمة وبشرة محترقة ، وهذه هى نتيجة إضرابكم الخسيس .

فقال هارى ، وقد بدأ يفيق من سكرته :

اسمعنى ... إن علىَّ أن أتحرك حينما يأمروننى . أليس كذلك ؟ الرجل منا يسمع الأجراس تدق فيتزحلق على العمود ولا يسأل عن شىء ... بالضبط كما ينفخون فى الصفارة . لكنهم قالوا لنا إننا سنقوم بإضراب وهذا هو الذى ستفعلونه ولو لم أفعل سأطرد ... إننى أب لخمسة أولاد ، ولى زوجة تنتظرنى عند عودتى للبيت صباح غد . إننى لا أملك إلا وظيفتى ، يجب أن أؤديها لأننى أحتاج إلى المال . بل أحتاج إلى المزيد كل يوم مع هذا الغلاء الطاحن . ليس أمامك إلا أن ترهب كل إنسان بالقيام بإضراب ، وعندئذ تبلغ ماتريد . فماذا فى ذلك ؟ ثم إننى لست أنا ولا رجالى الذين نقرر الإضراب . إنها الأوامر التى ما علينا إلا أن نطيعها .

فقال بف فى ضعف وتردد :

ــ آه ... أيها السفاح ..

ــ إننى أقدر مشاعرك . فالحريق كان يجب أن يخمد وهذا حق . لقد
أن الجيش سيتولى هذا ، وهذا والله هو دور الجيش ، لكن هؤلاء الملاعين أ
أيضاً ، وهذا مالم نحسب حسابه . ماكنا نريد تأييدهم لنا بإضرابهم الحقي
أعتقد أنهم خافوا من القيام بالمهمة فتنصلوا منها بالحديث عن قضية إخ
المدنيين رجال المطافىء . المفترض فى الجيش أنك لو لم تنفذ الأمر تع
بالرصاص . كان أبى دائماً يقول هذا ، فقد كان جندياً فى حملة شمال إفر
كانوا يسمونهم « فئران الصحراء » . وقد صدق أبى فيما قال ... اسمع ، إ
الموضوع لا يؤرق ضميرى ، وأريد الخروج .

أخذ يدق على القضبان دقاً عنيفاً وهو يصيح :

بيرت ، فيل ، أيها الرقيب ماكاليستر !

جلس بف على الكرسى الخشبى المتداعى وهو ينشج بلا دموع .





٨ • حكم المحكمة

كما ألمحوا لبف ، كان رئيس المحكمة رقم ٣ هو أشتورن العجوز ... رجل شديد صارم ، جاوز الستين ، يتدلى لغده حول رقبته ، أصلع الرأس إلا من كتلات من الشعر فوق أذنيه كأنها كريات من الصوف ... بجواره تجلس المساعدة ، إمرأة عادية ، مستوية الصدر ترتدى قبعة من الجوخ الرمادى . على مقربة يجلس كاتب المحكمة ، رجل متغطرس جهورى الصوت ... كانوا يدعون بف بـ « ياجونز » هكذا من غير ألقاب . هناك أيضا الشرطى الذى خمشه بف بظفره ، لا يزال أثر الجرح واضحاً على خده ، لكن بف يمكن أن يقسم أنه صبغ الجرح بأحمر شفاه لكى يبدو خطيراً . أخذ هذا الشرطى يتلو الاتهامات المختلفة الباطلة فى صورتها الخسيسة التى كتبها بها ضابط القسم . أيدت مس بورلوك — بائعة السوبر ماركت — كل شىء ماعدا الأحداث المفترض حدوثها فى القسم . ثم سلم كاتب المحكمة المطواة ذات الزنبرك إلى آشتورن الذى جعل يطلق نصلها ويرده فى خبرة غريبة . رأى النصل ملطخاً بدم كذب ، ربما بفعل البوليس . تحدى القاضى بف أن يرد على الاتهامات الموجهة إليه بأى شىء ، فقال بف :

إننى معترف بمحاولة السرقة . لكننى بلا عمل ، و « دولة العمال » تحرم علىَّ إعانة البطالة ، وأنا لابد أن أعيش ، فلم أجد أمامى غير السرقة .

— لم تجد أمامك غير سرقة الخمر !

قالها القاضى وهو يستعرض الزجاجة الفاخرة لتومض فى الضوء الصناعى ، وأضاف :

ليتك سرقت خبزاً ، ولكن خمراً ، وخمراً من نوع فاخر أيضاً .

أحاط الزجاجة بأصابعه النحيفة وطرق على المنصة فى صرامة شديدة .

قرأت مساعدته كل شيء على بطاقة الزجاجة ، وأومأت فى روع موافقة على قوله بأن الزجاجة فاخرة . عاد آشتورن ليقول :

ــ لقد حاولت الهرب من ضبط قانوني ، وحملت سلاحاً ملطخاً بالدماء .

ــ بل ليس ملطخاً بالدماء . هذه المطواة لم تستخدم قط .

فصاح فيه كاتب المحكمة :

ــ تكلم حينما يوجه لك الكلام ياجونز .

ــ هذا ما فعلت بالضبط ... لقد تكلم بالكذب ، وأنا صححت ما قال . ماذا فى ذلك ؟

أخذت المساعدة تهمس بشيء للرئيس فى إسهاب وتفصيل ، بينما هو يومىء برأسه مؤيداً ماتقول . ثم قال أخيراً :

ــ لقد انتهكت القانون ، ولابد أن نحمى المجتمع من أمثالك ... جعلته هذه العبارة يغلى بسرعة كأنه وعاء ملىء بالكحول :

ــ أمثالى ؟ ماذا تعنى بـ « أمثالى » ؟ إننى عالم ممنوع من تبليغ علمه للناس . إننى أرمل ماتت زوجته محترقة ورجال المطافىء فى لندن يجلسون على مؤخراتهم ويخللون أسنانهم !

فزعق فيه كاتب المحكمة :

ــ اعتذر لمسز فيذرستون عن استخدام هذه الكلمة .

فقال بف لمساعدة الرئيس :

أقدم لك اعتذارى يامسز فيذرستون عن استخدام هذه الكلمة . فالكلمات أشياء فظيعة ... أليس كذلك ؟ أشياء أشد فتكاً من الحرائق التى تترك مشتعلة بينما يجلس رجال المطافىء على مقاعدهم ، إننى لست « نمطا » لى « أمثال » ، كما تسمينى سيادتك أو فضيلتك أو سعادتك أو أى لقب تحبين أن تنادى به . إننى إنسان حرم من عمله لأنه التزم بمبدأ . إننى أرفض أن أكون خروفاً فى قطيع النقابة .

فقال له أشتورن :

هل تفهم أبعاد ماتقول ؟

ـــ أفهمها حق الفهم ... إن العدل قد أفسدته النقابية ، لا أقصد العدل بالمعنى الأوسع العام ، ولكن العدل كما ينفذ ويطبق فى المحاكم . احكم على رجل نقابى بالسجن وستجد نفسك مسئولاً عن إضراب .

هذه وقاحة .

هكذا صاح كاتب المحكمة فى وقاحة ! وقال الرئيس :

هل لنا أن نقول إن قولك غير صحيح ؟

ثم موجها حديثه إلى بف مباشرة :

هل لنا أيضاً أن نكون أكثر تعقلاً ؟ إن القانون مبنى على العقل ، وليس من التعقل أن نعاقبك بغرامة ؛ لأنك لا تملك وسيلة لدفع هذه الغرامة . إن هذه هى أول سابقة ترتكبها أنظر إلى صحيفة سوابقه المأخوذة آليا ، ويبدو لى واضحاً تماماً من سلوكك أن هذه هى أول مرة تدخل فيها المحكمة . ليس من سلطتى أن أرسلك للسجن ، وحتى لو كان من سلطتى ، فلم أكن لأرسلك . فقضاء فترة فى السجن لن يغير من موقفك شيئاً . إنك ـــ على حد قولك ـــ مضطر للسرقة ، والعدل ـــ بالمعنى « الأوسع » ـــ يتطلب تعديل ظروف حياتك بحيث يختفى منها دافع السرقة ويمحى تماما . إنك ستمضى فترة اختبار ، وأعتقد أن مستر هوكس سيتفضل بشرح العملية الاختبارية لـ ..

وقف رجل متلمع أنيق بين الجالسين ، وكان بف قد ظنه مجرد متطفل يتردد على قاعات المحاكم ، ثم ظهر له الآن أنه مسئول من ضمن المسئولين فى المحكمة ، كان نضراً ممتلىء الجسم جميل الملبس متأنقاً وزاهيا بنفسه . قام وقال :

ـــ نعم ياسيادة الرئيس .

ثم ابتسم لبف ، وقال :

لنستبدل بكلمة « اختبار » كلمة « إعادة تأهيل » إذ إنها أكثر توضيحاً للمعنى . هل سمعت عن « عزبة كروفورد » ؟

فقال بف :

لا ... لم أسمع عنها ..

« لم أسمع عنها ، ياسيدى » ..

قالها مستر هوكس لبف متمما له عبارته ، وإن قالها بشيء من الدعابة كأنه يلتمس العذر لبف ، وأردف :

إن عزبة كروفورد مركز إعادة تأهيل أنشأه مجلس نقابات العمال تشترك الخزانة العامة فى تمويله . وهناك سنتيح لك فرصة لإعادة النظر فى موقفك ، ولن نكرهك بأى وسيلة على استئناف حياتك النقابية السابقة . ونحن واثقون — لأننا جربنا هذا وعرفناه — إن دورة إعادة تأهيلك ستكشف لك عن طبيعة « الحقوق » التى يبدو أنك تعتبرها أشياء فرضها الطغيان والظلم بل إننا سنسلك طريق الإقناع حتى أنك بلا شك لن تشعر إلا باللهفة الشديدة لأن نرحب بعودتك إلى صحبة عمال الوطن ... هل لديك ماتود قوله ؟

لن أذهب ..

قالت المساعدة :

لكن لا مفر من ذلك .

لقد قال زميلك لتوه إنه لن يكون هناك إكراه .

فقال هوكس مبتسماً :

لا إكراه خلال عملية إعادة التأهيل . لكن دخولك المركز إجبارى . وعلى كل هل تستطيع أن تنكر أنك انتهكت القانون ؟

فكر بف فى كلامه . لابد أن تكون هناك عقوبة بشكل من الأشكال . دفع غرامة ، الذهاب للسجن ... لقد ارتكبت جريمة يابف ، وقبلت أن تتحمل عواقبها مادامو أمسكوا بك . قال آشتورن .

حسناً ... القضية التالية .

نظر الشرطيان نظرة مفترسة إلى بف وهو يغادر قفص الاتهام بينما ابتسم له مستر هوكس ، فسأله بف بتجهم :

سأذهب الآن ؟

سيستغرق الذهاب ثلاث ساعات . تأخذ قطار الثالثة عشرة والثلث من

تشيرنج كروس ، مركز كروفورد بالضبط على حدود قرية بيرووش فى ساسكس الشرقية . ستكون هناك مواصلات لك ولبقية المجموعة من محطة اتشنجم ، وسيكون فى انتـ ..

قاطعه بف قائلا :

ـــ يالها من فوضى ! فى يوم من الأيام كانت السلطات منفصلة عن بعضها ، أما الآن فإنكم أيها الأوغاد تسيطرون على القضاء وأيضا على الـ ..

ـــ كنت أقول إنه سيكون فى انتظارك خارج المحكمة مستر « بوزى » ، وهو الذى سيقوم بإرشادك .

وفجأة غير هوكس من نغمته وطريقته المهذبة فى الكلام وقال فى صوت خفيض هامس :

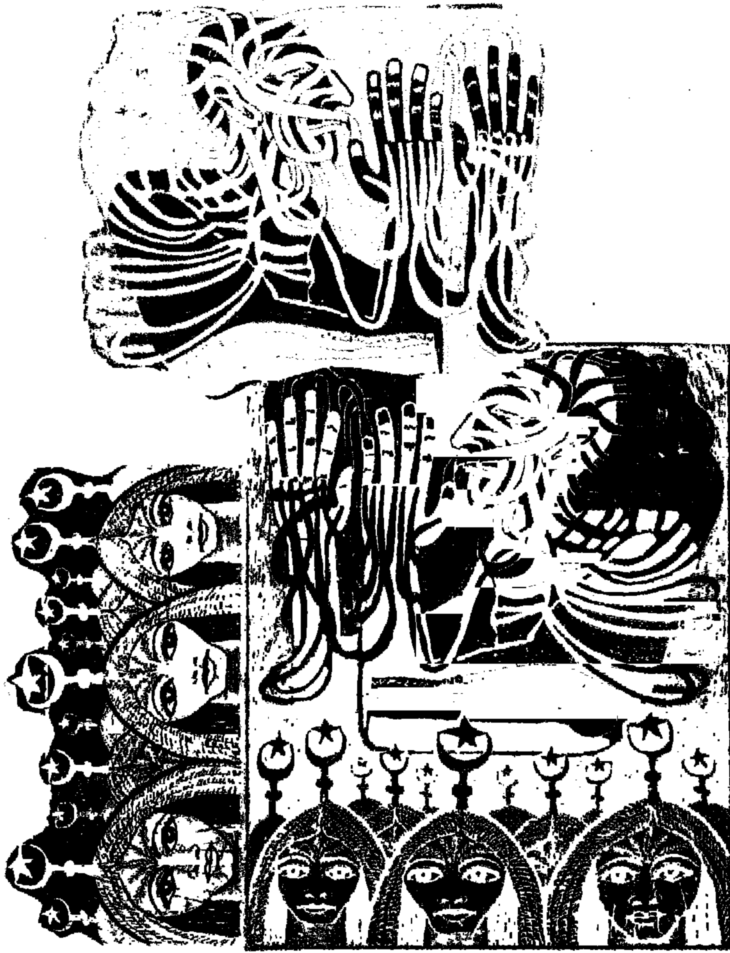
ـــ اعقل يامغفل ... لن تكسب ياولد ... لقد قبضنا عليك ولا تنس هذا .

فرد بف :

ـــ ياملعون ياقذر يا« ...... » .

ـــ نعم ... هكذا أحسن ياشاطر ، فأنت الآن تتكلم مثل العمال ... استمر ياهذا ، واخلع عنك الرداء القذر المناهض للنقابة !





٩ ـ إستعراض من نار

ركب القطار ضمن واحد وعشرين ، بينهم مستر بوزى ... رجل يوحى منظره بأنه مخبر سرى فاشل ، جلس يضع بقبضة يده المرقشة الضخمة مايشبه مسدساً يتحرق شوقا إلى استعماله ... لكنه فى المحطة كان يتثاءب ويحك جسده ، كاشفا بهذا ، ربما عن عمد ، جراباً جلديا تحت سترته ... ومع هذا فقد ارتاب معظم الجالسين فى وجود مسدس بالجراب ، فنحن فى إنجلترا ، حيث المجرمون فقط هم الذين يحملون السلاح ..

كان معظم العشرين من المتعلمين ، وعدد قليل منهم من الشبان صغار السن ، وبعضهم يجلس فى هدوء وبأس ، يتشبث بالمبدأ كشيك بلا رصيد ... ولكن هناك أيضا بعض المتعصبين الدينيين ، بينهم أسكتلندى بارز الجبين ، أخذ على نفسه أن يثير مستر بوزى بدءاً من محطة « تونبردج » ... أخذ يخاطبه بلهجته الاسكتلندية الغامضة :

هل تعرف يا « عربجى » أن كلام الرب مهمل ..

أخذ يلوح بإنجيله على خليفة الله خلف النافذة ، وقد اختفى معظمها خلف المصانع المحطمة والدخان الملوث ، « أليس كذلك ياصانعى الدمار ؟ »

فقال له مستر بوزى :

لا أعرف عم تثرثر ياهذا ... هل تريد قضاء حاجتك ؟ انتظر حتى نصل !

فسبه فيما يبدو بلهجته المحلية ، ثم تحول إلى لغة واضحة عالية النبرة :

ـــ ماأريد أن أقوله ياأخى هو أنك وأمثالك قررتم أن تزيلوا كتاب الله ، وتقولوا إنه لو بعث المسيح اليوم لقاد النجارين فى إضراب .

ـــ لو كنت تريد أن تخطب فى مزايا الانجيل فانتظر حتى نصل إلى حيث نبغى ... أنا مهمتى مجرد توصيلك إلى هناك .

كان معهم شاب من أرياف وسط إنجلترا ... يبدو على جسده الجوع والهزال ، وفى عينيه الواسعتين نظرة شاحبة ... بدأ يغنى نشيد « إلى الامام ياجنود المسيح » ، لم ينضم إليه أحد فقال فى لهجته الريفية الشاكية :

يلقون بنا طعاماً للأسود ... إننا شهداء القرن العشرين ... لم يعقب أحد بشيء . تناول مستر بوزى أقراصاً للحلق ، ولكنه لم يقدم لهم شيئاً ، وبدأ يمضى وحده ، قال الاسكتلندى :

إنكم مثل الحشرة الحقيرة التى تمص الدماء ... أيها الحشرة المقززة التى تسلخ الرأس مثل الهنود الحمر

فقال مستر بوزى وهو يمضى :

احفظ لسانك أيها الأسكتلندى .

توقف القطار فى « تونبردج ويلز » ، فنهض أحد الأعضاء فى معطفه الأسود وقال :

طبعا سننزل هنا ونأخذ قطاراً آخر .

فقال مستر بوزى :

ـــ إجلس مكانك ... لقد سألت من قبل ، لن ننزل هنا .

ـــ هل تأمرنى أن أجلس مكانى ؟

ـــ أنا « أخبرك » فقط !

فقال له وهو ينظر إليه ببرود :

ـــ اعتقد أننى سأنزل مهما يكن الأمر ..

فقال بوزى :

ـــ إذن فحاول النزول ... هيا ... مجرد محاولة ..

ثم تأكد للجميع أن الجراب الجلدى تحت سترته لم يكن لمجرد

الاستعراض . فقد صوب بوزى نحوه مسدساً أسود مشحما من طراز « سوجو ٤٥ » جلس الرجل وسط دهشة الجميع . وقال بوزى :

ــ عليكم جميعاً أن تتذكروا أنكم مجرمون .

فقال بف مدهشاً :

لم أتصور قط أن هذا ممكن . قانون السلاح ! قل لى يابوزى ، أى مخنث أنت ؟

ــ انتبه لما تقول ... اسمى مرتبط بمقبض المسدس .

ــ حسناً .

فقال بف :

ــ أنا لا أقصد بالكلمة سباً أخلاقيا على الإطلاق ... لقد استخدمها الشاعر « كبلنج » فى قصيدته البحرية « الملكيون » ، استخدمها جلالة الملك وبحارته أيضاً . فأنت تخدم القانون وتخدم مجلس النقابات ، تأكيداً للطغيان الواقع ، فى قطار متجه إلى « اتشنجم » .

فقال رجل يرتدى نظارة سوداء :

ــ حينما تصلون إلى « بيروش » سترون كيف صار مسقط رأس شاعر الامبراطورية مركزاً محلياً للكمبيوتر .

فقال مستر بوزى فى قسوة هادئة :

ــ اسمعوا جميعاً ، إننى أؤدى وظيفة ... مفهوم ؟

ونظر إلى مقاعد الجانب الآخر من القطار ليدرك ببصره بقية المجموعة ، حتى أولئك الجالسين فى براءة يقرأون « البريطانيون الأحرار » . ومضى يقول :

وظيفة ... هذا هو ماأعمله ، أؤدى وظيفة .

بدا أنه ليس لديه أى شيء آخر يقوله لهم . وفجأة جاء حارس يرتدى زى عمال القطار ، دخل الطرقة وهو يصيح :

كل واحد يخرج ... القطار لن يسير بعد الآن ... لقد قمنا بإضراب . جلسوا وكلهم شوق ليعرفوا رد فعل مستر بوزى تجاه هذا الموقف . لابد حقاً

أن يكون رد فعله الطبيعي هو « حسنا ياأخى » ، واضح أن يوم « النقابة الجماعية » لم يأت بعد ، فليس من المتوقع أن يكون فعل مستر بوزى هو أن يقوم بإضراب هو نفسه مع بقية أعضاء نقابة (أو جماعة أو أى ماكانت) موظفى الإرشاد . لكن من المؤكد أن رد فعله يجب ألا يكون التقطيب والغيظ .

فقال الرجل الطويل ذو المعطف الأسود ، وهو يقوم مرة ثانية :
اذهب بنا ياأخى إلى حيث تريد .

فقال مستر بوزى للحارس :
ــ هل تعمل التليفونات ؟
ــ تعمل الآن فقط بعد تواتر الأنباء من نقابة المواصلات ، لكنك لو كنت تريد أن تتصل فمن الأفضل أن تضع عملة فى الصندوق .

فقال ذو النظارة السوداء :
كبلنج لم يمت !

قال الحارث :
لكنك لو كنت تريد « أوتوبيسا » أو شيئاً من هذا القبيل فأنت تعرف الوضع مثلى تماماً .

قال مستر بوزى :
ياإلٰهى !
ــ ليست هذه نغمة مؤمن !

هكذا قال الشاب الهزيل القادم من وسط انجلترا ، فأيده الحارس قائلاً :
أنت محق فى هذا ... هيا ، لتخرجوا جميعاً من القطار .

فبدت الخطورة فى ملامح مستر بوزى وهو يأخذ من فى عهدته إلى رصيف القطار ، بدأت السماء تمطر ، ومن بعيد سمعوا صوت الرعد . نطق رجل قصير بدين داكن البشرة لأول مرة منذ رآه بف :
ــ « توز ترروينو توذو زفانونيت ونردوندر ... »

فصرخ فيه مستر بوزى :
ـــ أغلق فمك ... سامع ؟

فتوقف الحارس فى اهتمام وقال :
ـــ أجنبى ، أليس كذلك ؟ ... هل أنتم ذاهبون إلى « العزبة » كما يسمونها ؟ فلو كنتم ذاهبين إلى هناك فيبدو أنكم ستضطرون إلى السير على الأقدام . اجعلهم يسيروا بمحاذاة الخط ... ليس هناك قانون يمنع ذلك ... الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين . فقال رجل أحمر الوجه ، معطفه شديد القذارة ونسخة من « البريطانيون الأحرار » تطل من جيبه ، قال وهو يمزح :
ـــ هيا اصطفوا كلكم فى طابور ، عليكم اللعنة .

وقبل أن يصدر مستر بوزى إليهم أية تعليمات نزلت الفرقة فى فرح وسرور وبدءوا يمشون على شريط القطار متجهين صوب الجنوب ، فصاح فيهم مستر بوزى :
ـــ أنا هنا يا « أوباش » .
ابتسم الحارس لهذا

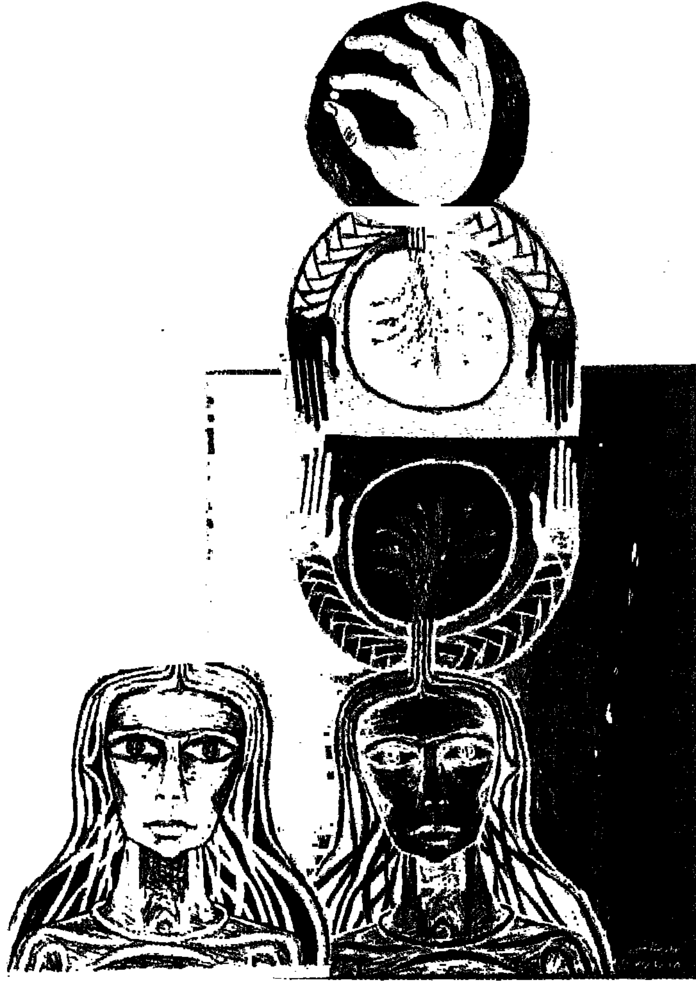
ساروا فى طابور اثنين اثنين ، كان زميل بف فى صفه الرجل الطويل ذا المعطف الأسود . عرف أنه أمين مكتبة سابق بإحدى المقاطعات وأن اسمه ميفلين ... ازدادت الأمطار غزارة ووحشة . وأخذ مستر بوزى يسب ويلعن . وعندما وصلوا إلى « ستونجيت » قال الرجل الأحمرالوجه :
ـــ خمس دقائق راحة بعد كل ساعة من السير ... هذه هى تعليمات الجيش .
ـــ استمر فى السير ... لست فى جيشك النجس الآن !

عندما اقتربوا من « اتشنجم » قال « ميفلين » لبف :
ـــ ما رأيك لو هربنا ؟
ـــ إن معه مسدساً ..
ـــ صحيح ... ولكن دعنا نر هل المسدس معمر بالرصاص أم لا ... الآن اجر .

كان المسدس معمراً ؛ أحس بف بشيء يمرق الهواء بجوار أذنه عاد هو وميفلين من السد الأخضر الذى كانا يحاولان تسلقه ، مخذولين تتلقاهما كلمات مستر بوزى الذى قال فى انفعال :

هل عرفتم الآن ... هل عرفتم أن عبثكم الصبيانى قد انتهى وقته ؟ هل عرفتم الآن من الذى بيده السيطرة الحقيقية ؟





١٠ • عالمان

اتخذ مستر بتيجرو موقفه على مقربة من المدفأة الموجودة بالصالون الذى كان يعرف فيما مضى بصالون يوشع رينولدز . استعرض بعينيه جمهوره البالغ مائة وخمسين ... كانوا جميعا يعرفون قدر مستر بتيجرو العظيم ، فلم يملكوا إلا أن يشعروا بالزهو والفخار رغما عنهم ... فها هو ذا المنظّر الكبير لمجلس النقابات ، والرئيس الدائم للجنة التنفيذية ، يقف أمامهم . نحيف الجسد ، فاتح الشعر كالكتان ، تتدلى خصلة ناصيته كشعر الحصان ، يبدو أصغر من الأربعين سنة التى يبلغها . ابتسم لهم ابتسامة مشرقة وهو يجول فيهم بعينين باهتتين ماسحاً عدسات نظارته فى ربطة عنقه (الحمراء كالدم والمزينة بدوائر ذهبية) . وضع النظارة على عينيه فبدتا جليتين بنظرتيهما الحادة ولونهما الرمادى الصافى . أحس بف أنهما عينان جديرتان بالهيبة والاحترام ... تحدث بتيجرو فى لهجة منمقة تنم عن أستاذيته :

أيها الإخوة ..

ثم ابتسم ورفع كتفه فى رشاقة اسرة ، وقال :

أجد صعوبة فى استخدام كلمة « إخوة » بالإخلاص المطلوب ... « أيتها الأخوات » ... لا لن تؤدى الغرض ، أليس كذلك ؟

(قهقهة وضحك ... يبدو أن البضع والسبعين إمرأة بين الجمهور موافقات على هذا) .

ـــ فتسمية زميلة عاملة « أختا » يبدو بمثابة إعلان عن إلغاء مايسميه أصدقاؤنا الأمريكيون « العلاقة ذات المعنى » ... فقد يتزوج زميل عامل من زميلة عاملة ، فكيف يحل هذا لو اعتبرها « أختا » له ؟! إن أشياء كثيرة يمكن أن تحدث فى

تلك البلد التي يطلق عليها عبثا « تاكلاند » ، لكننى لا أعتقد أن الزواج بين الإخوة أحد هذه الأشياء !

(ضحك) « حذار ... حذار » ، هكذا قال بف فى نفسه ، « لا تضحكوا ولا يخدعنكم كلامه الآسر ، فهذا هو العدو » ..

« لذلك فإننى أقول : سيداتى وسادتى ، وليس هناك مدير مصنع فضولى يقف خلف الجدران ليوبخنى على ماأقول . سيداتى وسادتى ، لقد جمعتم هنا لأنكم أناس غير عاديين ، لعلكم تسمون أنفسكم « فرديين » ممن يضعون الإنسان الفرد قبل هذا الكيان الجمعى المجرد الغريب الذى يسمى « جماعة العمال » ... لقد عرفتم الكفاح ، وعانيتم الألم ، لكن مبدأ الأهمية القصوى لنفس الإنسان الفرد ، مبدأ الحرية الفردية التى يجب ألا يقف فى طريقها شىء ، هذا المبدأ قد قاد معظمكم إلى حالة من الوحدة اليائسة ، وحدة المنبوذين والمجرمين والمتشردين . قادكم إلى إحساس بأن نفوسكم نفوس سوية تصرخ عبر قضبان سجن بناه أناس غير أسوياء ... أعرف هذا الوضع كما لا يعرفه أحد ... إنكم تواجهون محنة إنسانية لا تطاق ، تواجهونها كل يوم من أيامكم ، بل وفى الأحلام المزعجة كل ليلة من لياليكم . وهذا أدهى وأمر . أنا نفسى قد واجهت هذه المحنة ، ربما بشجاعة أقل من شجاعتكم .

« ولكن ما طبيعة هذه المحنة ؟ هاكم الجواب : إن الطبيعة الإنسانية تتوق إلى قيمتين من المستحيل أن يلتقيا ... إن المرء منا ـــ أو « المرءة» إذا استخدمنا المصطلح الذى توصى به حركة تحرير المرأة ـــ لديه ، أو لديها ، رغبة فى الحياة بأسلوبه (ها) الخاص وفى الوقت نفسه بالأسلوب الذى يفرضه المجتمع . هناك إذن عالمان : عالم داخلى وعالم خارجى . وغذاء العالم الداخلى هو الأحلام والرؤى ، وإحدى هذه الرؤى مانسميه بـ « الله » ، النبع المقدس للقيم ، والهدف الأخير لكدح النفس الإنسانية المفردة . وشىء مفيد ، لا بل هو شىء طبيعى وإنسانى ، أن نتشبث بهذا العالم الخاص ، الداخلى ، فبغيره نكون مخلوقات من قش ، مخلوقات تحس بالشقاء وبأن ثمة ماينقصها . ولكن ، ولابد أن أركز على كلمة « ولكن » ، يجب ألا نسمح مطلقاً لهذا العالم الداخلى أن يتعدى على حدود العالم الخارجى . إن التاريخ لملىء بالبؤس والطغيان والجور والألم الذى نتج من

فرض رؤى داخلية معينة على الأغلبية ... ولعل البداية كانت مع « موسى » ، الذى كان لديه رؤيا خاصة لله عند نار لشجيرة تحترق ، وبدأ خلال رؤياه الامتحان الطويل لبنى إسرائيل ، كما حاول سانت بول فرض رؤياه الشخصية لبعث المسيح على عالم بأسره ، وهكذا حاول كالفين ولوثر وسافونا رولا وغيرهم وغيرهم . بل لقد رأينا وقرأنا فى الجانب العلمانى اللاديني عن الأزمة التى سببها فرض مفهوم غامض للدولة على الملايين فى أوروبا ، وملايين آخرين لا حصر لهم فى آسيا .

« هل أفلحت فى أن أوضح فكرتى ؟ إننى ليس لدى أية تحفظات على الرؤى الداخلية ، مادام المرء يتحكم فيها ، مادامت محجوبة عن العالم الخارجى ، ومصونة خلف الأبواب الموصدة . فالعالم الخارجى لا يمكن أن يقبل الرؤيا الداخلية بغير حدوث ألم ، لأن قيم العالم الخارجى مختلفة فى جوهرها عن العالم الداخلى ، حتى إنهما لا يمكن أن يلتقيا ـــ كما لا يمكن للماء والفوسفور أن يلتقيا ـــ بغير أن يحدث حريق خطير . ولعلكم الآن ستسألون : وما قيم العالم الخارجى ؟ إنها قيم بسيطة ، وبساطتها هى الصفة الضرورية لانتشارها إنها تكمن فى الشيء الذى يشترك فيه جميع البشر : حاجتهم إلى الحياة . وهذا يعنى حاجتهم إلى العمل وإلى أن ينالوا أجر هذا العمل . ونحن حينما نتحدث عن « جماعة العمال » أو « دولة العمال » ، فيجب أن نمحو من هذا المصطلح ـــ مااستطعنا ـــ كل مايرتبط به من معان سياسية ساخرة ، أضافها إليه رجال حكم الأقلية الماركسيون . إننا لا نعنى بدولة العمال أكثر من نظام يسمح بانتشار الحق الأساسى للإنسان ـــ الحق فى العمل وفى الحصول على أجر كاف مقابل هذا العمل . ولعل المفهوم نفسه ينطوى على شيء من التناقض ، إذ لو كانت الدولة فى يد العمال لحسم لصالحهم الصراع الطويل من أجل العدل بعد أن آلت إليهم وسائل إقامة العدل . لكن كل يوم يشهد دلائل على استمرار هذا الصراع إلى الأبد . إن التعارض بين صاحب العمل والعامل لهو عقيدة أساسية فى نظامنا . والدولة تصبح شيئاً فشيئاً هى صاحب العمل . إذن ، وبحسبة بسيطة ، يكون ماهو نظرى فى صالح العامل هو فى الحقيقة ضده . أكرر ، إن هذه الازدواجية أساسية ... أساسية لأن وجود قوة محركة أمر أساسى لاستمرار تقدم العمال إلى الأفضل . ولا يمكن أن توجد قوة محركة إلا من خلال الصراع .

« وأظن أنه من الواضح الآن أن هذه الفلسفة البسيطة لحقوق العامل يجب ألا تتطابق مع فلسفة الاشتراكية . صحيح أن الاشتراكية تقف فى صف العمال أكثر من الأسس الفكرية ــ البائدة لحسن الحظ ــ للامتيازات الرأسمالية واغتصاب الحقوق ، أى انها فى الواقع ــ كما تعرفون جميعا ــ حركة العمال ، فأساسها هو إنصاف العامل ، لكن « حركة » الاشتراكية تختلف عن النظام الذى يحكم بالفعل . إن الحكومة الاشتراكية ، خصوصاً الحكومة التى لا معارضة لها فى الحقيقة ، مثل حكومتنا ، قد توقفت عن الكفاح ، ومع هذا فلكى تحافظ على حركتها ، يجب أن تكافح . وهكذا فإن الحكومة تكافح لزيادة إجمالى الإنتاج القومى ، لمنع التضخم ، أى ــ فى الحقيقة ــ لتنظيم سلوك العامل . فالحكومة إذ وهبت نفسها للعمل ، لا تولى العامل ثقة خاصة . ومن ناحية أخرى ، فهناك فلسفة أساسية يشترك فيها كل من « جماعة العمال » و« الدولة الاشتراكية » ، وهذه الفلسفة تضمن بشكل ما تحقيق مبدأ التبسيط والنظر فى الضروريات والتشاور ، أى إشباع كافة المتطلبات الأساسية للعامل عبر جهاز الحكومة . وبالطبع فأنا أعنى بهذه المتطلبات توفير تأمين صحى ، ونظام تعليمى يلبى الحاجة العامة ، ولكنه يتحاشى المطالب الخاصة للعالم الداخلى لدى أصحاب النزعات الفردية مثل حضراتكم ، أيها السيدات والسادة . كما يدخل ضمن هذه المتطلبات بالطبع عمل شبكة للأمن الاجتماعى ، تلك التى قمتم ــ سيداتى وسادتى ــ عن طريق إخفاقكم فى إقامة حواجز منيعة بين العالمين الداخلى والخارجى ، بالانسلاخ عنها بكل استهانة ..

ثم ابتسم وكأنه يقرر وجهة نظر رسمية لا يوافق هو عليها بالضرورة ... ظل على ابتسامته التى أصبحت حالمة وهو يقول :

« ولا شك عندى فى أننا سنرى قريباً زوال الدستور السياسى غير المكتوب الذى كان دائما يعد واحداً من أعظم ما أنجزته بريطانيا بغريزتها . وسيحدث هذا بهدوء وبغير أن يحس أحد ، سيحدث بغير دخان الثورة أو ضوضائها . إن البرلمان ــ كما تعرفون ــ قد أصبح من الشكليات المضيعة للوقت . إننا لا نحتاج إلا إلى هيئة تنفيذية وخدمات مدنية . وجار الآن بالفعل إنشاء كلية سياسية يتم فيها تدريب أعضاء الحكومة أو أعضاء الهيئة التنفيذية فى المستقبل . وهذه الهيئة

ستتطلب ــ من أجل التواصل والاستمرار ــ رئيساً دائماً . وإذا كنتم تعتقدون أن هذا الرئيس هو بيل رمز العمال فأنتم مخطئون . تكفى الملكية ، فهى كيان مستقل عن السياسة ... إن تكريس ولاء العامل البريطانى للعائلة الملكية أمر قديم ، وهذا عن إحساس غريزى بقيمة هذه الهيئة الاسمية التى تقف بمعزل عن السياسيين المحترفين وعالمهم المرهق . إن إخواننا العمال فى أمريكا يتحولون الآن بالفعل ضد المبدأ الجمهورى ، بعد أن رأوا فى الرئاسة مجرد سلطة مطلقة بشعة ليست إلا المحصلة النهائية لصراع قذر من أجل السلطة السياسية ، ومن يعرف ؟ فقد يلغى قريباً « إعلان الاستقلال » ، وتتحد كل شعوب العالم الناطقة بالإنجليزية ــ أو هل لى أن أقول لغة العمال ؟ ــ من جديد ، يجمعها غرض واحد ، وتحت رئيس واحد .

« ولكن كل هذا عن المستقبل ، وأنا أعتذر لكم سيداتى وسادتى عن هذا الاستطراد الذى لا علاقة له بغرضنا الحالى . ولكن ماغرضنا الحالى ؟ ماالهدف الذى نرمى لتحقيقه خلال إقامتهم فى عزبة كروفورد وهى إقامة إجبارية للأسف وكم كنت أتمنى أن تحضروا بإرادتكم ! .

« إننا نرغب فى المقام الأول أن تؤمن قلوبكم بما قد تكون عقولكم على استعداد للاقتناع به . إننا نرغب فى أن تشعروا بالمساواة فى أعماقكم ، مساواة العالم الخارجى ، حيث لا فضل لأحد على آخر ، وحيث ترفض فكرة الرجل غير العادى والمرأة غير العادية . فكرة الهتلر والبونابارت والجنكيز خان ، ولكن لعلكم تسألون . ماذا عن الفنان غير العادى ؟ ماذا عن العالم أو العبقرى ؟ ماذا عن المفكر صاحب الرؤية الجديدة التى تهدد الرؤية القديمة بالفناء ؟ أمثال هؤلاء ــ أؤكد لكم ــ لن يوأدوا عند مولدهم ، لأن مبدأ المساواة يكتسب القوة التى لا يزال يصارع ليحققها . فالفن والفكر والبحث أشياء تنتمى إلى العالم الداخلى « القطاع الخاص » من الحياة . وقد تندفع هذه العبقرية الفذة إلى العالم الخارجى ، عندئذ نقول إننا نرفضها ، ولكن ليس معنى هذا أننا لا نقدرها . لكن التقدير لا ينتمى إلى عالم العمال بل يجب أن يبحث عن تشجيعه الخاص فى العالم الداخلى الذى سعيتم سيداتى وسادتى إلى الخلط بينه وبين العالم الأكبر ... ذلك العالم الذى فكرتم فى رفضه ، ولكنه ــ كما ترون ــ هو الذى رفضكم .

وفجأة تجهم وجهه وارتفع صوته ، حتى رجح بف أنه مجنون ، وصاح فيهم :

ـــ لقد أذنبتم ، نعم ، أذنبتم ... أذنبتم فى حق المساواة ... أذنبتم فى حق الأخوة ..

ـــ ولكن ليس فى حق الحرية ..

نظر بف حوله فى حرج ، ليرى من هذا الذى قاطع المتحدث بهذه الجرأة ، ولدهشته الشديدة وجد أنه هو الذى قاطعه ، سرت همهمة بين الجمهور ... تزايدت الهمهمة ، وكان من الصعب أن يعرف ضد من تسرى هذه الهمهمة . لكن مستر بيتجرو سرعان ماالتقط الكلمة وشد كل الأعين والآذان إلى إيماءاته وعينيه اللتين اتسعتا ، وصاح قائلاً :

ـــ الحرية ! إنك لا تعرف حتى معنى الكلمة ... فقد انسقت وراء شعار أجوف لثورة أجنبية مضللة ، وقبلت بلا تمييز أركانه الثلاثة . لم تستطع أن تدرك أن ركنين من أركانه ـــ الأخوة والمساواة ـــ ينتميان إلى العالم الخارجى ، وأن ركنه الثالث لا معنى له إلا فى العالم الداخلى ... الحرية ! ومن الذى أنكر عليك حريتك ؟ إن الحرية تتبع العالم الخاص ، الذى تكتشفه أولا تكتشفه ، كما تهوى ، العالم الذى تتوقف فيه حتى القوانين الطبيعية لو أحببت أن توقفها . مادخلها إذن بعالم العمل وكسب قوت اليوم ؟ لقد أخترت حرية مستحيلة ، لأنك بحثت عنها فى العالم الخارجى فلم تجد شيئاً غير السجن .

عم المكان صمت رهيب تجنبت العيون فيه أن تنظر إلى بف وكأن مجرد النظرة ستنقل إليهم العدوى . وبسرعة مخيفة هدأ مستر بتيجرو ، وابتسم ابتسامة صبيانية ، وخلع نظارته ومسحها من جديد فى ربطة عنقه . وقال وقد تجلت فى عينيه نظرة غامضة :

ـــ إن استخدام كلمة حرية فى لغة العمال هو الاستخدام الصحيح . بل هو الاستخدام الوحيد ... لقد أعطيت لنفسى حرية لعينة فى الحديث معكم كل هذه المدة .

صدرت شهقة من الجمهور ــ وبخاصة السيدات ــ كأنما صُدِمْنَ من هذه العامية التى لم يبد مستر بتيجرو بأسلوبه الخطابى قادراً على الانحطاط إليها . قال :

ــ لقد قمت بدور مهيج الدهماء الممل ، وأؤكد لكم إن هذا ليس فى الحقيقة موطن القوة فيَّ . أرجو أن تتاح لنا فرص للقاء أثناء وجودكم هنا ونشترك معا فى عوالمنا الداخلية البسعيدة طاب مساؤكم .

قال هذا مرتدياً نظارته من جديد وقد بدت حدة عينيه . ثم مضى فى طريقه يحيط به تصفيق الجماهير ..

لكن بف لم يصفق .





١١ • إنتفاضة تمرد

في عزبة كروفورد حجرات قليلة يمكن ارتياد العوالم الداخلية فيها . وبعض هذه الحجرات مزودة بسرير ويمكن إغلاقها من الداخل . لا يبدو أن هناك أية وسائل للتجسس ، ولا مرئية ولا مسموعة . ومن حقك الاستمتاع بحريتك تماما خلال أوقات الفراغ . (تعلم بف فى أحد دورس لغة العمال التى أعطاها له مستر كويرك خفيف الدم موسوعى المعرفة ، أن كلمتى « فراغ » و « لذة » رغم أنهما ليستا من أصل واحد ، يمكن استخدامهما بنفس المعنى فى « لغة العمال » ، بل الواقع أن كلمة « لذة » قد قضت على الكلمة الأولى ، وذلك لأن نطق الكلمتين فى الإنجليزية البريطانية متشابه ، أما فى « لغة العمال الأمريكية » ، حيث يختلف النطق ، فلم يحدث هذا التماثل ـــ لكن على أية حال فالعمال فى بريطانيا يتحدثون عن التلذذ فى أوقات اللذة ، ومادام هذا هو الاستعمال الشائع ، فلابد من أن يكون هو الاستعمال الصحيح) . وكان بف يتبادل الاستمتاع فى أوقات الفراغ أو اللذة مع فتاة ممتعة فى الثلاثينيات من عمرها اسمها « ميفيس كوتن » . التقى بها فيما مضى حينما كانا يحضران إحدى دورات تدريس التاريخ ، واتفقا وقتها على أن هذه الدورة « كلام فارغ » .

تمددا على الفراش وهما يتنهدان تنهد الإشباع والارتياح واعترف بف لنفسه بأنه فى المرات الخمس أو الست فى هذه الحجرة مع ميفيس قد عرف إشباعاً أكبر من كل حياته الزوجية مع إيلين . نعم لقد عاش مع إيلين عاماً ممتعاً ، وذلك قبل ميلاد بيسى ، لكنه لم يشعر فيه بالنشوة ، بأن العالم كله يلتهب من حوله . بعد ولادة بيسى التى كانت متعسرة ـــ بدأت إلين تنفر حتى من عناقه لها . رغم هذا ظل مخلصا لها ، وإن شعر بالإحباط . قال لنفسه إن الجنس ـــ على كل حال ـــ ليس كل شيء ... أما الآن فقد عرف أنه يعنى الكثير . ومن المفارقات

أنه اكتشف هذا فى مكان مكرس للعالم الخارجى ، عالم الأشياء المجردة الذى لا يعترف بأحاسيس النشوة ولكن لا ، هذا بالطبع ليس من المفارقات ، فراحة الأعصاب هذه أمر متاح للجميع لا طبقية فيه ومع هذا أليس من الممكن أن يكون ثمة « جنس للعمال » على غرار « لغة العمال » ؟ جنس لا يمت بصلة إلى التربية الجنسية أو التسامى بالذات ؟ جنس خشن وعنيف ووحشى ؟ ربما تلقى عليه محاضرة عن هذا قبل انتهاء الدورة . قالت ميفيس :

ـــ أنت « كان » رائع ... « فعلها » كما ينبغى ..

نظر إليها ، مبتسماً ومقطباً معا ... وقال :

ـــ لا أستطيع أبداً أن أعرف إن كنت تمزحين أم لا ... أعنى فى استخدامك للغة العمال !

ـــ نعم ولا ... أنا أيضا لا أعرف . هكذا كان يتحدث أبى ، كان فظيعاً ... لا ينطق حرف الهاء إطلاقاً . من هذا الذى قال إنه من السهل جداً أن تتحول من الطبقة المتوسطة إلى الطبقة العاملة ؟ لن تفقد شيئاً سوى الهاءات !

ـــ جورج أورويل . حارب عمى معه فى إسبانيا ... إيه ! كان هذا منذ خمسين عاماً ! مات أورويل تعيساً فى بامبلونا على ماأذكر ... كان يخطط ـــ كما قال عمى ـــ لتأليف كتاب بعنوان « تحية ولاء لكتالونيا » ، حتى أصيب فى هذه الحرب ... كان عمى يقول أيضا إن لغته مهذبة راقية ..

سألت ميفيس :

ـــ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ـــ ماذا تنوين أنت ؟ هل نجحوا فى إقناعك ؟

فسكتت ميفيس ولم تقل شيئاً . أخذت تعبث بخصلة من شعرها الأسود الحريرى بين أصابعها الرشيقة المتوردة ، ثم قالت :

ـــ نعم ولا ... فأنا أستطيع أن أتخيل نفسى واقفة معهم أعطى محاضرة عن « شهداء تولبدل » ، ناسية كل شىء عن التوسع الامبراطورى وبرونل ومعرض ١٨٥١ ، بل إننى يمكننى أن أسمع نفسى وأنا أعطى هذه المحاضرة بلغة العمال :

« إنهم كان يحارب من أجل حقوقهم ، ولكنهم لم يتركهم يحصل عليها » استطيع بعد ذلك أن أعود للمنزل واستمع لتسجيلات باتروك وأقرأ روايات بروست ... أعود لعالمى الداخلى ..

ــ وعندما تبلى تسجيلات باتروك التى عندك ، من سيطبع لك تسجيلات جديدة ؟ بل من الذى سيعزف لك باتروك ؟ إن العالم الداخلى يحتاج إلى الخارجى ... فالكتب يجب أن تطبع ... أراهن على أنك بحثت طويلاً فى أسوار الكتب القديمة حتى حصلت على عمل من أعمال بروست ... إن القضية كلها مبنية على منطق مغلوط ... ليس هناك إلا عالم واحد ... إنك لو لم تستطيعى أن تلهبى بعض الأطفال فى فصلك حماساً لجيبون ، فمن الذى سيقرؤه بعد ذلك ؟

ــ يمكننى أن أتحول إلى الحديث عن سقوط الامبراطورية الرومانية وأقرأ للأولاد فقرة من جيبون ..

ــ هذا إذا وجدت جيبون أصلاً ، ووقتها سيقبض عليك بتهمة حشر مواد بورجوازية لا علاقة لها بالدرس ، وسيقال لك انتبهى أيتها الأخت ، هذا هو التحذير الثانى لك ... ألا ترين إلى أين تسير الأمور . إن الجامعات ستخسر إعانة الدولة لو لم تتحول إلى متع .

ــ إلى متع ؟ آه م . ت . ع !

ــ ومراكز التكنولوجيا العليا لن يسمح لها أن تعتبر الأدب من التكنولوجيا ــ حتى رغم أنه كذلك . انظرى إلى المؤلفين الآن لا تطبع لهم أعمال ، وقد يقوون كذلك . وعملية توحيد المستوى ستبلغ أقصى مدى ، فلن يسمح حتى بالبراعة التقنية فى الفنون التى تعتمد على العرض العام ، والأولاد « الذى يغنى ويعزف » الجيتار حالهم على أحسن مايكون ، مكسبهم ملايين الجنيهات رغم أنه « يخسرها » كلها فى الضرائب ، ورغم هذا فلم « يتعلم » درساً من أفعالهم اللعينة .

فقالت :

ــ إنك بارع فى هذا الأمر ــ أعنى فى لغة العمال !

ثم استدارت ومالت عليه ، فأحس بأنفاسها الحلوة الدافئة .
نظرت إلى ساعة معصمها ، ثم قالت :
ـــ ياخبر ! الساعة ١٥,٥٥ ، ميعاد الحلقة الدراسية .

قفزت من الفراش ، والتقطت الأوفرول الرسمي الذى وزعوه عليهم عند وصولهم ، بمداعبة أمين المهمات الذى قال وهو يعطيها لهم :
ـــ بعضكم أيها البهائم يبدو ذرياً فى أسماله ، خذوا ، قطعة جميلة من قماش الدينم . مع خالص احترام الدار .

فقال بف :
ـــ وإذا لم يذهب الواحد منا إلى درسه ؟
ـــ إذا لم يذهب ياصاحبى فسوف يأخذ علقة ساخنة فى قبو تحت الأرض ، مع أضواء قوية يحترق بها جسدك اللعين . .

لم تتقنها بعد : لهجتها العامية يفسدها أثر ضئيل من النطق الفصيح الرفيع . لكنها ستتعلم ... نظر إليها بف نظرة يشوبها الحزن ، وقد وضع يديه خلف رأسه ... ستتعلم ... وليست هى الوحيدة ، فغيرها قد تعلم وقضى الأمر ... رجل الدين الأسكتلندى مثلاً . أحضروا له عالما دينياً متمكناً ، جادله باقتدار فأقنعه أن الحواريين الاثنى عشر ما كانوا إلا أول نقابة فى العالم ، وأن المسيح لم يستشهد إلا فى سبيل مبدأ التنظيم الحر ، وأن ملكوت السموات هى « دولة العمال الديموقراطية » .

وهناك أيضاً رجل عجوز علم كل إنسان شيئاً ما ـــ وهذا الرجل كان منشقاً ثم تم إصلاحه ، وأصبح الآن من ضمن الهيئة الدائمة لمركز « إعادة التأهيل » . وقد خطب بلغة العمال خطبة مؤثرة عن معاناته :
لقد قاومت ، أخوتى وأخواتى ، إلى أبعد الحدود ... وبعد ستة شهور من التسول والتشرد والنوم تحت الأسوار ودخول الليمان والخروج منه ، رأيت إننى كنت مغفلاً وأحمق ... كان عندى عمل ، وعمل جيد : مشرف في مكبس مائى ، ولما تركته لم أفعل ماأكسب به رزقاً معقولاً ، والمرتبات كانت تتزايد طوال الوقت ، عرفت هذا من أوراق الجرائد القذرة التى كنت ألتقطها من على

الأرصفة . كنت أضيع عمرى ، والألعن أننى كنت أحرم غيرى من أشياء كان يمكن أن أنفعهم بها ، تستطيعون القول بأننى كنت أبدد موارد المجتمع . واعذرونى لهذه الكلمات الكبيرة ، لكنها هى الكلمات الصحيحة ــ إخوتى وأخواتى ــ ولو كنتم تعرفون كلمات أحسن منها قولوا لى .

« لم أكن أؤمن باتباع صفارة رئيس العمل لكننى بعد ذلك اهتديت . بل وكأننى سمعت صوتا من السماء يقول : « إن يديك هما اللتان تمسكان بالصفارة ، وأنفاسك هى التى تنفخ فيها ، ليس هناك شىء اسمه عامل فرد ... كلكم جسد واحد كبير ... ولا يمكن أن نتصور عضواً من الجسد وقد قرر أن يستقل بنفسه . تخيل أنك تتحرق شوقاً لكأس جميل ، وأنك تكاد تموت من العطش ، وإذا بأصابعك تتمرد ، وترفض أن تدنى الكأس من شفتيك وتقول : لن أتعاون معك ! شىء رهيب ... رهيب » . تلك هى الكلمات التى سمعتها ، أو مايقرب منها . عرفت أنه لم يكن هناك أحد غيرى يدعونى للقيام للعمل ، بل أنا الذى أدعو نفسى بلسان شخص آخر عينته للقيام بالوظيفة نيابة عنى . كنت أحلم بعمال يمشون معا . كانت القوة تنطلق منهم كلهيب النار ... كان هناك زمن تقول الحكومة فيه: « هاها ! عامل حقير ! اسحقوه ، إنه تحت رحمتنا وسيطرتنا ! » لكن الوضع الآن مختلف كل الاختلاف ... إننى أحس أن السيطرة بيدى أنا وزملائى ... ولم أعد أنظر أبداً إلى الوراء » .

خطبة بليغة ومؤثرة ، تماماً كالأفلام التى يعرضونها ، أفلام جيدة التأليف والإخراج تنتجها « تاكفيلم » . وهى كلها أفلام تاريخية تدور حول « الكفاح » ، وتشعل فيك الرغبة فى أن تصرخ فى ثورة ... لكن لا شىء ، لا الأفلام ولا المحاضرات ولا المناقشات التى تدور داخل الجماعة قد اجترأت على تناول النقطة التى تنكر التاريخ كله ، بكل قرونه من الفكر الدينى والإنسانى على حد سواء : حق الإنسان فى أن يعيش بمفرده ، أن يختلف عن الآخرين أن يتمرد ، أن يكون عبقرياً ، أن يتفوق على أخيه الإنسان .

ــ حسناً يا عزيزتى ، سأقوم ..

ارتدى بف زيه ، وعليه شارة مجلس النقابات بترسنها الفضى على أرضية

حمراء رمزاً لدماء العمال ... دس قدمه في الخف الذى سلموه له ، دقت الساعة السادسة عشرة ، فقبلها وقبلته ، وافترقا ، كل إلى درسه .

ــ أعرف ما الذى يدور فى أذهان معظمكم .

هكذا قال مستر فاولر لأفراد مجموعة الاثنى عشر ، الجالسين على حريتهم فى الحجرة التى كان يطلق عليها أيام الملكية الأرستقراطية « الحجرة الزرقاء » . لكنها الآن مطلية بالغراء بلون أصفر داكن ، وأصبحت تغلب عليها البساطة ... حتى إن الأفاريز القديمة المزخرفة على الطراز الباروكى قد أزيلت تماماً ... تابع مستر فاولى حديثه :

ــ لا تزال الفكرة التقليدية تغويكم ، فكرة أن الإنسان حينما يعطى ولاءه كله لجماعة فإنه بذلك ينكر حقوقه بصفته إنساناً ... إنكم فى معظمكم تجاهدون ضد ماتسمونه « فلسفة القطيع » .

ثم ابتسم المستر فاولر ... فهو في الدورس رجل بشوش مبتسم ، أما فى تجواله فى الطرقات خارج الدرس فكثيراً مايقطب ويغمغم لنفسه بالكلام ... ركز ابتسامته على بف وهو يقول :

ــ فعليكم إذن يا أعداء الأغنام أن تقدموا حجة قوية تهزوننا بها نحن الجماعيين ، لكن أحداً منكم لم يفعل ذلك . ألست محقاً يابف ياصاحبى ؟

فشعر بف من عاميته المازحة ، ودمدم قليلاً ثم قال :

ــ أحب أن أتناول هذه القضية من زاوية ربما كانت غير شرعية ..

ــ تناولها من أى زاوية تعجبك يابف ياابنى !

ــ أنت شخصياً يافاولر لست من العمال ، اظنك تنتمى للطبقة المتوسطة ... لعل أباك كان رجل دين ، ونشأتك كانت نشأة الطبقة المتوسطة و ..

فقاطعه قائلاً :

ــ أبى كان مؤمناً بمذهب اللا أدرية ... وكان مراقباً فى بنك ــ لو كان من الضرورى أن تعرف ، وبالنسبة لنشأتى ..

ـــ نشأة الطبقة المتوسطة ... لم تمارس حرفة فى حياتك ... أليس كذلك ؟

ـــ التعليم حرفة ، كما تعرف ، وأدواتها الكتب . وبالنسبة لكلمة « طبقة » فهى مصطلح انتهى زمنه ، فالآن لا يوجد إلا أصحاب العمل والعمال .

ـــ قصدى هو لماذا تضع الأغلبية قبل الفرد ؟ لماذا تتباهى بهذا الإيمان بالمجتمع النقابى بكل هذا الحماس ؟

ـــ لقد شرحت كل هذا من قبل : لأن هذه هى إرادة الأغلبية ؛ وتطلعات الأغلبية هى التى يجب أن يعول عليها فى العصر الحديث ، لأن عبادة الأقلية وقوتها ومصالحها وثقافتها ..

فصاح بف :

ـــ كل هذا أحفظه عن ظهر قلب ... ما أريد معرفته هو : ماذا تستفيد من كل هذا ؟

ـــ لا أستفيد بشىء سوى السعادة التى سأحس بها حينما تتحقق .

ـــ دعك من هذا يافاولر ... إنك لا تحب الأغلبية ... لا تحب البيرة ولا مراهنات كرة القدم ولا التنشين ... لو مكثت فترة فى مصنع من المصانع ستصاب بتلف الأعصاب . قضية العمال لا تهمك قدر أنملة ... ماذا ستستفيد من كل هذا ؟ بل وماذا سيستفيد منه مستر بتيجرو الملعون نفسه ؟!

ـــ ماذا سأستفيد يامستر جونز ؟!

كان ذلك صوت مستر بتيجرو ... تحولت إليه جميع الأنظار ، وهو جالس على كرسى خشبى بسيط بجوار الباب . لقد دخل أثناء الدرس دون أن يشعر به أحد . ولم يحيه مستر فاولر بانحناءة أو إيماءة أو حتى ابتسامة ... التفت بف فى ارتباك ثم قال فى عناء :

ـــ السلطة ..

أحس كأن مفلين أمين المكتبة ، وزميل السفر الآخر ، ذلك الريفى الذى كان يتباكى منذ أسبوعين على الشهادة المسيحية ، أحس كأنهما يتمتمان بشفاههما

« ضيع نفسه ! » أما بقية المجموعة فقد نظر بعضهم لبعض بعيون مترقبة مبتسمة :
« لقد قضى هذا الحقير على نفسه ! »

نهض بتيجرو وتقدم وهو يومىء إلى فاولر إيماءة لطيفة اتخذ مجلسه على أحد الكراسى المريحة العادية ، وقال :

طبعاً ... السلطة ... شىء شديد الوضوح حتى إن الإنسان لا يتكلف مشقة التفكير فيه ... لماذا يحب الناس أن يكونوا مديرى مصانع وزعماء نقابات ورؤساء طوائف ؟ لأنهم يريدون السلطة ... ولكن هاك سؤالاً أكثر تشويقاً لماذا يريد الناس السلطة ؟ هل بإمكانك الإجابة عن هذا يا مستر جونز ؟

ـــ لأن ممارسة السلطة هى أقوى المخدرات وأبعثها على النشوة ... السلطة الجنسية ، سلطة الثروة ، سلطة القدرة على وقف عجلات الصناعة بمجرد إشارة إصبع ، سلطة القدرة على جعل الشعب كله يرتجف من الخوف ، سلطة الابتزاز ، ماذا يهم من أى نوع تكون السلطة ؟ إنها دائماً المخدر القوى الذى يطلب لذاته ، وهو دائماً عوض عن عدم تحقيق شىء أصح منه . تعويض عن فشل القدرة الإبداعية ، أو عن الضعف الجنسى ، أو لأن الواحد قد وجد أمه لا تحبه بما فيه الكفاية ..

فقال بتيجرو :

« الواحد ؟ » حاول أن تتخلص من هذا الضمير غيرالشخصى ، فهو أسوأ ماخلفته اللغة البورجوازية ... قل « لأنك لم تجد أمك تحبك بما فيه الكفاية » .

ثم قال :

ـــ نعم ... نوع من السلطة بدلاً من نوع آخر ... لم تخبرنا بجديد يامستر جونز . فلابد أن تكون هناك قوة محركة . لكنك يجب أن تقر بأن السلطة الممنوحة لزعماء المجتمع الجديد ليست من أجل تدمير الإنسان ... إنها ليست سلطة نازية أو شيوعية ... فليست عندنا معسكرات اعتقال أو غرف إبادة . إن سلطة زعماء الجماعة ماهى إلا سلطة الجماعة نفسها . ولم تستغل هذه السلطة حتى الآن فى أى عمل إلا إذا كان فى صالح الجماعة . إن سلاح الإضراب ، أوضح أسلوب تمارسه السلطة ، قد نجح دائماً ـــ على الأقل فى الأربعين سنة الأخيرة ـــ فى تحسين وضع العامل ... أتقدر أن تنكر هذا ؟

فقال بف :

نعم أقدر . إن هذا التحسين كان كله تحسينا شكليا فى الغالب ... ترتفع الأجور وتتبعها الأسعار ... إنها الحلقة المفرغة ، الشركات الصغيرة لا تستطيع أن تلبى زيادة الأجور أو تنهار لأنها خاضعة للإضراب ولا تستطيع تنفيذ أوامر العمال ، حسناً ، إنها مؤممة ، هناك عملية نقل دم للمال العام . ولكن من أين يأتى هذا المال فى الحقيقة ؟ من زيادة الضرائب التى سرعان ما يضرب ضدها العمال ... إن هذه النقود ليس لها رصيد حقيقى ... إنها مجرد ورق ..

فابتسم مستر فاولر وهو يقول :

كم أنت رجعى يابف ياصاحبى ... إن رأس المال ليس فى النقود ، وإنما فى الموارد ، فى الطاقة ، فى إرادة الإبداع ... المال ليس بشىء على الإطلاق ..

فقال بف وهو يرد الابتسامة :

جميل ... المال ليس بشىء ، وهو مع هذا الشىء الوحيد الذى يهم العمال !

فقال مستر بتيجرو :

ــ استبدل بكلمة « مال » كلمة « استهلاك » وتكون قد قلت كل مايجب أن يقال عن « العالم الخارجى » . نعم ، فالشىء الوحيد الذى يهم العمال هو الاستهلاك ، ومن حقهم أن يستهلكوا ، والدولة النقابية تستخدم سلطتها لتلبى هذا الحق . لقد كانت فرصة العمال للاستهلاك ضئيلة فى تلك العصور التاريخية المجيدة التى منعت من حشو أدمغة الأطفال بها ، والتى يملؤك الحزن لأنك أوقفت عنها .

فقال بف فى مرارة :

ــ استهلاك ! وأى استهلاك ! استهلاك التليفزيونات الملونة والطعام الذى لا مذاق له ولا قيمة غذائية ، قمامات العمال التى تسمى نفسها جرائد والتى تستبدل بالأخبار الصور العارية ، فنانو الكوميديا الرخيصة فى ملاهى العمال ، الأثاث المتداعى والثلاجات التى تفسد لأن أحداً لم يعد يعنى بإتقان عمله ...

استهلاك ... استهلاك ، ولا اعتزاز بالعمل ، ولا رغبة فى الخلق أو البناء أو التطوير ... ليس هناك فن ولا فكر ولا إيمان ولا وطنية ولا ..

فقال مستر فاولر :

ـــ يابف ياصديقى ... إنك تنسى حقيقة بسيطة جداً ، وهى أن أساليب الصناعة الحديثة لا تدع مجالاً للتمتع بالعمل أو الاعتزازية . فيوم العمل عذاب لابد أن تأخذ أجراً مناسباً حتى تخضع له . أجراً مناسباً من ناحية المال ومن ناحية الراحة والمتعة . إن اليوم الحقيقى لا يبدأ إلا حينما ينتهى يوم العمل ، فالعمل شر لابد منه .

فقال بف :

لم يكن هكذا بالنسبة لى ... قد كنت استمتع بعملى ، أقصد عملى كمدرس . أما وظيفتى الأخرى ، ذات الأجر الأكبر ، وظيفتى كعامل يضع البندق فى الشيكولاتة ، فقد كانت لا شىء بالنسبة لى . سلسلة من الحركات البدنية البسيطة ، كان عقلى يحلق فوقها فى أفكارها وتأملاته وأحلامه ... لكن تربية العقول الصغيرة وحشدها بالـ ..

فقاطعه مستر بتيجرو :

حشوها بالهراء والمواد العقيمة والسموم القاتلة ... من الأشرف لك أن تطعمهم بالشوكولاته يامستر جونز ... اسمعنى ياسيدى « بدت كلمة سيدى وكأنها تنذر بسياط من حديد » .

لقد كنت مخطئاً فى استمتاعك بعملك ... حتى الإنجيل يقول إن العمل جحيم : « بعرق جبينك تأكل خبزاً » ، وأنت مازلت فى ضلالك القديم تخلط بين العالمين ..

فصاح بف :

ـــ لا يوجد إلا عالم واحد .

فأومأ برأسه قائلاً :

ـــ العالم الواحد آت ... لكنه ليس العالم الذى يدور بذهنك ، إنها النقابية

الجماعية التى ستحقق الصيحة القديمة التى تهيب بعمال العالم أن يتحدوا . لقد ذكرت الوطنية ، وهى ليس لها ــ بل ولم يكن أبداً لها ــ إلا معنى واحد ، الدفاع عن ممتلكات قطاع من قطاعات البورجوازية الدولية ضد عدو وهمى ؛ لأن العدو الوحيد للعامل هو الطبقة الحاكمة التى أرسلته ليحارب عمالاً آخرين . كان هذا يحدث قديماً يامستر جونز . لقد انتهى عصر الحروب ، ومعه انتهى عصر الزعماء القوميين المؤلهين ، عصر الرؤية الغامضة المفروضة على الناس ، عصر الجنون والاستخفاف بكل شىء ، انتهى ولم يبق له أثر .

فقال بف :

أما عصرنا الذى نعيشه فهو عصر الملل والكآبة ... ترى إلى متى سيستمر ؟ فهو لا يمكن أن يستمر إلى الأبد ... هناك شىء فى الإنسان يتوق إلى الرؤية العظمى ، إلى التغيير والحيرة والألم والإثارة والحيوية . ألم يقل دانتى هذا ؟ « فكر فى أصلك ... إنك لم تخلق لتعيش كالأنعام ، لكن لتبتغى الفضيلة والمعرفة » .

لا أشك فى أنك قرأت دانتى ، قرأته ورفضته لأنه ليس لديه ما يقوله للعمال ... لم يعد الإنسان « حيواناً عاقلاً » ، وإنما « حيواناً عاملاً » ... « كاليبان » شكسبير قضى على « أريل » * !

فتحول بتيجرو إلى المجموعة قائلاً :

أيها السادة (إذ لم يكن بينهم سيدات ، إننى سعيد لأنه قد أتيحت لكم فرصة الاستماع إلى نوع من المنشقين ... من المعقول أنه قد كانت لكم حجج مثل بعض حججه ذات يوم . لقد وصلنا الآن إلى نهاية دورة إعادة التأهيل ... الدورة الجديدة ستبدأ الأسبوع القادم ، بعد إجازة أربعة أيام لهيئة المركز . خلال الأيام القليلة الماضية ، كانت مهمتى هى زيارة مجموعات المناقشات ، أو نقاباتكم ، وسؤالكم أسئلة مباشرة عن تطور أفكاركم . هناك أشياء بسيطة مطلوبة منكم قبل أن تتموا عودتكم إلى عالم العمل ، **أولا** : اختيار وظيفة ، ستكون موظفة العمل عندنا ، مس لورنز ، تحت أمركم ، ومعها قائمة بالوظائف الخالية . **ثانيا** : إصدار البطاقة النقابية الجديدة ، التى تعنى رجوعكم إلى مكانتكم واستئناف المواطنة التاكلاندية . **وثالثاً** : وأخيراً : مطلوب منكم اعتراف علنى ورسمى بخطأ

* إشارة إلى مسرحية وليام شكسبير « العاصفة » .

معتقداتكم . ولعل هذا أساسي لأغراضنا الدعائية . مطلوب أن تتقبلوا من كل قلوبكم مبدأ التوقف عن العمل ، وأن ترفضوا ضلالة حق العمل الفردى .

فقال بف :

ــ إذن فأنت فى الحقيقة تطلب منا أن نقيم فى قلوبنا أخلاقاً جديدة المستشفى تأكلها النار ورجال المطافىء يجلسون فى انتظار ٢٠ جنيها زيادة فى الأجر . نسمع صرخات الموتى ونقول : هذا هو الصواب ، هذا هو النظام ، الأشياء المهمة أولاً !

فصرخ بتيجرو : لا ..

قالها بقوة شديدة حتى رددت القاعة صداها ، وارتدت من الجدار المقابل ملتهمة كل مافى طريقها ومضى يقول :

ــ لا وألف لا ... إننا نرى انهيار مرفق عام ونأسف لأن هذا كان يجب أن يحدث ، نأسف لغباوة الرئيس العام وهو الدولة ، لأنها جعلت الأمر يصل إلى هذه الحال ، لأنها رفضت أن تسمع المطالب العادلة للعمال واضطرتهم إلى أن يستخدموا سلاحهم الأخير الرهيب ... إننا يجب أن نتجاوز نظرتنا الضيقة للواقع ..

فقال بف فى مرارة :

صعب على إنسان هلكت زوجته فى مبنى يحترق أن يصل إلى هذه الرؤية الصوفية .

ــ ومع هذا فقد مرت بك لحظات ، ولحظات قريبة جداً ، قلت فيها لنفسك : إن ماحدث لا يبعث على الندم كلية ..

ــ ماذا تقصد ؟

أحس بف بقلبه يسقط فى قدميه ، وأن الدماء تندفع بقوة إلى أوداجه ، فقال له بتيجرو موجها إليه نظرة قاسية كالفولاذ :

أنت تعرف ماذا أعنى ... من حقنا هنا أن نعرف العوالم الداخلية التى تعيشها ، فأنت ، أولاً وأخيراً ، فى عهدتنا .

ثم التفت إلى بقية المجموعة وقال لهم :

أمنكم من لا يزال فى صدره حرج ؟ لو أحس أحدكم بهذا فليقل بصراحة ..

لم يرد عليه أحد ؛ لأنهم انشغلوا بمشهد أذهلهم جميعاً . فقد رأوا بف يقفز على مستر بتيجرو العظيم ويشبعه لكماً بقبضتى يديه . طارت نظارة بتيجرو وسمعوا رنين زجاجها وهو يتهشم على الأرض . حاول أن ينهض من المقعد الذى ثبته بف عليه ، وهو يلهث وينظر مذعوراً . مضى فاولر ، وقد اختفت ابتسامته إلى ظهر بف ، مظهراً قوة لم يتوقعها أحد من الذين ابتسم لهم . لم يأت أحد ليعاون بف ، لكن رجلين من عمال المعادن كانا من قبل يتسمان بالعناد والتزمت ، جاءا ليساعدا فاولر .

فقال بف بأنفاس متقطعة :

أيها الخونة الملعونون .

وبينما نظر بتيجرو فى كرب إلى زجاج نظارته المهشم ، أخذ فاولر يصلح ربطة عنقه وهو يلهث . قال أحد العاملين :

تعرف أنك مجنون وقذر وحقير ؟

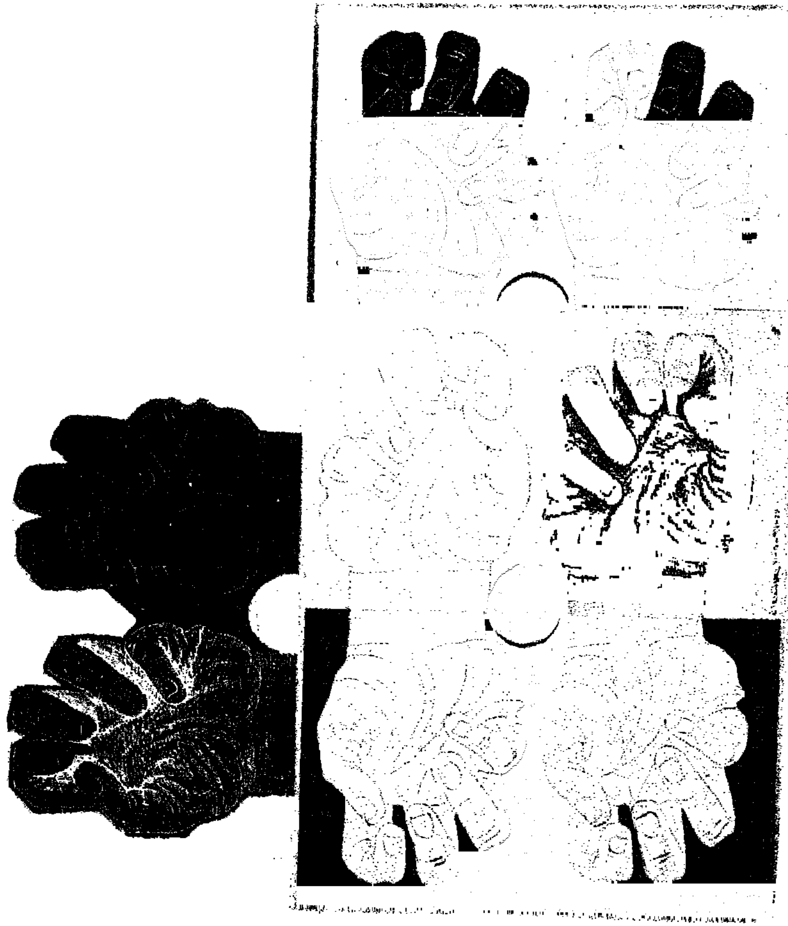
فقال بتيجرو :

لو سمحت يافاولر ، هات لى نظارة من نظاراتى الاحتياطية ... فى الدرج الأيسر بمكتبى .

فمضى فاولر ... حاول بتيجرو بعينين غائمتين أن يركز نظراته على بف وقال :

ــ لعل من الغريب ــ أو من غير الغريب ــ أنك لن تعاقب على ماحدث ، فهذه هى آخر انتفاضة تمرد تبديها . أعتقد أنك ستجد نفسك قد شفيت . أيتها المجموعة : انصراف . سأراكم كلكم غداً .





١٢ • قبضة العمال المتوعدة

تناول بف فى عشاء تلك الليلة وجبة دسمة من السمك المقلى بالدقيق والبيض وشرائح البطاطس والمرق ، والحلو « بودنج » بالزيت يتبعه « كاستارد » . وقدم الشاى كالعادة فى كيزان ثقيلة . أخذ الكل يرمقون بف بنظرات مستغربة ، لا يدرى أى منهم أيؤيد بف فى قتاله ضد بتيجرو أم لا ... فبتيجرو — فى الحقيقة مكروه من الجميع ، لكنه مهاب أيضاً . وبدا البعض وكأنهم يشفقون على بف من سوء المصير ، ناظرين إليه فى تأمل وأسف ، مشعلين السيجارة قبل الأخيرة التى صرفوها لهم هذا اليوم . لم يكن بتيجرو موجوداً على المائدة التى يسميها مازحاً « المائدة العليا » . بعد العشاء دخل السينما مع ميفيس ، فقالت له وهما يدخلان :

كيف استطاع أن يعرف ؟

أخذ بف يصفر فواصل قليلة من أغنية « سمعت طيور الميفيس تغنى » .

قالت ميفيس بسرعة وذكاء :

لا تكن مغفلاً أحمق ... أنا لست مخبرة أو جاسوسة ... هل تعتقد حقا أننى أطوف وأذيع على هيئة المركز أسماء من أنام معهم ؟

— مع كم رجل تنامين ؟

— ليس هذا من شانك .

— أنك طبعاً لست « العاهرة الرسمية » لمركز التأهيل ؟ فصفعته لهذه الكلمة صفعة أليمة على وجهه ثم انصرفت لتجلس مع بعض الفتيات ... فانزوى بف — وهو مازال يحس ألم الصفعة على خده — ليجلس وحيداً بمنأى عن الآخرين ، لكنه لم يكن بمنأى عن نظراتهم الحزينة المتعجبة التى لاحقته قبل أن يسدل الظلام بدار العرض ... انفتح الستار عن شاشة ضخمة حمراء يرفرف عليها

ترس فضى ، مع أول فاصلتين من نشيد « تاكلاند الشجاعة » تتتابعان سريعاً من سماعة مزدوجة ... ثم « تاكفيلم تقدم : غضب الأحياء » ... القصة تقليدية لكن الأسلوب الحديث في التصوير الذى استحدثته المعامل التجريبية « باراماونت » فى السبعينيات يعطيها تأثيراً قوياً ، وهو أسلوب إزالة الحدود السوداء التى تربط بين الأشياء المرئية ، فترى الصور على الشاشة وكأنها فى الحياة الطبيعية ... لعل الموضوع قد اختير خصيصا من أجل بف ، فهو يدور حول مجموعة إطفاء حريق تضرب عن العمل حتى تضمن معدات وظروف عمل أفضل ، فيتابعهم باقى العمال تأييداً لهم ... أما الرؤساء الأشرار الذين كانوا قد رسموا مخططاً لإفساد الإضراب بأية طريقة خلال برنامج للتطوير والتوسيع ، فيشعلون النار فى المخزن الخاص بهم ، بعد أن يتأكدوا أولاً من أن داخل أحد الحمامات الزوجة الشابة الجميلة « لجاك ليثم » أحد المضربين ... لا يصدق أحد هذا حينما يخبرونهم به : خدعة دنيئة من رؤساء العمل ، لا أكثر . يظل المضربون ينظرون للمخزن وهو يحترق ، وعندئذ يسمع جاك صوت زوجته وهى تصرخ وتستغيث : جاك ... جاك ... أنقذنى يا جاك ... ثم يرى شعرها وذراعيها يلوحان من بين لهيب النار ... لكن رفاقه يصدونه : حيلة دنيئة ، لا تنظر ... لا تسمع ... وهكذا يحترق المخزن ويظل الإضراب مستمراً ، وينتصر العمال ... ولكن بين الحطام المتفحم يجد جاك البطاقة الشخصية لزوجته المصنوعة من مادة مقاومة للحريق ... فيعصف به الحزن ويهاجم رفاقه ، فيعترف الرفاق ؛ نعم كنا نعرف ... لكن صوتاً حكيماً هادئاً لرجل مخضرم عاش من أجل القضية يرشده للصواب : القضية محتاجة إلى شهداء ، تصبح قضية مقدسة بدمائهم أو شظاياهم المتفحمة التى تنطلق صوب السماء ... ولكن لماذا الأبرياء ؟ لماذا يجب أن يكون الضحايا من الأبرياء ؟ وترن صرخات جاك بين جدران السينما الأربعة ... غادر بف دار العرض ..

غادر بف دار العرض ، وهو أمر لم يعهد من قبل ... التقى باثنين من الفتوات ، يرتديان زياً رسمياً ... قال أحدهم :

— إيه يارجل ... ألا يعجبك الترفيه الذى نقدمه لك ؟

فقال :

رأيته كله من قبل ... بل إننى عشت أحداثه فى الحقيقة .

تركهما قاصداً عنبر النوم ..
ـــ أحقاً ؟ شيء عجيب ..

هكذا قال الرجل الثانى ، ذو العينين الضيقتين وبلا شفتين ... فقال الأول وهو يعترض طريق بف :
إنك تزيد الطينة بلة ... الطريقة التى تصرفت بها مع مستر بتيجرو لم تعجبنا ، ولم تعجب أى واحد منا هنا ..

فقال بف :
ـــ ومن « أنتم »

فقال الثانى :
ـــ مستر بتيجرو هو الرأس الكبير ... الزعيم .

فقال بف :
عهد الزعماء . انتهى ... هذا عهد المفوضين ، والمندوبين ، والأمناء والرؤساء ... لكن لا زعماء .

فقال الأول :
ـــ بالنسبة لأمثالك يجب أن يكون هناك زعماء ، فأمثالك لا يفهمون إلا هذه اللغة ... امش من هنا .

خالطه شعور من السرور والكآبة ، فهو ـــ رغم كل شيء ـــ مسرور لأن هذه الهيئة تبدى أخيراً الوجه السافر للعنف ، وهذا ماكان يحس دوماً أنهم سيفعلونه . دفعوه بالمرفق إلى مصعد لم يره يستخدم من قبل ... نزل به المصعد إلى أسفل كما توقع ... وحينما توقف انفتح مباشرة على قبو لا تزال به صناديق خمر ، وإن تكن كلها الآن فارغة ... وبه أيضاً مائدة خشبية بسيطة وثلاثة مقاعد ... ضوء مصباح الفلورسنت المستطيل يغمر القبو ، وتحته يقف رجل ثالث ، لا تبدو على ملامحه القسوة ، ينظف أظافره بعود ثقاب ... قال وهو يرفع عينيه لبف بلا حماس ..
ـــ آه ... أهذا هو ؟

ـــ هو يا تشارلى ... هو الذى يقولون عنه إنه رجل متعلم ... سيفعل مايسر مستر بتيجرو ... ويجعل عينيه تغرورقان بدموع الفرح .

دس عود الثقاب فى جيب سترته الأعلى ، ومن جيب بنطلونه العريض أخرج ورقة كبيرة مطوية وقال :

ـــ هذه الورقة لتقرأها ثم توقع عليها ... لكن اقرأها أولاً ... إجلس ياشاطر ، اقرأها بعناية .

جلس بف وقرأ :

« أقر أنا الموقع أدناه أننى بعد دورة عظيمة الفائدة لإعادة التأهيل فى مركز التربية بمجلس نقابات العمال فى عزبة كروفورد بايست سسكس ، قد تم الوصول بى إلى تفهم واضح لحقيقة الأفكار الخاطئة التى كنت أعتنقها من قبل عن أهداف « النقابية البريطانية » وتنظيمها ، وليس عندى أدنى تردد فى أن أعلن هنا خطأ هذه الضلالات ، كما أود أن يكون من المعروف ، علنا لو استدعى الأمر ، أننى من الآن فصاعداً سأكون عضواً متعاوناً بنقابتى ومؤيداً قوياً للمبادىء التى ترمز إليها هى ومثيلاتها من النقابات .

التاريخ **التوقيع** »

لا تعجبنى كثيراً هذه العبارة الأخيرة ... مستر بتيجرو هو الذى كتبها ؟

فقال تشارلى :

إنها بليغة ومنمقة ... قطعة من الأدب الرفيع ... هاك قلماً ... وقدم إليه قلم حبر جاف وهو يقول :

كل ماعليك أن تضع اسمك على الورقة . أما التاريخ فسأدونه بنفسى .

فسأله بف :

هل يحدث هذا مع الجميع ؟ هل يجب أن يأتى كل واحد إلى هنا ليوقع ؟ أم أننى وحدى الذى حظيت بهذا الشرف ؟

فقال تشارلى :

البعض يأتوننا ولكن ليس الكثير . ويبدو أنك الوحيد فى الدورة ٢٣ . أما الباقون فالتقارير عنهم جيدة ... يبدو أنك وغد بحق .

فسأله بف : .

ــ هل ميفيس هى التى قالت لكم هذا ؟

نحن لا نذكر أسماء ، ولو كنت تظن أن هذه هى فكرة مستر بتيجرو فقد اختلط عليك الأمر . إن عمل مستر بتيجرو أرفع مما يحدث فى هذا القبو ، وهو يحزنه أن يخرج إنسان من بين يديه وهو لا يزال وغداً غبياً منغلق الذهن ، وإن لم يقل هو هذا . إن مستر بتيجرو رجل برىء ، تجب حمايته من الجانب الفظ والقاسى من الدنيا . الآن تعرف المطلوب . وقع ياشاطر ، وإلا فأنت تعرف مايحدث . دعنا ننته من الأمر ... هيا ... أليس ذلك أفضل ؟

هزوا رؤوسهم جميعاً فى أسى ، إذ رأوا بف يمزق الوثيقة .

فقال الرجل الذى لا شفاه له :

لدى تشارلى أوراق كثيرة غير هذه ..

فقال تشارلى :

ــ ليست كثيرة إلى هذا الحد . من الأفضل أن تبدأوا يا أولاد ... وبدأوا ... كانوا بارعين فى عملهم فلم يتركوا أثراً على جسده ... رقد بف على أرض القبو وهو يلهث ، محاولاً أن يلتقط أنفاسه ... كل مافى الأمر أن الهواء بدا منعدماً من حوله . فقال تشارلى :

ــ هيا يارجل ... كل المطلوب أن توقع ... افعل ماشئت حينما تخرج من هنا . ولكن أرجوك لا تسىء إلى مستر بتيجرو أكثر مما فعلت .

وجد بف من النفس مايكفيه ليقول :

وسخ !

فقال تشارلى :

ياخبر ! كلمات بذيئة ... لنجرب مرة أخرى ..

فقال الرجل الأول :

هل أحضرت الكماشة يابرت ؟ كماشة الأسنان ... إذ يبدو أن لهذا الصعلوك عدداً كبيراً من الأسنان فى فمه . فقال الآخر :

تركتها فى المبنى العلوى ... هل أذهب وأحضرها ؟

ثم قال لبف :

كنت دائماً استخدمها وأنا فى الشرطة ... إنها تؤلم أكثر من ضرب الأسنان وتترك أثراً أقل .

فقال الآخر :

ـــ لا ... أجلها الآن ... سنرى إلى أين سنصل معه الآن ..

فقال تشارلى :

لعله سيوقع ... تعال ياصديقى ... ضع عقلك فى رأسك .

ـــ وسخ وابن « .... » .

طيب أيها الخنزير القذر الذى لا يقدر الموقف .

أستطيع دائماً أن أرجع عن اعترافى بالخطأ ... هذا ماجال بوضوح فى ذهن بف وهم يشبعونه بالركلات واللكمات ... سأوقع . ولكن لم يحن الوقت بعد . سأنتظر حتى يبدءوا خلع أسنانى . أما هذا فأستطيع أن أصبر عليه . أصبر على أى قدر من ... ثم ملأ ذهنه الاندهاش ... فالأضواء من حوله قد بدأت تذوى . لم يكن أمام ذهنه وقت إلا ليقول : « لا داعى للتوقيع على الإطلاق » ، وذلك قبل أن يغيب ذهنه فى لا شىء .







١٣ ٠ وصمة على جبين النظام

أصبح بف هو المريض الوحيد فى الوحدة العلاجية الصغيرة بالمركز ، بل لقد أصبح تقريباً النزيل الوحيد بالمركز كله ... فقد انتهت دورته ، وعاد الذين تم إصلاحهم إلى العالم ، عالم استئناف العمل والاستهلاك والولاء للنقابية . أما هيئة العاملين بالمركز فقد أخذوا إجازتهم البالغة أربعة أيام . لكنهم خصصوا لبف ممرضا معه رقم تليفون الطبيب . يعد له هذا الممرض وجبات طعام غليظ ، غالباً من اللحم المحفوظ والبصل ، وهو ليس بطعام المرضى . على أن بف لم يعد ـــ فى الحقيقة ـــ مريضاً . فمن حقه أن يخرج غداً عندما تبدأ الدورة الجديدة . لكن مستر بتيجرو لم يكن يحبذ خروجه ، لم يحن الوقت المناسب ، ومستر بتيجرو يعمل طوال الوقت ولا يأخذ إجازات . وكان يلازم بف ، الذى يرتدى « الروب دى شامبر » الذى تسلمه ، طوال اليوم تقريباً لمدة ثلاثة أيام . إما فى العنبر أو فى حجرة الجلوس الصغيرة للمرضى الذين تحسنت حالهم .

وبينما يريد بف أن يعرف منه أخبار التقرير الطبى ، يريد بتيجرو أن يوقع بف على وثيقة التوبة ورفض المعتقدات القديمة .

ـــ أكرر يا بف إنه عثر عليك على الأرض ليلاً وأنت فى حالة إغماء . وكان تشخيص الطبيب المسئول أنها حالة أنيميا طفيفة . أما مستشارنا للطب النفسى فقد اعتبر أن فقدان الوعى ربما يكون نتيجة توتر نفسى عميق ، قد يكون سببه صراعاً بينك وبين نفسك ، وأنا أميل لهذا الرأى الأخير .

ـــ لقد ضُربت ضربا مبرحا ، أريد تسجيل هذه الحقيقة .

ـــ ربما تكون قد ضربت ... أستطيع أن أتفهم تماماً أن بعض ... بعض زملائك الطلبة أرادوا استخدام العنف ضدك . ولكن أن تدعى أن العنف سياسة

متبعة هنا ، رسمياً ، فهذا كذب وافتراء فظيع ، إن العنف ليس سلاحاً عمالياً ، فهو حكر على الرأسمالية والشمولية . وبالإضافة إلى هذا لم تكن هناك أية علامات على جسدك ، إلا تلك التى كان من الواضح أنها نتجت عن ارتطامك أثناء سقوطك بقوة على أرض مسفلتة بالحصى .

فبدا على بف الضجر وهو يقول للمرة العاشرة :

ــ عدم وجود آثار تعذيب دليل قوى على أن العنف عنف محترفين . ولكن كيف تسود حقيقة يؤمن بها إنسان واحد .

ــ يكاد ما تقول يكون حكمة سليمة ؛ كيف يسود إنسان فى أى مجال ؟ إن الحقيقة والفضيلة وبقية القيم لا تستقر إلا فى جماعة . وهذا مايعيدنا إلى موضوعنا الذى لم ينته . أتمنى أن تصبح حراً ، سليماً منصلح الحال . المدرسة العامة ب ١٥ فى جزيرة دوجز فى أشد الحاجة إلى تعيينك بها . بطاقتك النقابية جاهزة ... لا ينقصها غيرالتوقيع ... فأرجوك ... أرجوك وقع ..

ــ لا ..

ــ أنت تعرف العواقب ... أخبرناك عنها بكل صراحة .

فقال بملل شديد :

أعرف ... أنا مجرم لم يتم إصلاحه ... لن تمكننى الحياة إلا إذا عشت كالمجرمين . ولو قبض علىَّ المرة القادمة ، فلن تكون هناك دورة إعادة تأهيل .

فقال بصوت ينذر بالخطر :

ــ المرة القادمة قد تكون قضية حكم مؤبد ، لا أقول « سوف » تكون ، وإنما « قد » تـ ..

فقاطعه بف وقد اتسعت عيناه إنكاراً لما يسمع :

ــ ماذا قلت ؟ أتعنى أننى لو سرقت زجاجة خمر أخرى ، أو حاولت ذلك ــ ياإلهى ! فهذا هو كل مافعلت المرة السابقة : حاولت السرقة ، أتعنى أننى سأعاقب بالسجن مدى الحياة ؟ لا أصدق هذا ... إنها ردة إلى القرن الثامن عشر .

ــ فى القرن الثامن عشر كان يمكن أن يتم إعدامك لسرقة رغيف خبز ، لا زجاجة خمر .

ـــ الخمر كانت رخيصة وقتها .

قالها بف بلهجة المدرس التى لا يمكن أن يقتلها فيه حتى الموت الوشيك ... ثم أضاف :

ـــ تسكر ببنس ، تسكر حتى الثمالة ببنسين ... وتدخل السجن للاشيء !

ـــ لم يكن أحد وقتها يأسف على الإعدام ... لسنا الآن فى عصر التنوير المزعوم .

ـــ بالقطع لسنا فيه ، فـ « الظلام التام يغشى كل شيء » .

ـــ يجب أن تعرف أن مفهوم الأشغال الشاقة قد تغير تغيراً جذرياً فى السنوات العشر الأخيرة . فالسجن مع الأشغال الشاقة أمر غير مسموح به فى مجلس النقابات ، لأن الأشغال من أى نوع تستتبع التمثيل النقابى ، ولا يمكننا أن نسمح بتحويل السجون إلى مصانع للعمل بالسخرة . على العموم ، ليس عندنا الآن إلا نوع واحد من أنواع الحبس .

ـــ تقصد الحبس الانفرادى ؟ الحبس الانفرادى مدى الحياة ؟

ـــ لا ... لا ، فمجلس النقابات لا يسمح بمثل هذه العقوبة الوحشية . فلأقلها لك بهذه الطريقة : إن الفرق بين مكان السجن العقابى والمصحة العقلية لابد ـــ بالضرورة ـــ أن يتضاءل تدريجياً ، الأمر الذى يمثل تطويراً بالنسبة لأوضاع الحبس الإجبارى . ليس قصدى أن تتحول المصحات العقلية إلى سجون ، ولكن العكس هو الذى يحدث . هذا ـــ كما ترى ـــ هو لابد من حدوثه .

نظر إليه بف بعينين متسعتين من الهلع ... استمرت نظرته مالا يقل عن خمس ثوان :

ـــ البيمارستان ؟ مستشفى المجانين ؟ مستحيل لابد أن تثبتوا أننى مجنون .

ـــ وهل من الصعوبة فى مثل حالتك إثبات الجنون ؟ إنك معتاد للإجرام ، تجرى النزعة الإجرامية فى عروقك ولا أمل فى إصلاحك ، كما أنك خطر على المجتمع ... تقبل على الإجرام وهو جنون ، وترفض العمل وهو العقل .

فقال بصوت خفيض :

إننى أرفض الجنون ؛ لأن العمل فى دولتك النقابية جنون .

من حقى أن أعيش تبعا لفلسفتى الخاصة الغريبة عليكم ..

ــ إذن فأنت معترف بالغرابة والشذوذ ؟ طبعاً لابد من ذلك . فالفجوة بين الغرابة والجنون يمكن تخطيها بسهولة . أما عن أعراض جنون العظمة والانفصال وحالات الشلل العام المميزة للجنون فهذا ماستصير إليه ذات يوم يا بف ، وفكر فى قولى . لا نقول حكماً مؤبداً لأسباب عقابية قانونية ، ولكن لأنه من المستحيل تحديد الوقت بلغة الحكم القضائى ... كلمة « مؤبد » هنا تعنى « إلى أجل غير مسمى » ، أى حتى يأتى إنسان يظن أنك تستحق أن تبدأ الإجراءات البيروقراطية الطويلة لإطلاق سراحك على أساس أنه ستكون هناك رعاية وعناية أسرية كافية ، و « المؤبد » لا تعنى إلى الأبد ولكننا اخترناها لعدم وجود فترة حبس يقبلها العقل أقصر منها . فالأمر كله يتوقف على وجود إنسان ما وعنايته بك . الدولة لن تعنى بك ، مجلس النقابات لن يعنى بك ، لماذا تعنى هيئة بإنسان أخرج نفسه بمحض إرادته من حمايتها وحضنها الرءوم ؟ أما بالنسبة للأسرة ، فليست لك أسرة .

ــ لدى ابنة ..

ــ لديك ابنه ــ إليزابيث أوبيسى ــ إنها تمثل مشكلة أخرى . فمعاهد الدولة للأطفال المحتاجين إلى الرعاية والحماية مزدحمة للأسف . ولشدة حاجتها إلى الأماكن الخالية ، فلابد من مراعاة قائمة صارمة من الأولويات . ويبدو أنه قد حدث خطأ فى الوثائق التى قدمتها لقبول ابنتك فى « معهد الأطفال ج ٧ » فى ازلنجتون ، فمن الواضح إنك قلت مامعناه إنك أصبحت بحالة من الاضطراب بعد وفاة زوجتك وأنك غير قادر على رعاية طفلتك . وكان مفهوماً بطبيعة الحال أن الترتيبات ستكون مؤقتة . ولم يكونوا يدركون أنك قررت الخروج من النقابة والانضمام للمتسولين والمتشردين والمجرمين . إنك لست من العاطلين الشرعيين ، ولا حق لك فى الخدمات الخيرية لنظام معاهد الأطفال . لابد أن تغادر ابنتك المعهد ، يمكنها طبعاً أن تلازمك فى يأسك ووحدتك ، ولكن تعريض طفل لهذا الموقف جريمة فى حد ذاته . وقع يابف . انضم لصحبة العمال . درّس مايجب أن تدرس ، وخذ أجرك عليه ... نظم فصولاً مسائية حرة فى تاريخ « عصر النهضة » و « الإصلاح » ، اعقل ووقع .

كانت الوثيقة والقلم جاهزين معه . قلم فاخر جذاب ... أنبوبة حبر متينة

من الطراز القديم ، والسن قوية ذهبية منداة بالسواد . قال لبف :

ــ لا ..

سيطر بتيجرو على أعصابه وقال :

عموماً ... إن غداً لناظره قريب ... أمامك فرصة حتى غد ، وهناك شيء آخر ، المسئول الطبى يقول أنك لابد أن تعنى بقلبك ، فحالة قلبك أزعجته حينما سمعه ، إنك غير قادر على مواكبة ضغوط حياة المنبوذين ، يمكنك أن ترتدى ماشئت من ثيابك صباح غد وتحضر لمقابلتى فى مكتبى الساعة التاسعة . سأدعو لك إن نفع الدعاء ، أن يتنزل عليك بالليل ملك حكيم يصلح به حالك !

ثم نهض ... أنيقا فى زيه من التويد ــ إذ إننا فى الريف على كل حال ــ وثبت نظارته وأرجع خصلة شعره الأمامية إلى الوراء قبل أن يهز رأسه هزة وداع حزينة . فقال بف :

بما أنه من المحتمل أن أعود للعالم الخارجى ، فهل من الممكن أن أعرف أخباراً عنه ؟ لقد تم ترحيلنا منذ ..

ــ إضراب وسائل الإعلام مازال سارياً ، وهم على حق فى هذا . ثم إنك لا تحتاج إلى أية معلومات خارجية ، لديك مايكفيك تلك الليلة بدون أن تقرأ قصاصات الورق أو تحملق ببلاهة فى الصندوق المسمى بالتليفزيون ... فكر هذه الليلة يارجل ... فكر ... فكر .

ثم غادر الحجرة .

لم يفكر بف ... فقط غرق ذهنه فى الاحتمالات المختلفة للمستقبل . إنه واثق كل الثقة من إنه لن يستسلم ، حتى ولو حدث أسوأ ما يمكن حدوثه ، ففى لندن متسع لكثير من طرق الانتحار المسرحية ، سيموت شهيداً ، ولكن ماذا عن المسكينة بيسى ؟

تقلب أرقاً أكثر الليل ، لكن مرت عليه فترة قصيرة من النوم العميق ، حلم فيها ــ رغم متاعبه وآلامه ــ بملائكة تنفخ أبواقاً فوق المدينة (بالطبع بيتجرو هو الذى وضع فكرة الملائكة فى ذهنه) ، ثم سمع صوتا يصيح « قامت المملكة ! » ورأى عمالاً يرتدون ملابس غريبة يهوون بالفئوس على البراميل فتتدفق منها السوائل الذهبية لتسيل مزبدة إلى البالعوات بالشوارع . ورأى رايات عليها

كتابات لم يستطع قراءتها ترفرف أعلى المبانى الشاهقة ... وعن بعد أتاه صوت مرعد لفرسان على خيلهم ، ثم أخذ صوت الحوافر المكتوم يتقارب ، وإن ظل الفرسان غائبين عن بصره ، ورأى إلين كما هى لم تصب بسوء وهى تصيح « إنهم قادمون ، ولكن بحق القدير لا تدعهم يفلتون من العقاب » . ثم تعالى صوت الحوافر فأصبح يصم الآذان . وأصبحت السماء صفراء بعد أن كانت حمراء بلون الدم . واستيقظ بف وهو يتصبب عرقا ..

الساعة حوالى السابعة صباحاً ، كما يبدو من الضوء ... نهض واغتسل وحلق ذقنه بالموس الذى استلمه — ثم ارتدى ملابسه القديمة وحذاءه وغادر مستشفى المركز حاملاً معطفه البالى على ذراعية ... سار عبر الدهاليز ونزل السلم المؤدى إلى قاعة الطعام ... فى شرود غالبه الحزن على الحالة التى انحطت إليها هذه العزبة التى أقيمت فى القرن الثامن عشر ... أى لمسة جمال فى خط أو بناء تبقت جدار أو عمود أو منحنى سلم قد طمست بكل همجية ، وأزيلت معالمها بالدهان الأصفر والملصقات وفرش الأرضية الرخيص ، أو بنقش طوله ثلاثة أمتار لـ « بيل رمز العمال » ... كل هذا الجمال ، وكل هذه الممتلكات الرفيعة لعائلة كروفورد التى خربتها الضرائب — كل هذا ذهب أدراجَ الرياح ، وبيع إما للأمريكيين أو للعرب . لا مجال هنا للجمال ، لأن الجمال كان دائماً حكراً على الأقليات ... إن بينجرو وأمثاله يتفقون على الأقل على مبدأ واحد : يجب ألا يبقى أثر لماضى الظلم والامتيازات ، رغم أنهم بهذا يعلمون أنهم يبترون جزءاً من جسدهم ، لأنهم يعرفون معنى الامتيازات ، وبالتالى فلابد أن يعرفوا أن القيم الروحية والخيالية التى بدءوا فى تصفيتها (كل هذا الهراء عن العالم الداخلى !) هى خير مايمثل الحياة الإنسانية . إنه شذوذ ، حب تعذيب ورغبة فى الموت من الألم . أولئك الذين يملكون الذوق والفكر وبالتالى يعرفون أنهما القيمة المطلقة ، هم أول الصارخين برفضهما ... إن أمثال هؤلاء يعميهم التعصب ، أمثال هؤلاء ينذرون بالخطر ... أحس فى أعماقه وهو يتجه لصالة الطعام أنهم سيطاردونه للنهاية ، وأن الذين يطاردونه سيكونون من أمثال بينجرو .

حينما دخل الصالة ، كانت مائدتان قد شغلتا بمن بكروا من أفراد دورة إعادة التأهيل الجديدة ... وبينما كان يملأ صينية على النضد بالشاى والزبادى

والزبدة والتوست الأبيض كالبَرَص ، رأى مستر بوزى الذى كان مرشداً له فى رحلته يحتسى الشاى منتظراً قلى ثلاث بيضات ليأكلهن طازجات ... عرفه مستر بوزى ورمقه بنظرة عابسة :

هل قوموك ؟ أأصبحت الآن رجلاً صالحاً ؟

فأجابه :

ـــ اذهب يا « .... » ، اغرس مسدسك فى إبطك النتن واضغط على الزناد أيها اللقيط ..

دمدم مستر بوزى غاضباً ، أخذ بف يبحث عن مكان شاغر ، فوجد مستر رينولدز يبتسم له . جلس إلى جواره ، فقال رينولدز :

نعم ... لقد قلت لنفسى إن هذا لابد أنه قد حدث لك . فهذا يحدث لكل إنسان ـــ كما قيل لى ـــ إن عاجلاً أو آجلاً . هل غيرت فكرك ؟

ـــ لا ... لماذا قبضوا عليك ؟

ـــ سرقت فخذ خنزير بأكمله ... وأكلت كثيراً من لحمه أيضاً ، مع بعض زملائنا فى الجماعة ... ثم جاءوا من مخزن البقالة مع البوليس وهم يقولون : هذا هو الرجل ! هل الحياة هنا حلوة ؟

ـــ كثيرون يغيرون عقيدتهم . كن على حذر .

ـــ عقاقير فى الشاى ... وسائل ترغيب ... تعذيب .

ـــ أنا شخصياً عذبونى ..

شحب رينولدز حتى صار وجهه كصفار البيض الذى يأكله . فأضاف بف :

ـــ لكننى سأغادر المكان كما جئت إليه .

أومأ رينولدز برأسه ثم قال :

ـــ هل تتذكر صديقى الأسمر الصغير تريفور ؟ أمى أو شبه أمى لكنه شديد الصرامة فيما يتعلق بحقوق الإنسان ... المهم أنه انضم إلى « الجيش الحر » ، هلّ علينا مرة وفى يديه تتلألأ زجاجة خمر « مشتراة » بأول راتب شهرى له ... رجل كريم ... سعيد لا يحمل هماً ... قال : « إنه ليس جيشاً بمعنى الكلمة ... إننا لا نحمل أسلحة » . فى رأيى أنها منظمة بارعة ، لا يمكن وضعها بسهولة تحت طائلة العقاب . بل إنك لا تستطيع أن تسمى مايلبسونه « زيا رسميا » ؛ بل

هو فى الحقيقة أقرب إلى البذلة الأنيقة ، خضراء لها حزام ، وعلى ياقتها شارة صفراء لامعة ... أعتقد أن اللون الأخضر يرمز لإنجلترا ، و ..

ـــ والأصفر للإسلام .

هكذا قاطعه بف ثم أردف :

يبدو أنك مهتم بالأمر ... هل فكرت فى الانضمام إليهم ؟

ـــ يا ولدى العزيز ... فى سنى ومع التهاب المفاصل الذى أعانى منه ..

كم تبلغ من العمر بالمناسبة ؟

ـــ ٣٨ عاماً فى فبراير ..

ـــ فكر فى الأمر ... إنهم فى حاجة إلى معلمين ـــ كما يقولون ـــ ولكن ماذا يعلمون ؟ الله أعلم ... حِرفاً كما فهمت ، كان تريفور يعمل بناء ، « مهندساً يارجل » ، كما كان يقول ، فى زهو طبعاً . وقع الكلمة أفضل من « مساعد بناء على الدرجة الثالثة » على أية حال . ربما يحتاجون إلى دروس فى التاريخ ... ألم تكن مدرس تاريخ ؟ انتظر ..

ثم أخرج من بذلته البنية المهترئة نسخة مطبقة عن « البريطانيون الأحرار » ، وقال :

كل إنسان يقرأها ... لا يوجد شىء غيرها يقرأه الناس . عرفت إنهم يذيعون برامج للراديو والتليفزيون أيضاً . أناس مروعون . فى هذه الجريدة ستجد عناوين وأرقام تليفونات ... التليفونات لا تعمل الآن طبعاً ... لكن القطارات بدأت فى الوقت المناسب لرحلتنا هنا ... ياللفوضى التى تصم كل شىء !

فسأل بف :

معك نقود

نظر إليه نظرة جادة وقال :

ـــ ليس هنا ... هل ممنوع الذهاب لدورة المياه بلا حرس ؟

وفى دورة المياه ناوله رينولدز ثلاثين جنيها وهو يقول :

جريمة صغيرة لم تكتشف ، حتى بعد تفتيش رجال الشرطة . فهم نادراً ماينظرون داخل الجوارب ... غير أنى شعرت ببعض الأسف بعد هذه الجريمة ،

فقد كانت سيدة مسنة خارجة من أحد المصارف . ومع هذا فهم الذين دفعونا دفعاً لهذا ... الخنازير ... آسف لأننى ليس لدى المزيد من النقود ... فهذا المبلغ لن يكفيك لفترة طويلة .

وبثقة بالغة ، ذهب بف فى تمام التاسعة إلى مكتب مستر بيتجرو ... لا ... لن يجوع يوماً أو يومين ، سيفكر فى الانضام للبريطانيين الأحرار ... قبل أن يتفوه بيتجرو بكلمة ... بادره بف :

لا ... لن أوقع ..

مكتب بيتجرو الصغير يشبه حجرة لقاءات فى كنيسة ، وإن لم يكن على جدارها صليب أو فى جوها رائحة ثوب كاهن عفنة . قال بيتجرو :

أحياناً نمنح إعفاء خاصاً . فمرحباً بك إذا تقدمت للدورة مرة ثانية ... مس ميفيس كوتن ستساعدك فى هذه الحالة ، فهى فى الحقيقة تبدو مغرمة بـ ..

ــ لا .

ــ حسناً ..

ثم نهض من مقعده ليلقى بالتهديد :

كم أود أن تحل عليك اللعنة ، لو كانت هناك لعنة . لقد فعلنا من أجلك كل ماوسعنا ، على ميزان الحمام هذا الصباح لاحظت أننى فقدت عدة هكتوجرامات ، كما أن شهيتى فى هبوط . فى حياتى لم ألق مثل هذا العناد الفظيع .

ــ هل لى الحق فى تصريح سفر .

ــ ليس هذا من شأنى . إذهب وقابل مس لورنز وخذ تصريح السفر وامض حيث شئت . لا تدعنى أر وجهك بعد ذلك أبداً . إنك وصمة فى جبين النظام ، آفة ... سيأتيك الموت قريباً جداً ، تأكد من ذلك . لقد فصلت نفسك عن تيار الدم الجارى فى الجماعة ، ولابد أن تسقط عن جسدها الواحد ، كقطعة من اللحم النتن الميت ... إننى أكاد أشم نتانتها من هنا ... اغرب عنى ، ياقطعة من الموت .

ــ أنت مجنون يابيتجرو ... إنك تتنبأ بنهايتى ، فدعنى أتنبأ بنهايتك ونهاية النظام الذى صنعته أنت وأمثالك ..

ــ اخرج فوراً ... اخرج حالاً ... وإلا أحضرت لك من يقذف بك .

ــ ستواجه الحقيقة ذات يوم يابيتجرو ... حقيقة أنكم لن تجدوا مزيداً من البضائع لتستهلكوا ، ولا مزيداً من الوقود لتحرقوا ، ولا مزيداً من المال لتضخموا ، حقيقة عودة العقل للعمال أنفسهم ، الذين يعرفون فى أعماقهم أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر ... حقيقة الغزاة الذين سينشرون بجنونهم تعصباً أكثر من تعصبكم ... لو أننى سأموت فإننى أقول : ليكن مايكون ، لكنك تؤمن أن الموت فى الحقيقة حياة .

فصاح بيتجرو صارخاً :

تشارلى ... فيل ... أرنولد ..

لم يكن هناك داع لهذا الصراخ ، فإصبعه ضاغط على زر بمكتبه الخاوى ، فقال بف مبتسماً :

آه ... السفاحون قادمون ... لقد انتهيت من حديثى يابيتجرو ... أنا خارج ..

ــ انتهيت من حديثك ؟ لا ... بل انتهيت أنت نفسك ... انتهيت وضعت وقضى أمرك ..

خرج بف فى الوقت الذى بدأ فيه « السفاحون » فى الدخول ... أومأ إليه تشارلى فى غير حقد أو ضغينة وهو يقول :

ــ ألم توقع بعد ؟

ــ لم أوقع بعد ... يبدو أن مستر بيتجرو فى حاجة إليك ... نوبة بسيطة من نوبات الهيستيريا .

ثم اندفع خارجاً ليحصل على تصريح السفر .

ملأ رئتيه بأنفاس عميقة من هواء يناير الطلق بعد خروجه من عزبة كروفورد . سار برشاقة وسرعة حتى وصل إلى بيتمنز ، المنزل القديم للشاعر كبليخ ، الذى أصبح مركزاً لعلم « السيبرنتيقا » ، وهو علم التحكم فى الاتصالات . على أن البعض لا يزال يذكر الشاعر ، لأن هناك ما يشبه منبر جانبى قرب المدخل تماماً ، مكتوباً عليه سطران من شعر كبلنج :

« حين يكون وحيداً ينهره الناس : أهذا أنت ؟ابعد
ياهذا عنا ! لكن ماإن تبدأ فرقته فى العزف ، حتى
ينهال عليه المدح ... »

سار موغلاً في قرية بيرووش ، ليأخذ أوتوبيسا إلى محطة أتشنجم . ولثلاث ساعات أخرى لم يأت أى أتوبيس . أخذ يلوح بإبهامه إلى السيارات العابرة التى كانت قليلة العدد بعد أن صارت أسعار البنزين إلى ماهى عليه . أخيراً وقفت له سيارة « سبيفاك » خضراء ... أطل منها سائقها النحيف وهو يقول :

ـــ إلى أين ؟
ـــ إلى لندن
ـــ أين فى لندن ؟
ـــ أى مكان ..

أدرك أنه لا يدرى حقيقة أى مكان يقصد فى لندن ... ربما كان يريد الذهاب لإبنته فى إزلنجتون ... لكن هذا شيء لم يحن أوانه .

ـــ إركب .
ـــ شكراً .

كان السائق النحيف يقود بمهارة ... من الصعب تحديد أصله أو جنسيته : أرمنى ؟ يونانى ؟ من أحد الشعوب المغمورة بشمال الهند ؟ لكن السائق هو الذى بادره بالسؤال :

ـــ منشق من الذين يعالجونهم فى العزبة ؟
ـــ بالضبط ... ومازال منشقاً .
ـــ ما حرفتك ـــ أو مهنتك ؟
ـــ عامل فى مصنع حلويات ... قبل هذا كنت مدرساً .

تفكر الرجل فيما سمع ، ثم قال فى النهاية :

ـــ والوضع الحالى لا يرضيك ...لست الوحيد الذى لا يرضى عن الوضع ، فهو وضع يجب أن يتغير من أساسه .

لهجته أيضاً صعبة التحديد ... حادة وأرستقراطية ... لكنه ينطق الواو بلكنة أجنبية قد تكون من أى مكان فى العالم . أردف الرجل قائلاً :

ـــ وأعتقد أنك ستشهد هذا التغيير قريباً ... إنه تغيير رهيب ..

فسأله بف :

ـــ وما حرفتك أنت ؟ أو ، بالطبع ، مهنتك ؟

ـــ أعمل مع شركة بيفيز للمقاولات . إننا متخصصون فى بناء المساجد ... لقد بنيت مساجد فى جميع أنحاء العالم ، ومنها ذلك المسجد المقام على طريق « كونسيليا تسونى » فى روما ... أتعرف روما ؟

ـــ للأسف لم تتح لى ظروفى زيارتها .

ـــ روما لا تستحق الزيارة ... ليس الآن ... هناك تجد الإفلاس على حقيقته ... الآن أعمل فى تشييد مشروع شارع جريت سميث .

فقال له بف بالعربية :

ـــ آه ... « مسجد الحرم » ؟

ـــ أتتكلم العربية ؟

فأجاب ـــ باللغة العربية أيضاً :

« لا ... ماهى جنسيتك ؟ » .

فضحك الرجل ضحكة خفيفة ثم قال :

ـــ تقول لى إنك لا تتحدث العربية ثم تسألنى باللغة العربية عن جنسيتى ؟ تستطيع أن تقول إننى « إسلامى » الجنسية ... فالإسلام هو وطنى ، تماماً كما أن تاكلاند هى وطنك ... إن الأفكار والمعتقدات تصنع الأوطان ، والفرق بين الإسلام والدول المادية النقابية هو الفرق بين « الله » و زجاجة « بيرة » هل صدمك قولى ؟

ـــ لا ... أبداً

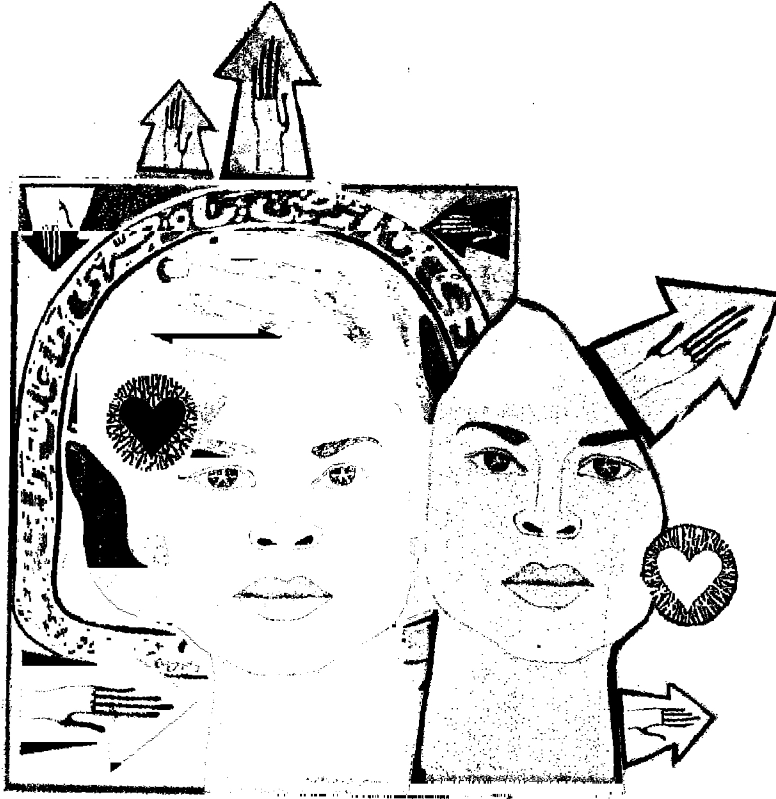
أحس بف أنه يجتر الحلم الذى رآه ... قال الرجل :

رأيتك ترتجف ... بردان هل أدير لك جهاز التدفئة ؟

ـــ لا لا ... شكراً ... لكنك تحدثت عن تغيير رهيب ... فقط جاء رد فعلى متأخراً ..

أنا أيضاً تصيبنى رجفة حينما أفكر فى هذا التغيير . لكن رجفتى هذه ليست من أجل نفسى ... لا لا ... ليست من أجل نفسى .

وبدأت السماء تسقط ثلجاً خفيفاً .



١٤ • أسمى من كل أمور الدنيا

المنزل رقم ٤١ شارع جليب ، فى تشيزويك ، منطقة بف ، أو منطقته السابقة . تأكد من العنوان ثانية فى الصفحة الأخيرة من « البريطانيون الأحرار » قبل أن يضغط بإصبعه على زر الجرس . منزل بال تحيط به الشرفات الواسعة ، ويغلب على حديقته الأمامية الإهمال ويفيض صندوق قمامتها بمحتوياته . فتحت له فتاة تلوك شيئاً فى فمها ... سمراء مشربة بحمرة ، مجعدة الشعر ترتدى بذلة خضراء فوقها الشارة الصفراء . قالت له وهى تشير برأسها يميناً إلى أحد الأبواب :
عليك أن تنتظر هنا ..

لكن رجلاً ذا شارب نزل الدرج العارى من أى بساط محدثاً جلبة ، حاملاً فى يده مجموعة من الأوراق ، مرتدياً بنطلوناً أخضر وقميصاً أبيض ... رمق بف بنظرة ماكرة وهو يناول الفتاة الأوراق قائلاً :
خمس نسخ من كل ورقة يابريل ... ياإلّهى ، ألم أرك من قبل ؟

كانت الجملة الأخيرة موجهة لبف ، الذى قال :
انتظر ، أنت الذى قمت بالتفتيش الأخير ... من هيئة تفتيش صاحب الجلالة ... اسمك فورستر ..
ـــ فوكنر ... بالضبط ، لقد كنت فى هيئة تفتيش صاحب الجلالة ... أنت من وليز ، أليس كذلك ؟ تحمل اسماً ويلزياً! جئت طلباً لوظيفة ؟ ..
ـــ جئت لأر ى إمكان تكليفى بأى عمل ... اسمى جونز ، ماجستير آداب من جامعة ..

فقال فوكنر :
ـــ سأحضر سترتى ... الجو هنا مكتوم . المفترض أن آخذ قسطاً من

الراحة الآن ... كما أننى ظمآن ظمأ شديداً ... بيريل ، لو سمحت ، قولى لرائد الديموقراط أن يستمر فى عمله لبرهة وجيزة ، سنذهب أنا وهذا الأستاذ إلى حانة الفيذرز .

فى الحانة أتى فوكنر على شرابه من الخمر الممزوج بالمياة الغازية فى ظمأ وطلب المزيد ... تتبدى على صدره شارته الصفراء مزخرفة برتبة الرائد ... التَهَم بف طبقاً من شطائر الجبن بالصلصة واحتسى كأسا مزدوجة من الويسكى الأسكتلندية .

قال فوكنر :

ــ لن تستمر طويلاً ، بهذا الثمن ..

ــ تعنى أن سعرها سينخفض ؟

ــ بل أعنى أنه لن يوجد المزيد منها بعد الآن ... سيسبب هذا شجاراً فظيعاً ... لكن لابد من حدوثه ... لا عليك ، فالأشياء المهمة أولاً !

استعرض بعينيه هيئة بف . بالى المنظر لكنه نظيف حليق الذقن . أما الآخر فأنيق جميل ذو نظرة ماكرة . وشعره الأسود المصفف قصير ومجزع بأناقة كأنه بمسطرة . قال له :

ــ إذن فأنت واحد من هؤلاء الأولاد المشاكسين ! حسن ، لا تقص علىّ قصتك . لقد قاسيت الأمرين بسبب تقريرى المكون من مائة صفحة عن حالة تدريس العلوم فى المستوى الثانوى . قلت لهم : إذا لم يكن التقرير يعجبكم ... (وأنت تعرف الباقى) . إلى أى نوع من الوظائف تسعى ؟

ــ أى نوع من الوظائف موجود هنا أصلاً ؟

ــ الالتحاق برتب الضباط العاملين أمر يتم فى القمة ... هذا ما يريده صاحب السيادة . لا يمكننى الاتصال بالدورتشستر ... لكن المؤكد أنه سيكون هناك غداً . يمكنك الذهاب بخطاب توصية ..

ــ « صاحب السيادة » ؟

ــ آه ... هكذا نناديه ... سيادة الرئيس ... الزعيم الأعلى ... أما اسم لورنس فليس اسمه الحقيقى ... بل إنه ليس إنجليزياً أيرلنديا ، كما كان لورنس

العرب فيما أعرف . امتلاك المال شيء جميل ... شيء جميل جداً ..
ــ والسكن والمعيشة ؟
ــ أنت متزوج ؟
ــ ماتت زوجتى محروقة قبيل الكريسماس حينما كان رجال المطافىء مضربين . ولدى ابنة ، فى الثالثة عشرة ... متخلفة عقلياً ... ضحية من ضحايا عقار تيسير الولادة ... اسمع ... هل لى أن آخذ واحداً آخر ؟

ولوح بكأس الويسكى فى يده ، فأجابه الآخر مشيراً للبارمان :
ــ طبعاً طبعاً ... ابنتك جميلة ، أليس كذلك ؟
ــ بصورة عارمة ... يا إلهى ما هكذا ينبغى أن يتحدث الأب عن ابنته ... إنها تسبق سنها ــ من الناحية الجنسية طبعاً ، ومدمنة للتليفزيون .
ــ تبدو كأى بنت فى الثالثة عشرة ... حينما تذهب إلى الدورشستر خذها معك .
ــ لماذا ؟ شكراً ..

قال الكلمة الأخيرة وهو يتناول كأس الويسكى الأخرى ، وصب فيها الصودا بينما أجاب الرائد بغموض :
سيريدون هناك أن يعرفوا كل شيء . سأكتب لك الخطاب الآن .
وكتب فى عجالة شيئاً على ورقة كراسة ثم نزعها وطبقها وأعطاها له . ثم قال :
ــ ما مدى تدينك ؟
ــ تدينى ! هل هذا مهم ؟

انتظر فوكنر صامتاً حتى قال بف :
حسناً ... لقد تربيت على تعاليم مذهب الميثودية الأصلية ، وتخليت عنه بعد ذلك بالطبع ، لا أنتمى لأى عقيدة الآن ... بل أعتقد أن رب الكون قد تخلى عنه .

فقال فوكنر :
آه ... ليس هذا رأى كل إنسان ... أنا من أتباع مذهب التوحيديين ، هذا

مفيد . صاحب السيادة سيريد أن يعرف هذا . إنه يندد بأى مجتمع تفقده المادية رشده وصوابه . فهو يؤمن بأن الحل الوحيد هو الرجوع إلى الله ، وسيهمه أن يعرف رأيك فى هذا الموضوع .

فعاد بف للسؤال :

والسكن والمعيشة ؟

كالمعتاد ... لا توجد أماكن للمتزوجين ، ومعذرة لهذا ، ولكن خذ ابنتك إلى الدورشستر ، اسأل عن جناح « أبى بكر » ... أين تقطن ؟

لقد تركت لتوى عزبة كروفورد . لم تفلح معى دورة إعادة التأهيل . لكن معى ثلاثين جنيها .

لن تقيم صلبك هذه القروش طويلاً ... عندنا مايشبه مقراً مؤقتاً صغيراً بجوار محطة يترنم بالحزن ، وهو مخصص للضباط فقط . سأحاول أن أدبر لك فيه مأوى الليلة .

ــ هذا كرم منك ..

لا ... إننى أؤدى وظيفتى ... فنحن بحاجة إلى الضباط الأكفاء . فهناك وفرة فى الرتب الدنيا أما « قيادة » جيش فهى دائماً مشكلة ..

فقال بف :

إلى أى مدى يمكننا أن نطلق عليك جيشاً ؟ شكراً ..

وصلته كأس كبيرة أخرى من الويسكى ... تأمله فوكنر بعينيه ببرود قبل أن يجيب عن سؤاله قائلاً :

إنه يشبه ــ إلى حد ما ــ جيش الخلاص . لكننا لا نعمل من أجل المنبوذين ، بل نؤمن بالجهد والوطنية والمهارة والعمل فى سبيل الله ... إننا نمثل الدولة البديلة ، ليست عندنا أية أسلحة وليست عندنا أية رغبة فى القيام بعمل خارج على القانون ، أقصد ليس قبل أن يتجاوز القانون حدود العقل .

فقال بف فى ابتئاس :

لقد حدث ذلك فعلاً ..

ــ لا ... كن واسع الخيال ، أو انتظر ... فقط انتظر ... ولا أظن أنك ستنتظر

طويلاً ... إن للأحداث قدرة متفردة فى تحديد المصير . ومهما تخيل العقل ، فهو ليس أساساً إلا آلة مترددة . انتظر ... كأس أخرى قبل أن تنصرف .

كان هذا المقر المؤقت فيما مضى مصنع بسكويت صغير . وجد به حجرات عديدة بكل منها ستة سرائر . دورات المياه نظيفة جداً ... قدم المطبخ خبزاً وجبناً وشاياً ثقيلاً . لكن ليس ثمة بار للضباط . بعد التحدث مع الملازمين براون ودريدا ، والنقيب تشاكرا فورتى والرائد العامل لا يتمير ، وجد بف أنهم فى انتظار الترحيل إلى ثكنات بالأقاليم مثل دارلنجتون وبيرى وسانت أدموندز وديرم وبرستون . وتبلغ الآن قوة « البريطانيون الأحرار » حسب تقدير تشاكرا فورتى — فوق الخمسين ألف ، والعدد فى ازدياد . لكنهم للأسف ، كما يقول ، ينقصهم الضباط . وتؤرق لا يتمير مشكلة تحديد مواقع لمخابىء الأسلحة ... فهو مقتنع بأن التسليح سيكون فى القريب ضرورة ملحة ... وهو يحبذ التدريب العنيف على استخدام الأسلحة الآلية ولو بمدافع غير حقيقية إذا ما اقتضت الضرورة ذلك . لكنهم فى حاجة إلى شبكة ترسانة ، وفى حاجة إلى ضمان مرور الأسلحة بسهولة . وأضاف قائلاً :

سنضطر لانتظار يوم الـ « ض . ع . » . ولكن معنى هذا الانتظار حتى اللحظات الأخيرة ..

فقال بف متحيراً :

— يوم الضاد — عين .

فرمقوه وكأنهم ينظرون لرجل جاهل جهلاً شنيعا لا يغتفر ... لكن دريدا قال بعد برهة :

— طبعاً ... أنت جديد ، ولا تعلم « يوم الإضراب العام » ، عندنا كما عندهم ... ستكون هناك معارضة شديدة ..

فسأل بف :

— ومن أين ستأتى الأسلحة ؟

كتموا جميعاً ضحكاتهم قبل أن يقول تشاكرا فورتى :

ـــ لا ... هذا شيء يجب أن تكون على علم به . ليس لك عذر فى هذا الجهل !

لم يقل شيئاً غير ذلك ... تثاءب بطريقة مهذبة ثم قال إن موعد نومه قد أزف ، كما أنه ينبغى عليه النهوض لقطار الخامسة والربع صباحاً ، بعد أن ينضم إلى مفرزة سرية بنصف ساعة .

استيقظ مبكراً بما فيه الكفاية ، فعليه أن يحضر بيسى قبل أن يأخذها « أتوبيس العذارى » الساعة الثامنة والربع إلى المدرسة . ركب مترو الأنفاق ـــ وهو من المرافق النادرة ولكنه ليس فى إضراب الآن ـــ فسار به من تيرنم جرين إلى البنك ، ومن هناك أخذ الخط الذاهب إلى هاييرى وازلنجتون . بيت الفتيات على طريق « إسكس » كان قد اشترى جريدة من تيرنم جرين ، فقد انتهى إضراب وسائل الإعلام . لكنه وجد الجريدة مليئة بالمساحات البيضاء ، وهى خاصة بمواد معينة رفض عمال المطابع نشرها . وكان اهتمام الصفحة الأولى منصباً على بدء إضراب عمال الإنشاءات هذا اليوم . وهناك صورة متجهمة لجاك بيرلاب ، زعيم النقابة ، الذى قال إن المناقشة الهادئة قد اخفقت وإن المطالب المعقولة للعمال بجعل ساعات العمل ٢٠ ساعة أسبوعياً وعشرين جينها علاوة قد تم رفضها بوحشية فى اجتماع مشترك للجنة الإنتاجية القومية ومجالس الأجور القومية . لقد كانوا يعرفون ماذا سيحدث ـــ أيها الإخوة ـــ وها هو الآن قد حدث .

كانت بيسى تقف مع صديقاتها فى انتظار الأتوبيس تلوك شيئاً ما . وتستمع إلى موسيقى روك صاخبة تنطلق من راديو ترانزستور تحمله فتاة غجرية الهيئة . لم تتعرف فى أول الأمر على أبيها ، ثم قالت « دادى » وعانقته بحرارة ... كانت نظيفة فى « جيبتها » الزرقاء القصيرة والسويتر الأحمر المثير ، رشيقة الجسد إلا عند الصدر ... قالت لصديقاتها :

دادى ... طلع فى التليفزيون ..

ثم لأبيها :

الإضراب انتهى ... ألم يكن فظيعاً يالندا أن نعيش بغير تليفزيون ؟

ـــ لكن الليلة « غانية الطريق » .

كانت الفتاة الغجرية تحرك مؤشر المذياع ، فيأتى الكلام وينقطع ويأتى وينقطع وسط الصخب الذى تبحث عنه :

« وقال الشيخ عبدالرحمن إنه ... ولن يسمح بقيام الإضراب تحت أية ظروف ... وكان من المقرر أن يكون شارع « جريت سميث » ... وبعد ذلك جاءت الموسيقى والصخب والضجر والإسفاف ، فقال بف :
أعيدى نشرة الأخبار ؛ تبدو مهمة .
– على جثتك ... بيسى ... الأتوبيس جاء .

فقال بف :
ـــ يابيسى ... أنت قادمة معى ... جهزى حقيبتك ..
تذمرت بيسى ، بينما صديقاتها يقفزن داخل العربة ، متظاهرات بالارتماء على السائق ، الذى قال فى قلق :
كفوا عن هذا ... مفهوم .

حاولت بيسى الانضمام إليهن ، ونزلت صديقاتها ليخمشن بف بأظافرهن . فقال لابنته :
سنخرج هذا اليوم للنزهة ... للغداء ... للسينما ..
ـــ و« غانية الطريق » هذه الليلة ؟
ـــ أنا أتحدث عن هذا « اليوم » .
ـــ إذن فليس مطلوباً أن أجهزة حقيبتى ؟
ـــ أظن لا داعى .

تبادل بف والسائق إيماءة إحباط شديدة ، وقال بف :
ـــ سنحضر لك الأشياء ، مهما كان المقصود بكلمة « أشياء » .
ـــ أحمر شفاة ؟ طلاء أظافر ؟

فقال بف :
ـــ هيا بنا .

لا يزال فى جيبه بعد أجرة مترو الأنفاق ـــ خمسة وعشرون جنيها ، أخذها

إلى أحد المطاعم وراقبها وهى تأكل السجق بأصابعها . حكت له عن حياتها فى بيت الفتيات ، مما يعنى فى الغالب أخبار برامج التليفزيون التى شاهدتها هناك . الإضراب كان فظيعاً ، يجب ألا تسمح القوانين بالإضرابات . لكن مس بوترل كانت تقوم بتمثيل عروض الأفلام ... ولم يكن لديهم تليفزيون كبير هناك على أية حال ، وهذا غش دنيء ... كما كان الموجود جهازاً واحداً . فكان يحدث نبش بالأظافر وشد للشعر وقلع للعيون بسبب البرنامج الذى سيضطرون جميعاً لمشاهدته . لكن الحال ستكون على ما يرام الليلة . فهن جميعاً متفقات على مشاهدة « غانية الطريق » . لم يكن يبدو عليها أنها تتذكر أمها وعنوان بيتها القديم أصبح غامضاً فى ذاكرتها . أما والدها فتتذكره لأنه « ظهر فى التليفزيون » . تحدثت عن صديقاتها وحكت له عن الليلة التى أحضروا فيها فتى إلى عنبر « ب » وألقوا ملابسه من النافذة وجعلوه يفعل أشياء لهن ، لكنه لم يستطع أن يفعل كثيراً ولم يكن جيداً مثل التليفزيون . تنهد بف .

الغداء كان فى مطعم بطريق توتنهام كورت . راقبها وهى تأكل السجق بأصابع يديها . تناولت طبقين من الكريمة بالشوكولاته . تبقت معه نقود كافية ليريها عرض الواحدة لـ « كوكب الجنس » فى سينما الدومينيون . وأرادت أن تشاهده من أوله مرة أخرى لكنه قال لها :

لا سنتناول الشاى الآن .

رغم علمه بأنها لن يتناولاه إلا إذا دعيا إليه ، ثم أضاف :

سنتناوله فى واحد من أفخم الفنادق فى العالم ، ولا تسأليني هل عندهم تليفزيون لأنه عندهم !

عد ماتبقى معه من ديكرات . تكفى قروشه الزهيدة للركوب إلى جرين بارك . ومن هناك يجب عليهما أن يقطعا بقية المسافة سيراً على الأقدام ... بجوار محطة مترو الأنفاق كانت تباع جريدة « إيفننج ستاندرد » ... العنوان الرئيسى يقول : « عمال المسجد الذين رفضوا الإضراب يهددون » . لم يستطع بف أن يشترى نسخة . على قمة الدورشستر ببارك لين ترفرف راية صفراء ، واسم المبنى مكتوب بخط عربى جميل ، والأضواء الساطعة تغمرها بالنور . دخل بف وبيسى

عبر الباب الدوار . الردهة ملأى بالعرب ... بعضهم بالملابس العربية وبعضهم بأزياء غربية رديئة التفصيل . وفى القاعة الطويلة يتم تقديم الشاى ، قالت بيسى :
ـــ أنظر إلى أذواقهم الغريبة ؟!

الخدم البريطانيون المرهقون يلتقطون لفائف القشدة بملاعق الحلوى ويصفونها فى الأطباق للعرب ذوى النظرات المزدرية . قال لابنته :
اجلسى هنا ..

شق طريقه بها إلى كرسى فوتيل أصفر ، بينما ذهب إلى المكتب للسؤال عن الكولونيل لورنس حيث قيل له إنه من الممكن أن يأتى فى أية لحظة . عاد إلى بيسى التى تذمرت قائلة :
ـــ لقد قلت إننا سنتناول الشاى . أريد بعض الفطائر التى يتناولونها .
ـــ اهدئى يا ابنتى ... ليس لدى نقود كافية .
ـــ لقد وعدت !

وأخذت تضرب على صدره بقبضتها القوية . ووجد بعض العرب الذين يتناولون الشاى هذا المنظر مسلياً . نظر إليهما واحد منهم يرتدى جلباباً ناصع البياض ، وعلى رأسه وشاح ذو عقال ... من وراء نظارته السوداء نظرة طويلة لا تحمل تعبيراً ، وقال شيئاً لشاب طويل الأذنين يرتدى بذلة بغيضة الهيئة . أومأ الرجل برأسه وأتى إلى بف وقال :
صاحب السمو يقول لكما تناولا الشاى معه .

فقال بف متشككا :
الحقيقة ..

أما بيسى فقالت :
صاحب السمو ؟
ـــ يقول لكما تناولا الشاى معه ..

فقالت بيسى :
ـــ إذن قل لصاحب السمو شكراً .

ثم جذبت بف من مقعده بقوة ... وذهبا ... انحنى بف لصاحب السمو الذى قال :

ـــ إجلسا ... إجلسا .

وصفقت يدان فظهر خادمان يحملان إبريقى شاى من الفضة وكعكاً فاخراً . لم تستطع بيسى صبراً حتى يقدم لها الكعك ، فهجمت على الكعكة بلا هوادة . ابتسم سموه متساهلا على مضض . تحدث طويلا باللغة العربية التى يتخللها كثير من الهمزات والحروف الحلقية مع رجل بدين يرتدى سترة زرقاء داكنة بصفين من الأزرار تدلى صدرها . قال الأخير وهو يومىء برأسه مصدقاً على ما يقول :

ـــ جميل ... جميل ... حرس ..؟

ـــ ما هو بالضبط معنى ..؟

وما كاد بف يبدأ سؤاله حتى أحس بحركة غير عادية فى الردهة . فقد وصلت شخصية ذات أهمية فقال صاحب السمو :

ـــ آل لورنس ؟

فقال بف وهو ينهض :

ـــ معذرة ... جئت حسب موعد ... فأنا ..

فقال الرجل البدين :

أنت تترك الفتاة تأكل وهى فى الحفظ والصون .

وكعربون على هذا صفق بيديه للخادمين .

رأى بف الآن الكولونيل لورنس لأول مرة ... طويلا مفرط الطول ، ذا أنف يتميز بها أهل البحر المتوسط مع شحوب يميز أهل الشمال . يرتدى بذلة خضراء موشاة بخطوط صفراء على ياقة سترتها ، وعليها عباءة سوداء . وتحيط به حاشية من خمسة أو ستة منهم الأبيض والأسمر والأسود . تحدث بالعربية بسرعة مع حارس أسمر اللون ، وانحنى فى أدب واحترام ولكن بدون بشاشة للعرب الذين يتناولون الشاى ، وهو يأخذ طريقه إلى المصعد . وكان ممسكاً فى يده بسوط خيل . ذهب بف ، مخرجاً خطاب التوصية ، وقال لأحد الحراس :

من طرف الرائد فوكنر ..

ـــ حسن ـــ إصعد معنا ... قد تنتظر طويلاً وقد لا تنتظر . فأشياء كثيرة تشغلنا الآن . خذ المصعد التالى .

إنحنى الكولونيل لورنس ـــ من فرط طوله ـــ داخل المصعد ، فبدا وكأنه ينحنى تحية لبف . إنغلق الباب ... وصلت بيسى بالتأكيد إلى فطيرة القشدة السابعة . كان سموه يشجعها فى لطف على تناول المزيد من الطعام ... أخذ بف المصعد التالى .

الحجرة التى أجلسوه فيها للانتظار هى ردهة فخمة قد حولت تقريباً إلى غرفة مكتب ... مكتب ؟ بل هى أقرب إلى غرفة خرائط ، غرفة حرب ، غرفة عمليات . رأى فتاتين فى الزى الأخضر ، حيث إحداهما بف قائلة : أهلاً ... الأولى تعمل على آلة تلكس ، والثانية على آلة كاتبة تتحرك عربتها فى اتجاه معكوس (من اليمين للشمال : آلة عربية بالقطع) ... على أحد الجدران خريطة للمملكة المتحدة وعلى آخر خريطة للندن الكبرى . وهناك بعض الأعلام ملصقة على هذه الخرائط . فى منطقة وستمينستر معين أسود فى وسطه هلال الإسلام . ويشير هذا بالطبع إلى المسجد الجديد . نهضت الفتاة الناسخة ، وهى حسناء إنجليزية بالتأكيد لكنها بارعة فى النسخ العربى ، وأخذت زجاجة كوكاكولا من ثلاجة مشروبات . وقدمت لبف أخرى فى صمت ، وكان يحس بالظمأ .

كان بف ممسكا فى يده فى غباء زجاجة سوداء حينما دخل الكولونيل لورنس . العيون التى تنظر إليه تومض وتنغلق بدون ثبات وبطريقة تثير الارتباك . جاءه صوت هزيل به لكنة أسكتلندية غامضة :

لا وقت لدينا للرسميات . عندى توصية قوية من الرائد ... الرائد ... فأسعفه الحارس الأسمر :

فوكنر ..

وتابع الصوت :

ـــ إنك ـــ فيما أظن ـــ عالى الثقافة . ألديك خبرة صحافية .

ـــ اشتركت فى تحرير مجلة الجامعة لمدة عام ... لكن اسمعنى سيدى ، بودى أن ..

ـــ بودك أن تعرف شروط العقد ألخ ... ألخ ... قلت لك لا يوجد وقت . فهذه هى ليلة الإضراب المزدوج . نريد معلومات كاملة لشهود عيان لتكون جاهزة للطبع بحلول الساعة ٢٢٠٠ على الأقل . نريد منك الذهاب إلى شارع جريت سميث .

ـــ أخشى أننى ..

تخشى ؟ آه ... أفهم ... اعطه نقوداً يارضوان ، واعطه معطفاً ليس به أى اسم أو إشارة . خذ تاكسى ودفتراً وقلماً ... إذ يبدو أنك لا تملك شيئاً على الإطلاق . لكن أعدك ، قريباً ، قريباً جداً ، سيكون لديك كل شىء ، بشرط الطاعة والإخلاص .

عبر الكولونيل الردهة عائداً إلى الحجرة المجاورة ، ووراءه الحارس . عبس بف وتجرع زجاجة الكوكاكولا ... قالت الفتاة الناسخة بغير أن ترفع عينيها :

ـــ هو هكذا دائماً ..

لا تزال بيسى تملأ بطنها ، وإن كانت أكثر بطئاً ... قالت كلمة عربية بينما تنظر إليها كل المجموعة فى شفقة . قالت :

ـــ التليفزيون ..

فقال بف :

على أن أذهب ... شغل ... لأن الكولونيل لو ..

ـــ إنها هنا فى أمان ..

نظرت بيسى إلى والدها وقد خدرها الطعام ، فبدت وكأنها لا تعرفه ... لعل السبب هو معطف المطر الأبيض ، أو القبعة الواسعة التى كانت فى الحقيقة خوذة من الصلب الخفيف . ذهب بف صوب الباب ، أوقف له البواب سيارة أجرة ، فنفحه ورقة بخمسة جنيهات ، ولكنه عبس وقطب ، إذ يبدو أن السخاء الإسلامى قد علمه الكثير ... ركب بف ماضياً فى طريقه فى تلك الليلة الشتوية ... المرور هادىء والسيارات قليلة ... السبب سعر البترول ... وتكلفة السيارات ... وصلوا إلى هايدبارك كورنر ، ثم جروفينور فشارع فيكتوريا ثم ناصية شارع جريت سميث . أمامه مباشرة كنيسة وستمينستر ... بالطبع لابد أن يقوم المسجد

العظيم متحديا المعبد القديم للفرع البريطانى من أهل الكتاب ... سمع بف ضجيج الزحام ... أعطى السائق عشرة جنيهات وقال له خذ الباقى لك .

فأجاب بتذمر :

ـــ ليس هناك باق ..

منحه ضعف المبلغ ، فقال السائق :

ـــ شكراً يارجل :

وهناك كانت فى انتظاره بداية المواجهة الكبرى .

الجموع المحتشدة غاضبة ، ومن العسير أن يكبح جماحها كوردون الشرطة المسكين الذى طوق المكان ... رجال الشرطة على دراجاتهم البخارية يذرعون المكان جيئة وذهابا ... الأضواء باهرة تغمر الساحة ، تولدها سيارات كبيرة تغذى مصابيح ضخمة ... على ضوئها يعمل الرجال ... كم عددهم ؟ مائة أم أكثر ؟ عالياً فى السماء تحلق رافعتان تعملان فى نشاط متقد ، تدور حبالهما فيصنع الخطافان فى نهايتهما كتلاً ضخمة من الحجارة فى دقة وعناية . وهناك خلاطات مسلح تطحن مواد البناء بصوت مزمجر ... العمال فى خوذات من الألومنيوم يصعدون ويهبطون على السلالم المتحركة . رأى مصعداً كهربياً يحمل مجموعة كاملة من عمال البناء إلى أحد الممرات . صاحت الحشود المضربة تسب أولئك الأوغاد الذين رفضوا الاشتراك فى الإضراب ... عربة بمكبر صوت تجول فى شارع جريت سميث ليدوى الصوت ويتردد صداه فى الأرجاء :

ـــ بناء المسجد يجب أن يتم ... إنه ليس سوبر ماركت أو عمارة متعددة الطوابق ... إنه معبد يرجى به وجه الله ... الله ، رب اليهود والنصارى والمسلمين جميعاً ، الله الذى لا إله إلا هو ، الذى أرسل الأنبياء إبراهيم وعيسى ومحمد ... أكرر : إن العمل يجب أن يستمر ، الأجر الذى نقدمه يزيد عشرين جنيها فوق المرتب الجديد الذى تسعى إليه نقابة البنائين . كونوا أحراراً ... كونوا من البريطانيين الأحرار ... قوموا بالعمل الذى تستطيعونه ، فنحن بحاجة إلى مهارتكم ، وطاقتكم وإخلاصكم .. »

إهتم فريق من تليفزيون برد فعل المضربين : القبضات الغاضبة ، الوجوه

المترددة ، الأيدى تمر على الذقون غير الحليقة حيرة وترددأ ... ورد عليه صوت هو صوت جاك بيرلاب ، كان هو نفسه هناك ، على ظهر إحدى الناقلات ، يضع على وجهه مكبر صوت كقناع أوكسجين .

كان يقول :

ـــ لا تستمعوا إلى هذا الحقير ياإخوة ... إنها نفس الحيلة الرأسمالية القديمة ... لا ضمانات ، لا عقود ، لا أمن ، لا حق فى الامتناع عن العمل . أنتم أيها الأوغاد الخارجون على الإجماع ... إستمعوا إلى صوت العقل ... اتركوا هذا العمل القذر ... إنكم تمكنون هؤلاء الأوغاد من أنفسكم وهم يقضون عليكم . لقد تخليتم عن حرياتكم ، فباستطاعتهم أن يركلوكم ويطردوكم من وظائفكم حينما يريدون . إنها أموال الهمج الشرقيين ـــ أموال النفط القذر ... لقد انتهيتم أيها الإخوة ... أيها الحمقى ، لقد تخليتم عن حقوقكم الإنسانية .

فصاح الصوت الآخر من مكبر الصوت :

ـــ هل تستمعون لصوت العقل ؟ بل هو أقرب لصوت التعصب والعنصرية والتزمت ... أيها المسلمون : هاأنتم أولاء تسمعون أنفسكم توصمون بالقذارة والهمجية ، وأنتم أيها اليهود والنصارى : هل تسمحون أن يسب إخوانكم فى الله ويبصق عليهم ؟ كونوا أحراراً ... تخلصوا من هذه القيود ... العمل الشريف المقدس فى انتظاركم .

حاول جمع من المضربين أن يقلبوا العربة التى تحمل مكبر الصوت فمنعتهم قوات الشرطة . قال جاك بيرلاب مخاطباً إياهم :

ـــ إن عليكم الآن يارجال الشرطة أن تقوموا بواجبكم ، لا تنقلبوا على رفاقكم ، فأنتم تعرفون القانون ... لا أقصد قانون المحاكم المكتوب ، وإنما قانون العمل ... فأنتم عمال أيضاً ... هيا انضموا إلى إخوانكم ... إن مايحدث لهو « انتهاك ناعم » للقانون ... لا تدعوا هذا يحدث .

طغى على صوته هبة من أنغام كأنها آتية من السماء ... أخذت العيون والأفواه الفاغرة تبحث عن مصدرها ... مكبرات صوت ، ولكن أين ؟ كأنها ألف

صوت مختلط ... أوركسترا ضخم يعزف موسيقى « لبرليوز » . وانضمت إليها فرقة للآلات النحاسية :

أقسم لك ، ياوطنى أن
أقدم لك حبى خالصاً
وكاملاً وتاماً أسمى من
كل أمور الدنيا.

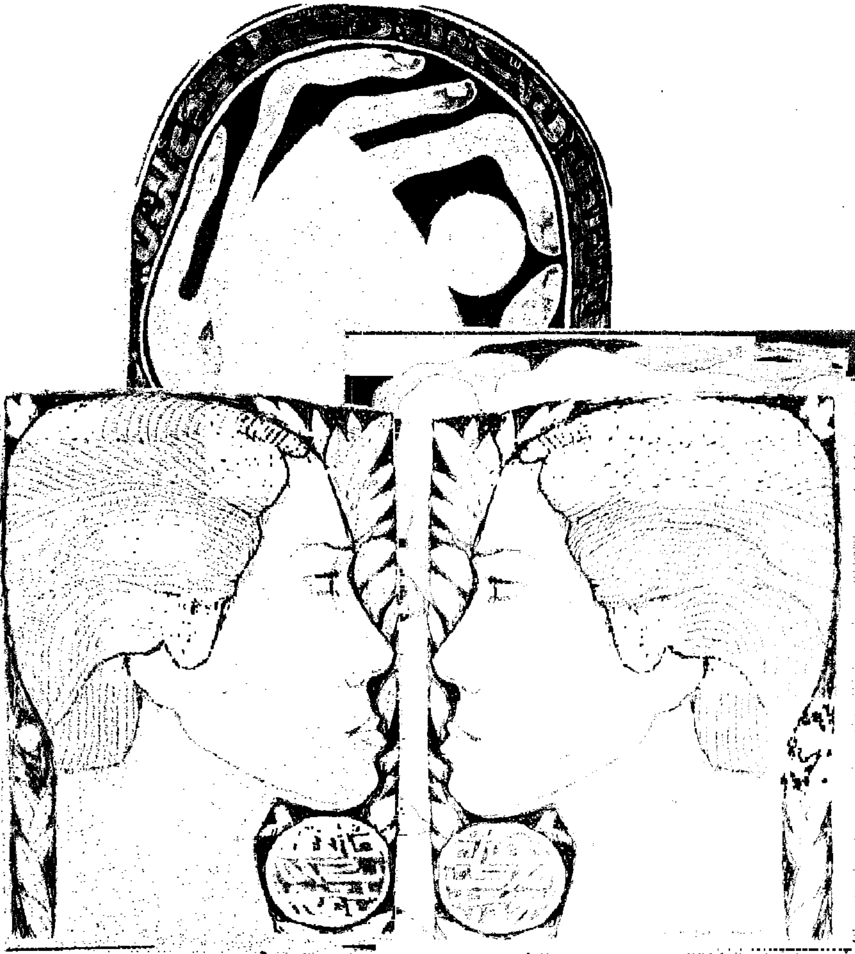
كبح رقيب بالشرطة فرسه المتوثب ليستمع إلى ما يذاع فى جهاز الإرسال والاستقبال الذى يحمله على ظهره ... أوقف الجهاز وأومأ برأسه إلى جندى يقف متأهباً ، فأطلق هذا الجندى صفارة حادة ثلاث مرات ... كل واحد يخرج ... الشرطة فى إضراب ... بدا أن جاك بيرلاب يهلل حمداً على أنغام الموسيقى ، وكأن ما حدث إنتصار شخصى له ، إذ يبدو محتملاً أن زعماء النقابات يتبادلون مراكزهم الآن ، نتيجة حتمية للنقابية الجماعية . انفض كوردون الشرطة ، وأخذ بعض رجال الشرطة يخلعون خوذاتهم ليمسحوا جباههم . وقاد الرقيب فرسه مبتعداً عن المكان .

حباً لا يلقى أى سؤال
حباً يصمد لكل بلاء حباً
يقدم قرباناً كل غال
وثمين وعزيز .

أخذ المضربون يصرخون أو يصدرون أنيناً عميقاً ، وتحركوا صوب موقع المبنى المقدس ... خفتت الموسيقى حتى تلاشت ، وعندئذ ظهرت فصيلة من رجال يرتدون الزى الأخضر ، يتقدمهم ملازم وقائد فصيلة ... ساروا عبر شارع جريت سميث بخطوة مشاة خفيفة ، يسبقهم موكب من راكبى الدراجات البخارية التى تهدر وتدمدم . وتبعت الفصيلة الأولى فصيلة ثانية ، ولم يتدخل رجال الشرطة الذين ابتعدوا متثاقلين ... لم يكن رجال الزى الأخضر يحملون أية أسلحة ... شقوا طريقهم فى صفوف منظمة صانعين كوردونات جديدة تطوق المكان ... لاحظ بف أنهم جميعاً يرتدون قفازات خضراء ... تبدو يدهم اليمنى التى تبطش من حين

لآخر بالمضربين أثقل من المعتاد . تنزل على الفم فتقرقع قرقعة بشعة ... ضربت إحداها على جمجمة فارتجف صاحبها وتهاوى مضطرباً لتدوسه الأقدام . كانت بالطبع قبضات حديدية . أحس بف بالغثيان ... جاءت فصيلة أخرى من خلف إحدى النواصى ، مسرعة هذه المرة ، ظلت الرافعتان مشغولتين وهما تعملان بالتناوب ... كان خليط الأسمنت يفور كأنه عصيدة تغلى ، واستمر البناءون فى بنائهم





١٥ • معجب بالإنجليزيات

قال الكولونيل لورنس :

ـــ ليسوا مسلحين ... هذا فى منتهى الأهمية .

ـــ لكنهم كانوا مسلحين ، فالسلاح ليس بالضرورة بنادق ومسدسات لقد استخدمت فصائلكم العنف .

ـــ كلمة شديدة يابف ... حاول وتدبر فى المسألة ككل ... آه ..

دق جرس التليفون ، بينما قال بف ... « مستحيل » ... اتسع منخارا الكولونيل فى شيء من الظفر والانتصار ... التقط سماعة التليفون واستمع مبتسماً وقال :

ـــ كاتب الاختزال جاهز ؟ حسن ، مستر جونز سيملى عليكم ..

ثم قال لبف :

ـــ لدينا بعض خطوط تليفونية مفتوحة ، وستظل مفتوحة ... جريدتنا ستصدر بثمانى صفحات غداً ... هيا ... إلى العمل !

أخذ بف يرتجل بطلاقة من أوراقه ... لم يكن يتوقع أبداً أن يصبح صحفياً فى يوم من الأيام ... لكن ماأسهل هذا ! وما أكثر نقوده !

قال الكولونيل لورنس بعد أن استمع بشغف لما أملاه بف :

ـــ هذا مناقض لتعليماتى ... « غير » مسلحين . لا عليك ، الرائد كامبيون يعرف ماينبغى عمله .

قال شكراً عبر التليفون المركب ثم أعاده مكانه فقال بف :

رقابة هه ! البريطانيون الأحرار ليسوا أحراراً ؟

فقال لورنس :

ـــ مستر جونز ... سنناقش فيما بعد طبيعة الحرية الحقيقية ، وفيما يتعلق بك ، سنناقش القيود التى يتقبلها المجند طواعية فى نظام الجيش . إن لقب مستر ـــ بالمناسبة ـــ له كل صلاحيات ملازم الجيش العامل . والآن هل يمكن أن نعتمد عليك فى كتابة الافتتاحية ؟ بلغها بالتليفون ... سيقوم مستر كامبيون بعمل التعديلات اللازمة ... وهو يعرف أسلوبى . يجب أن أخرج الآن .

هز مساعده رضوان الذى غلبه النعاس على كرسيه ، فهب واقفاً كأنما لقتال ، وهو يصيح :

ـــ يجب أن أعاين المدينة الهامدة ..

ذهب إلى النافذة وألقى نظرة على لندن وقد غشيتها ظلمة سوداء . هناك نور مع هذا فى الدورشستر ، نور باهت ومتقلب ، لكنه سيصبح أكثر إشراقاً ، فهم يعملون فى الردهة لضبط المولدات . قال الكولونيل :

ـــ كما تعرف ، قبل الفجر سيكون الإضراب عاماً ، هذا هو أول إضراب عام فى بريطانيا منذ عام ١٩٢٦ . وضح الفرق العظيم بين الأمس واليوم . فاليوم ليس ثمة مواصلات ولا قانون ولا نظام ... فى عام ١٩٢٦ ، كان هناك على الأقل جيش حافظ على الولاء وقوات شرطة غير منضمة لنقابة . إن منظمتنا الآن هى المنظمة الوحيدة القادرة على الإبقاء على الحد الأدنى من الخدمات . وقل فى الافتتاحية إنه حينما يبدأ زعماء مجلس النقابات فى تفهم الأمور ، سنقول لهم أهلا بكم ضيوفاً كراماً على صفحات جريدتنا .

ـــ أتعنى ماتقول ياسيادة الكولونيل ؟ إن منظمتكم تزدهر فى وجود مجلس نقابات لا يتفهم الأمور ... أحقا تريدون أن ينتهى هذا الإضراب ؟ تذكر ... لقد بدأتموه أنتم أو بدأه رؤساؤكم الإسلاميون .

ـــ « منظمتكم » ، « رؤساؤكم » ، سنبحث غداً مسألة قسمك يمين الولاء والطاعة رسمياً ..

دق جرس التليفون ... رفع رضوان السماعة ... تدلى فكه ، وناول الكولونيل السماعة بعينين واسعتين تحملقان فيه ... قال لورنس :

ـــ نعم ؟

ثم تمدد وجهه واستطال ، فدعا قائلاً :

تعالى الله ! نعم ... نعم ... موافق .

وضع السماعة ونظر نظرة مأساوية إلى بف ، وأعلن الخبر .

ــ تنجونيك حسن اغتيل .

ــ تنجو ..

ــ مالاوى ... من بروناى ... رئيس لجنة الوحدة الإسلامية فى « هاى ماركت » ... هناك حثالة من العمال المضربين الذين لا هم لهم سوى مهاجمة الأبنية التى ترفرف عليها أعلام النجمة والهلال . كان هذا أمراً محتوماً فى رأيى ، لكنى لم أكن أحسب أن الأمر سيبدأ مبكراً هكذا ... قل شيئاً فى الافتتاحية عن العنصرية والتعصب الحقير ... بل والإلحاد الذى أصبح مرتبطاً بـ ..

فقال بف :

ــ انتظر ... كيف قتل صاحبكم ؟

ــ ضرب على رأسه بقطعة من أنبوبة رصاصية ، لقد تجرأ بشجاعة على الرعاع ، محاولاً أن يجعلهم أكثر تعقلاً ... كان متحدثا بليغاً ... لغته غاية فى الإقناع ... اكتب هذا وأنت تتحدث عن مآثره . واتسع منخارا الكولونيل ... قال بف :

ألا تشم رائحة خطر معين ؟ إن بريطانيا الآن مفتوحة على مصراعيها لعقاب الغزاة ... المرافق يشلها الإضراب ... حلف شمال الأطلنطى سيرتجف ويتردد إذ سيشتد قلق الدول المكونة له على نصيبها من البترول ... هل العرب قادمون ؟

قال لورانس وعيناه تعكسان شيئاً على خريطة لندن الكبرى على الجدار :

ــ لقد جاء العرب بالفعل يامستر جونز ... إنه الثأر القديم . هل تعتقد أن الحرب المقدسة انتهت فى العصور الوسطى ؟

ــ اسمع ياسيدى الكولونيل : ماالذى تهدفون إليه بالضبط ؟ بريطانيا حرة أم بريطانيا إسلامية ؟ يجب أن أعرف ... فقد عينتنى متحدثاً مؤقتاً بلسانك .

ــ المخرج الوحيد من مشكلات بريطانيا ــ يامستر جونز ــ هو العودة إلى المسئولية ، والانتماء والدين ... العودة إلى الله ... ومن الذى سيهدينا إلى الله الآن ؟ المسيحيون ؟ لقد انتهت المسيحية بفضل المجلس الثانى للفاتيكان ...

اليهود ؟ إنهم يعبدون إلّها قبلياً دموياً ... لقد تأخرت فى الاهتداء للإسلام ... لقد عشت عشرين عاماً واحداً من المستشارين العسكريين لعاهل السعودية ، وظللت طوال الوقت محافظاً ــ كما كان من حقى ــ على عقيدتى الكنسية . ثم رأيت كيف أن الإسلام يحوى كل شىء وهو مع هذا دين بسيط وقاطع ولامع كالسيف ... لم أحلم أبداً بثورة إسلامية فى بريطانيا ، وإنما بتحول بطىء ، يدعمه تسلل إسلامى يتمثل فى الثروة الإسلامية والتأثير الأخلاقى ... تسلل بطىء بطىء ... تأثير البيرة التى يشربها العامل يضعف تدريجياً ، لأن كثيراً من معامل البيرة تملكها أيد عربية تحت أسماء مستعارة ، إن الإنسان لا يستطيع أن يفرض التحريم عن طريق قانون مفاجىء غبى ... لحم الخنزير يتزايد سعره حتى يكاد يختفى تدريجياً من الأسواق ، ولكن من حين لآخر يصرخ فى أعماقى دم شمال أفريقيا الحارة وهو دم أمى رحمها الله ، ويطالبنى بالعمل السريع ، بينما ينصحنى نصفى الأسكتلندى بالحذر : فيستينا لينتى : فى العجلة الندامة . سنتحدث فى هذه المسائل بتفصيل أكثر غداً ، أما الآن فإننى أخشى انقضاض السيوف .

حول عينيه اللامعتين بالحياة بعيداً عن بف ، وركز نظراته على رضوان قائلاً :

ــ المدينة المضربة ... هيا ..

أصبح بف وحده ، إذ كانت الفتاتان تختلسان النوم على سرير صغير متحرك فى مكان ما ، مال إلى الوراء فى مقعده وتثاءب ، واضعاً ذراعيه خلف رأسه فى محاولة للتفكير فى بداية المقال الافتتاحى . سمع طرقاً على الباب ثم انفتح الباب ... دخل عربى نحيف ، يرتدى بذلة رمادية ، وأزرار قميص وساعة معصم ذهبية وحذاء خفيفاً . تساءل الرجل :

ــ مستر جونز ؟

قالها بلهجة بريطانية خالصة ، لهجة الطبقة العليا ، فقال بف :

ــ أعتقد أنه لم يحصل لى شرف ..

جلس العربى برشاقة على مقعد معدنى وقال :

ــ اسمى عبد القادر ، السكرتير الشخصى لصاحب السمو ، لعلك تريد أن تعرف من سموه ؟ الإجابة سمو الشيخ جمال الدين صفر ابن المرحوم الحاج

يوسف على سيف الدين . تشرفت مسبقاً بتناول الشاى معه ، كما قال لى . والسؤال الذى أسأله الآن هو : هل عندها جواز سفر ؟

فقال بف مأخوذاً :

ـــ من هى ؟ ولماذا ؟ عم تتحدث ؟ ياإلّهى لقد نسيت كل شىء عنها ... أين هى الآن ؟

ـــ نائمة ، فى سلام فيما أعتقد ، ويجب على أن أضيف أنها نائمة وحدها ... لقد شاهدت برامج التليفزيون ، فالإضراب لم يبدأ حتى إنتهى برنامج معين كانت قد أعربت عن رغبتها الدفينة فى مشاهدته ، وشاهدته . لقد أكلت كثيراً ، وأعتقد اننى باستطاعتى القول أنها تنام الآن فى سعادة ... سموه سيسافر غداً ، آه أعتقد أن « غداً » قد ابتدأ بالفعل ... وبما أنها ستكون من بين حاشيته ، فقد لا يكون هناك داع لجواز السفر ... ومع هذا ، فسموه لديه هذا الاهتمام الديمقراطى بطاعة القوانين .

فقال بف :

ـــ تقصد أنه ... أنا لا أعتقد ... لا أعتقد أنها لديها جواز سفر ... لا ... لم يكن لديها أبداً جواز سفر ..

ثم أضاف :

ـــ من فضلك ... وضح !

ـــ يجب أن أوضح لك أولاً موقف سموه ، إنه الآن رئيس هيئة « تان » ، وهو منصب متعاقب ، كما ستعرف .

دار ذهن بف :

ـــ تان ؟

ـــ الاتحاد الإسلامى للنفط ، بالإنجليزية تختلف الحروف بالطبع ... إن أراضى سموه ـــ كما ستعرف ـــ تضم ..

ـــ لا داعى ... أراضيه حارة بالنفط وبالإسلام ، بالمؤذنين واليشامك ... لا داعى لأن تخبرنى بالتحديد متى يجلس على كرسيه الدوار ويشاهد بتروله وهو

يتدفق من باطن الأرض ... لنقل ــ مثلاً ــ إنه يعيش فى مكان مابين أرض الإسلام ... (مكان مابين أرض الإسلام) مناسبة جداً ... بالطبع كرسى المنصب لا يدور بالمعنى الحرفى للكلمة ..

ــ وماذا يريد صاحب السمو من ابنتى ؟ يعلم الله أنها ليس لديها الكثير لتعطيه ..

ــ تظل محظية عنده لفترة اختبار ، ثم يتزوجها بعد ذلك ، فصاحب السمو عنده بالفعل أربع زوجات ، وهو العدد المسموح به شرعاً ، إذن ستكون محظية لفترة مؤقتة حتى يتم ترتيب محل خال للزواج منها ... هل لديك أى اعتراض على مصطلح « محظية » ؟

ــ وما رأى بيسى ؟

ــ ليس لديها أى اعتراض ... إنها حتى لا تعرف معنى الكلمة . وعلى أية حال فليس لدى بيسى أى خيار إلا طاعة أبيها ... ولعل لى أن أقول إنها معجبة للغاية بصاحب السمو ، فهمنا منها أنها لم تر من قبل مثل هذه القدرة على العطاء ... وسوف تشاهد حينما تسافر غداً ... مكتبة الفيديو التى يملكها ... وبرامج التليفزيون الغربية شائعة جداً في حرملك سموه ، فسموه واسع الترحال عبر ديار الإسلام ، كما أنه يسافر أيضاً فى بلاد المشركين ، فهو مستنير الذوق جداً ، لكن أغلب أسفاره فى بلاد الإسلام ، فهو يقوم بزيارة لندن من حين لآخر ..

ــ يبدو أنك تعتبر لندن جزءاً من أرض الإسلام ..

ــ لندن هى العاصمة التجارية للإسلام يامستر جونز ... لدى وثيقة تحت الإعداد الآن لتوقع عليها ، يتم صياغتها صياغة قانونية باللغتين الإنجليزية والعربية ... لعل باستطاعتنا أن نلتقى غداً على الإفطار ، فهنا بالطبع لا يوجد إضراب ، إننا نعتبر هذا المكان أرضاً إسلامية .

فسأل بف بخشونة :

ــ وماذا أجنى أنا من كل هذا ؟

ــ أن تكون راضياً لأن ابنتك تلقى رعاية جيدة ... لا أعتقد أن بلدكم إنجلترا مكان ملائم لتربية ابنة ــ أقصد إلا إذا كان أبوها صاحب ثروة كبيرة ... وماذا تريد ... نقوداً ؟ تطلب الثمن ؟ أتعتقد أن ابنتك سلعة تباع وتشترى و هل

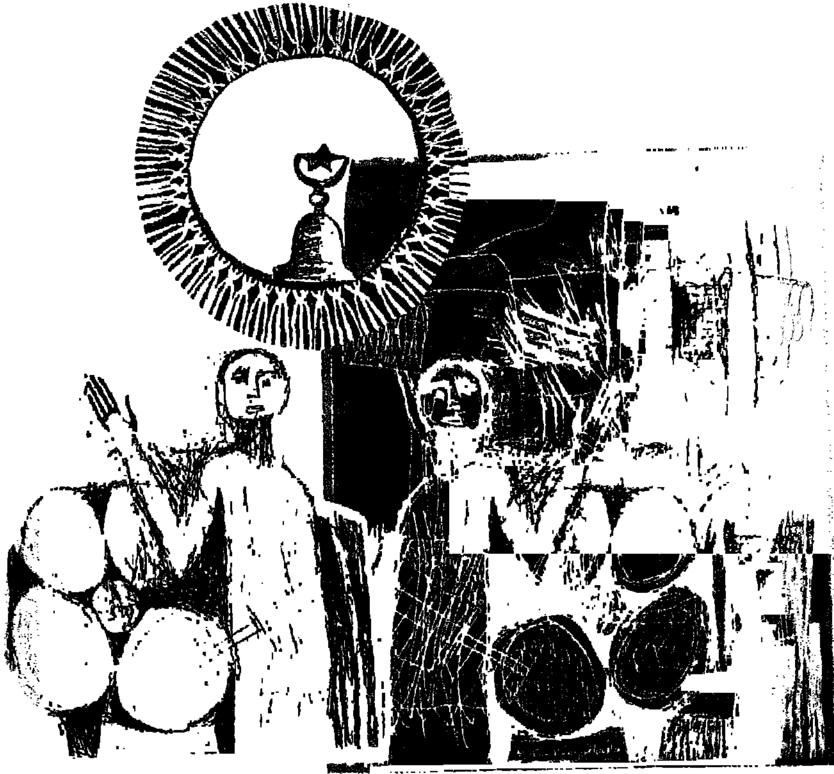
لى أن أذكرك أنه لم يطلب منك دفع « دوطة » ــ كما يفعل البريطانيون !
ــ لكنك ذكرت أنها ستكون محظية ... ألا تباع المحظيات وتشترى ؟
ــ « محظية لفترة اختبار » ، وهذا ليس غريباً فى بريطانيا ، وهنا لا مجال إطلاقاً للحديث عن المال ، ولكن لك أن تثق كل الثقة أنه سيتزوجها ، فسموه شديد الاعتزاز بالنساء الإنجليزيات ..
ــ لكنها لا تزال طفلة ؟!
ــ إنها فى الثالثة عشرة يا مستر جونز ..

تنهد بف ، ثم أحس بالبهجة المتحفظة تقترب فى حذر ، إنه حر الآن ... بحق الرب أو بحق « الله » ... ليس لديه الآن مايحمله على كاهله إلا عبء نفسه . قال :
ــ لو كان البار مفتوحاً لنذهب ونشرب فيه .
ــ البار الأمريكى أزيل منذ فترة طويلة يامستر جونز ، فالمسكر فى عقيدتنا « حرام » . من ناحية أخرى لدى فى جناحى كابينة للمشروبات ملأى بما فيه الكفاية ، فلو كنت ترغب فى ..

فقال بف :
شكراً ... غيرت رأيى ... ولدى عمل ... أقسم لك بـ « الله » ، و « ببريطانيا الحرة » .
ــ إذن نلتقى على الإفطار ، ابنتك الحلوة تنتظر الإفطار كما تقول . إنها مغرمة جداً بالنقانق ، لا هذا هو الاسم العبرى ، السجق هى الكلمة الصحيحة ..

ــ سجـ ... ؟
ــ « سوسيد ج » بالانجليزية ... طعام شائع بين الأطفال فى الغرب ... بالطبع لن يسمح لها بأكل سجق الخنزير ، لكنها لن تكاد تلحظ الفارق ... فهى لم تلحظه الليلة .





١٦ • يوميات الإضراب

اليــوم الأول :

قرب مصنع « إزهار الكرز » البولندى لطلاء الأحذية ، بتشيزويك ، تلقيت أول صدمة بدنية لعداء المضربين تجاه الإسلام . ثلاث سيارات ترفع أعلام الإسلام فى طريقها إلى هيثرو . الشيخ فى السيارة الوسطى ، وأنا وبيسى فى الأخيرة ... أب وابنته فى موقف وداع . توقفنا لنفسح الطريق لسيارتين بمكبر صوت متجهتين إلى طريق ديفون شاير . قذفنا حوالى عشرة من المضربين بالحجارة ، وهم يصيحون أيها الشرقيون الأوغاد ويسبون الدين وأشياء من هذا القبيل . تصدعت النافذة الخلفية بجانبنا وانثنى هيكل السيارة . بيسى فاغرة فاها فى سعادة وكأنما أمسك بها من قفاها وألقى بجسدها فى مشهد من مشاهد العنف بالتليفزيون . توقعت أن نتجاهل الأمر كله ونمضى فى طريقنا لهيثرو . لكن سموه لم يتجاهله . خرج من السيارة ليعطى أوامر باللغة العربية . ذهب سائقان ـــ ربما باكستانيان من ضحايا أعداء الباكستانيين بشرق لندن ـــ وأخرجا من صندوق السيارة الثانية بندقيتى نمر آليتين . أعدا البندقيتين على وضع التأهب وانتظرا إشارة ضرب النار . فقفزت متعثراً من السيارة وأنا أصيح ... لا لا ... بالله عليكم لا ... وذهبت إلى خط النار هرب رماة الحجارة مذعورين ، جرى أحد الباكستانيين عدة خطوات ودمدمت بندقيته بصوت الرصاص الذى أطلقه ، أصاب واحداً فى ساقه وآخر فى صدره ... مات أحدهما ولاشك . هز سموه كتفيه ، مرتدياً نظارته السوداء وواضعاً بين شفتيه سيجارة بمبسم دانهيل . أعيدت البندقيتان إلى مكانهما ، واستمررنا فى طريقنا إلى هيثرو ، مخلفين وراءنا قتيلاً وجريحاً . قالت بيسى إن هذا مثل « قانون جريم » أو أى برنامج تليفزيونى لعين ... ثم تساءلت : هل سنصل فى الوقت المناسب لنرى برنامج « بورنمان » هذه الليلة ؟ إنها لا تعرف بالضبط المكان الذى هى ذاهبة إليه .

موقف ٣ بهيثرو . الركن الإسلامى حيث لا إضراب ... سارت بنا السيارة مسرعة على الطريق المسفلت طائرة الشيخ النفاثة « نسر » فى انتظاره . فوهة خرطوم الوقود فى وسطها . فى كل مكان من حولك تجد الطائرات النفاثة مركونة . لا يوجد موظفو برج مراقبة ولا جمارك ولا إجراءات جوازات سفر . من الممكن أن يهبط هنا جيش كامل محمول على الطائرات بغير أن يعترضه أحد ... أحسست برجفة خوف ... طائرتان عربيتان من طراز « أوزة » يحدق الميكانيكيون فى أجزائهما الداخلية ، وصناديق الشحن يتم تفريغها . رأيت الميجور لا يتمير ، الرجل الذى قابلته فى يترنم جرين ، وقد ألغى أمر ترحيله إلى برستون ، كانت فى يده عصا قصيرة ويشرف على شاحنتين . قال إنها أسلحة من طراز الأوكوتا والغاضب والفيهينين ، وأيضاً الطراز البريطانى أنجرى . وقال إنه الآن جيش بمعنى الكلمة ، وإذا كان الأوغاد يبحثون عن المتاعب فنحن على استعداد لنثيرها لهم . هبت الريح على رداء بيسى فرفعته ، فى سوقية الجنود طرقع لا يتمير لسانه مغازلاً ، قلت له إنها ابنتى ، فقال آسف ياصديقى ، لكنها تحفة جميلة ، سواء أكانت ابنتك أم لا . قلت باللغة العربية ، إلى اللقاء لصاحب السمو ، صهر المستقبل ، قبلت المسكينة أو المحظوظة ، قالت لى : أنا جوعانة يا دادى ... سيقدمون لك وجبه خفيفة فى الطائرة يا بيسى ... « لكننى جوعانة الآن ! » ... هذه هى آخر كلمات قالتها لى بيسى . عدت إلى المدينة فى السيارة الثالثة ، المتصدعة والمتثنية .

الإضراب عام وشامل شمولاً كاملاً ... جلت أتنسم الأنباء ... المطر والطين والقمامة المتراكمة ... القذارة تتزايد فى الطرقات ... النساء يتزاحمن ويتشاجرن لدخول المحلات التجارية ، والبريطانيون الأحرار يحاولون السيطرة على الموقف ... والغريب أن بعض المضربين يعاونونهم . هناك أمل ، فاللغو الأيديولوجى الفارغ عند زعماء النقابات لابد أن ينهار ذات يوم ، والعمال الذين هم بخير فى جوهرهم ، لابد أن يروا الأمور على حقيقتها ... رأيت فيما بعد واجهات محل للخمور تتحطم لا بيد المضربين ، بل بيد البريطانيين الأحرار الذين خرجوا محملين بالمشروبات . حاول ضباط صف البريطانيين الأحرار أن يعيدوهم إلى رشدهم ، بح صوتهم بالأوامر ولا فائدة ، لم يقابلوا إلا بالبذاءة المعتادة .

فارتدوا القفازات الحديدية وهاجموا بضراوة ... شيء سيىء للغاية ، لكنه ضرورى للغاية كذلك . فى شارع جريت سميث يجرى العمل فى المسجد . لكن الواضح أن العمال يضايقهم أنهم يسيرون من وإلى نوبات العمل فى حراسة مشددة من الفصائل التى تحميهم من غضب الرعاع ... إلى متى يمكن أن يستمر هذا ؟ هذب الأخبار ... اكتب الافتتاحيات ... حذار ... لا تذكر كلمة واحدة عن التسلح أو ضرورة العنف ... كميات النقود فى جيبى لا تساوى شيئاً الآن ، فرغيف الخبز بخمسة جنيهات وشريحة اللحم بتسعة ونصف . يتم الآن إنشاء مخبز تابع للبريطانيين الأحرار فى شارع المخابز ... لدى حجرة نوم خاصة فى الدورشستر .

اليـوم الثانـى :

تنتشر فى الأرجاء نشرة رديئة الطباعة عليها صورة طبق الأصل من توقيعات أعضاء مجلس الوزراء المختصين ، تقول النشرة إنه قد تمت تلبية مطالب البنائين: العمل عشرون ساعة أسبوعياً ، وعلاوة ٢٠ جنيهاً استرلينياً ... أى انهم يريدون إزاحة هذا الاضطراب بالذات عن طريقهم . يظهر مستر بتيجرو العظيم بنفسه فى شارع جريت سميث على سيارة بمكبر صوت ، ويخطب فى عمال المسجد : انضموا لإخوانكم ، وذروا هذه القوة العاملة غير القانونية ، عودوا إلى النقابة ، إن ماتفعلونه يصيب البلد كلها بالشلل ... يحك بعض عمال المسجد رؤوسهم مترددين تعساء . لكن رؤساءهم من ضباط الصف يصيحون فيهم ويدفعونهم إلى استئناف العمل ،أيهما أسوأ ؟ طاعة ضباط الصف والمساعدين أم صفارة رئيس العمل ؟ الأجر أعلى عند البريطانيين الأحرار ؟ نعم ... هناك لافتة معلقة فى موقع العمل عن زيادة ٢٥ جنيها فى مرتب الجندى ... هتافات فاترة .

يبقى تموين الطعام مشكلة ، وإن لم تكن الحال كذلك فى الدورشستر ذى مخزون الطعام الجيد ، والذى تحيطه الآن الأسلاك الشائكة والحرس المسلحون ببنادق التشانزير ٤٥ ... يقول الكولونيل لورنس إن الطلقات فشنك ، لكننى لا أصدق . يريد منى أن أقسم يمين الطاعة فأندرج ــ كما ينبغى ــ تحت النظام العسكرى ، لكننى أقول له لا يوجد وقت ، لدينا الكثير مما يجب عمله ... جاء

رجل اسمه سيد عمر ، مفتى وسط لندن ، إلى المكتب ليلقى بياناً للنشر فى « البريطانيون الأحرار » . الكولونيل لورنس ترجم لى البيان ، خلاصة القضية : يجب أن يفهم وبوضوح أن إنشاء مسجد عمل مقدس لا تنطبق عليه القوانين أو العهود العلمانية ، وأن موقع البناء قد يكون أرضا بريطانية بالمعنى الجغرافى أو الطوبوغرافى للكلمة ، لكن بالمعنى الروحى العميق فالأرض أرض الإسلام ، أرض مقدسة ، وأن الوعد قد أعطى للعالم الإسلامى بأسره بأن المسجد العظيم بلندن ، المعبد الإسلامى الرئيسى فى منطقة الغرب كلها ، سيفتتح فى احتفال مهيب فى أول شوال . ويجب الوفاء بهذا الوعد ، أما الإضرابات والخلافات الصناعية فهى عموما أمور غاية فى التفاهة ، وليفهم الشعب البريطانى وحكامه جيداً أن القادة الإسلاميين لن يخضعوا لأى كلام فارغ ، أو حتى كلام مقدس ، يؤدى إلى هذه الحال .

قذفت سيارة سيد عمر بالحجارة والقمامة فى طريقه للبيت من الدورشستر . دوريات صغيرة تظهر على فترات غير منتظمة ، تجول فى أرجاء المدينة . أفرادها مسلحون بالمسدسات ، بالهراوات ، بالعصى الغليظة ، بأى شىء ... كلهم مسلمون ، من باكستان ، بل من الصين الشمالية ، وحتى إنجليزيين اعتنقوا الدين ، ومنهم نساء أيضاً ، ولكن ليس بينهم عربى واحد لا دخل لهؤلاء بالبريطانيين الأحرار ... يحرسون المتاجر والمساكن الإسلامية ، والمساجد بالطبع . خرجت كتيبة مشاة من ثكنات لوكهيد رغم تعارض ذلك مع تعليمات قادة الجيش ، ذهبوا إلى الأحياء الشعبية بشرق المدينة ومعهم أسلحة آلية أخذوها من مستودع أسلحة اقتحموه ... حاولوا بحسن نية أن ينظموا عملية توزيع حصص الدقيق للخبز المشاع فى الشوارع . الشمعة ـــ حينما تجدها ـــ تباع بعشرة جنيهات . كثيراً مايتم تحطيم الأمتعة ، والأثاثات وواجهات المحال الخ لإيقاد النار بالشوارع . الطين المجمد اليوم فى كل مكان ، والناس ينزلقون ويسبون . انزلق خفير من البريطانيين الأحرار خارج الدورشستر وسقط على مؤخرته ، فانطلقت رصاصة من سلاحه بمحض الصدفة لتصيب إمرأة فى مقتل . وتبين أن هذه المرأة هى الليدى بلتشر ، زوجة أحد كبراء مجلس النقابات . قامت الدنيا ولم تقعد ... تواترت الأخبار عن أن الدبابات تهدر مدمدمة عبر شوارع بيرمنجهام . بالتأكيد سيهبط

المزيد من الأسلحة في مطار هيثرو وغيره من المطارات . لا أستطيع الحصول على أخبار كثيرة من الأقاليم إلا عن أحداث الشغب والقتل وتسرب أنابيب الغاز والانفجارات وتجمد موارد المياه ... مناقشة ساخنة مع الكول . ل . عن كذبه عليّ حينما قال لي إن الطلقات فشنك ... ويقول لي : أمقت العنف ولكنك ترى الموقف ... وترى أيضا أنه لا يمكن الوصول إلى حل وسط في مسألة المسجد ... أقول إن نهاية الإضراب في أيديكم وأيدى رؤسائكم ، أيا من كان هؤلاء الرؤساء ، إلغِ القوة العاملة للبريطانيين الأحرار والتى حلت محل المضربين ، ودع العمالة النقابية تتولى الأمر . فيقول : إذن فهذه وجهة نظرك هه ؟ لقد تغيرت والله ... لم أتغير ، ولكننى كنت دائماً مؤمناً بحد أدنى من الحماية النقابية ، إننى ، أولاً وأخيراً ، عالم تاريخ ، ولكننى أعترض على الجمود ، يقول : كلمة واحدة ، لا إمكان للحلول الوسط ، فالقادة المسلمون لن يتقبلوا العمل النقابى ، ويجب أن نجعل زعماء النقابات البريطانيين يعرفون الحق . فتساءلت : يعرفون الحق بفوهة المدفع ؟ لا تعجبنى هذه الحال على الإطلاق ..

حادثة غريبة في ميدان بيكاديللى . ظهر ابن دفلين ، موديل « بيل رمز العمال » ، في الميدان بجوار تمثال إيروس . كان يرتدى ملابسه التى يظهر بها في الصورة ، فلا يعرف إلا كرمز للعمال ... في حالة من السكر البين ، خلع ملابسه رغم برودة الجو ، وانغمس في التقافز في حركات شاذة وهو يقول : يسقط العمال اللواطون . ملصقات بيل تم تشويهها في جميع أنحاء المدينة . أحدثت بها ثقوب كبيرة وكتب عليها بالبخاخات كلمات بذيئة . شهقت في وجهى إمرأة قابلتها في الشارع باكية وهى تقول : لابد أن تفعل شيئاً ، يجب أن أذهب إلى دارلنجتون ، وليس معى نقود ، أشياء فظيعة تحدث في دارلنجتون كما يقال لى ، ابنتى المتزوجة هناك ، وأنا شديدة القلق عليها . أعطيتها تصريح السفر الخاص بى والذى صدر في عزبة كروفورد . أبيض لكنه موقع عليه ، أخذته وهى تكاد تسجد امتنانا . حقيقة ياللسخافة ! لا قطارات متجهة شمالاً تسير بعد ليمنجتون ، يحصنها البريطانيون الأحرار ! تصريح السفر قد لا يكون له فائدة على الإطلاق ... لكن أى شيء عليه الشعار الملكى — كما على التصريح — وصادر من هيئة الدولة للسكك الحديدية ، هو بمثابة طلسم سحرى للسلامة والاستقرار ... قد تستطيع استخدامها ذات يوم هذه المرأة المسكينة .

تذكرت صبيان الكومينا حينما قالوا لى — منذ زمن يبدو بعيداً — عن ال . ج . س ، أو الجامعة السرية ، رأيتها تعمل اليوم فى سوبرماركت محطم ومنهوب عن آخره ، الأدب اللاتينى يدرس لعصابة من الشبان الشرسين تستمع فى انتباه . توافد مدرسو المدارس الثانوية المضربون للاحتجاج على هذا التعليم المفسد للإضراب ، فعلمهم طلبة ج . س . كيف يكون العنف مطلوباً بل وضرورياً لحماية حق الإنسان فى تعلم فيرجيل وهوريس ... حركة دموية : جستا سنجوينا .

اليــوم الثالــث :

من المؤكد أن الحكومة الضعيفة أصبح لا وجود لها . تحدث أمس مستر شين رئيس الوزراء ، فى « راديو البريطانيين الأحرار » ، وطلب من كلا الطرفين ضبط النفس ، فعلى السلطات الإسلامية ومجلس النقابات تهدئة التعصب . اليوم انتشرت بسرعة كبيرة أخبار بأنه استقال وأن الملك لم يطلب إلى أى أحد آخر تشكيل حكومة جديدة . لا فرق . إن ذلك يثبت بصفة قاطعة أننا لم يكن لدينا حكومة فى تاكلاند إلا بغرض التظاهر بتأخير القوانين التى يطالب بها مجلس النقابات . الموقف الدستورى مثير للاهتمام ، مع هذا ... هل من حق الملك أن يترك البلد بلا حكومة ؟ الأمر التقليدى هو أن يطلب إلى عضو من أعضاء حزب الأغلبية ، عادة بتزكية من رئيس الوزراء المستقيل ، أن يتولى رئاسة الحكومة ، وأن يعيد تشكيل مجلس الوزراء . هل ستكون الخطوة القادمة خلع الملك وترقية مستر بتيجرو رئيساً « مؤقتاً » للدولة ؟ نهاية الدستور .

المطلب يتزايد فى الشوارع أن يغادر العرب بريطانيا ، خاصة حول موقع مسجد ش . ج . سميث والسفارة العربية المتحدة ... تخلصوا من العرب الهمج الأقذار الخ ... شغب عنصرى على نطاق صغير ، ربما يتفاقم فيما بعد ... البريطانيون الأحرار يستخدمون الأسلحة علناً . ثبت أن قصة الدبابات فى بيرمنجهام قصة مختلقة لا أساس لها . مجرد ناقلات من طراز برن من أيام الحرب العالمية الثانية . بداية أزمة طعام فى الدورشستر .

شائعات متواصلة من الساحل الشرقى عن طائرات عربية أو على الأقل طائرات عليها النجمة والهلال المنجلى ــ تومض فى سماء الشتاء محاولة الهبوط ولكن قوات حلف الأطلنطى تطاردها بعيداً . شيء أغرب من أن أصدقه ... قاذفات قنابل ! حاملات قوات ! لن أصدق أى شيء من هذا الهراء .

اليـوم الـرابـع :

الجوع ، الفوضى ، الطين المتجمد يذوب فى كل مكان مخلفاً بقايا وأطلالاً لا تجد من يجمعها . مواسير المياه تنفجر ، تحذيرات غير رسمية من تلوث مياه الشرب ، انفجارات الغاز ، قلق بين البريطانيين الأحرار . اليوم يوم قبض الرواتب ... طوابير العمال مصطفة أمام مراكز البريطانيين الأحرار فى التاسعة بالضبط ... تم التصريح بقرار تأجيل الدفع لعدم وجود نقود سائلة ... عنف ... زعيم عربى يتحدث الإنجليزية بلهجة أوكسفورد فى مؤتمر أقيم فى قاعة الرقص بالدورشستر (اسمه عيسى طاع الله ؟ أشك فى صحة الاسم) . تحدث أنه على دراية بعدم شعبية العرب والمسلمين بصفة عامة فى بريطانيا التى يشملها الإضراب ... لكن الإسلام عرف العداء عبر وجوده الطويل ولا توجد نية لسحب الوجود العربى . كثير من الأموال العربية موظفة فى العقارات البريطانية ... بدا الشيخ مضطرباً فى نظارته السوداء التقليدية ، وسيجارته بمبسمها الدانهيل التى يشغلها له معاون يرتدى بذلة بنية . داخلنى انطباع بأنه كانت هناك مناقشة خطيرة حول أن يتولى السلطة اتحاد إسلامى تحت قيادة سلطان أو خليفة أو رئيس ، بما يتماشى مع تعاليم الرسول ، وذلك لغرس راية الإيمان فى بلاد المشركين غير أنه خيف من معارضة الاتحادات الاقتصادية للولايات المتحدة التى لها مصالح اقتصادية أساسية ، وإن كانت متضائلة ، فى بريطانيا . كلام كثير عن شيء اسمه ت . ج . ق . لم أفهم فى البداية ، ولكنى عرفت أن الحروف ترمز إلى « تجربة جزر القناة » لا أستطيع أن أصدق مطلقاً ما يقال لى ... فقد قامت ــ فيما يبدو ــ قوة جزائرية تتحدث الفرنسية بالتجمع فى « أفينيون » و « أورانج » منذ شهور تدعمها أموال سعودية . استولت على السلطة فى جزيرتى الدرنى وسارك ، وتم

تكميم الصحافة والإذاعة ، فلم يتسرب أى خبر إلى أراضى البر الرئيسى فى فرنسا أو إنجلترا . فرض القانون الإسلامى بالقوة : إغلاق البارات ، سكب البيرة وبراميل الخمر فى الشوارع ، السوائل الذهبية تخر فى البالوعات ، تحريم لحوم الخنزير وسائر منتجاته ... تحويل الكنائس الكبرى إلى مساجد ، تحويل المسيح إلى عيسى النبى ، آخر الأنبياء العظام قبل محمد ، ولكن لا أكثر من هذا ... عداء كبير من جانب مواطنى جزر القناة . أصبح الدم يسابق الخمر فى التدفق إلى البالوعات ... إذن ... إنه الحلم الذى رأيته ! النتيجة العامة أن التجربة قد باءت بالفشل . إن التحويل بالقوة شىء لا يمكن تطبيقه ... نجحت الحكومة الفرنسية فى إقناع تطبيقه ... نجحت الحكومة الفرنسية فى إقناع السلطات فى الجزيرتين بتكتم الحادث ، منعاً لإحراج الفرنسيين . ياالضآلة ما نعرف ! ويالضآلة مايصلنا من أنباء ! يبدو من غير المحتمل على أية حال أنه سيتم فرض الإسلام هنا . فى العجلة الندامة : فستينالينتى .

اليــوم الخامــس :

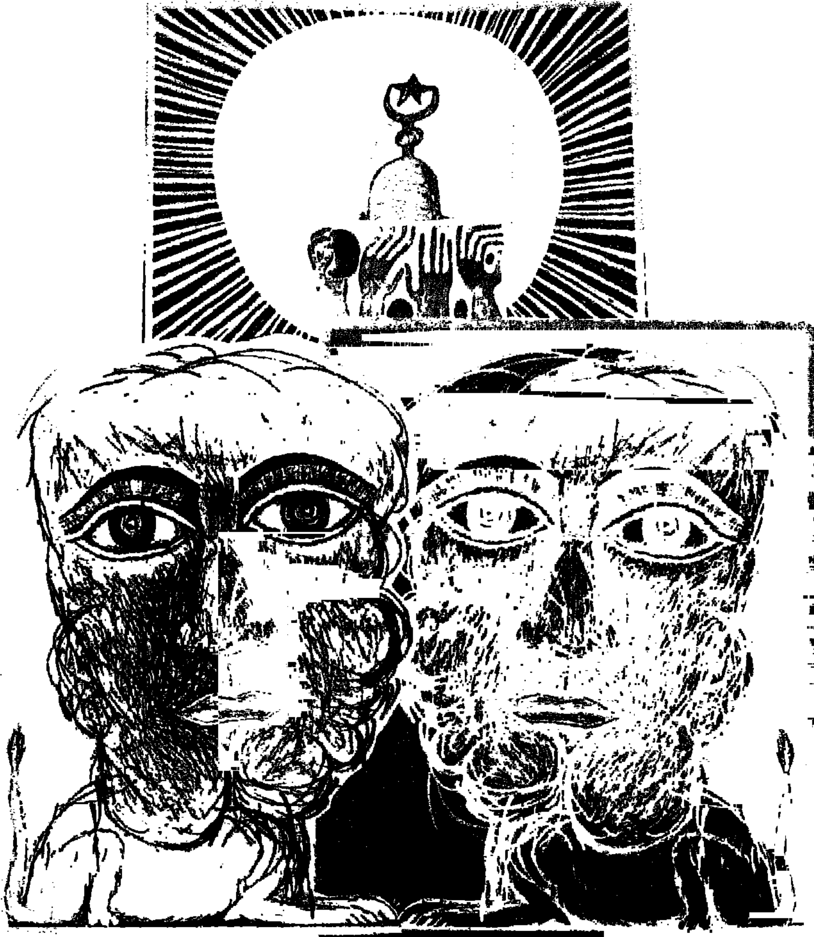
حادثة فظيعة جداً اليوم وشجار عنيف مع كول . ل . خمسة أو ستة من عمال المسجد أرادوا أن ينهوا العمل . كرهوا أن يسيروا من الثكنات وإليها وأن يصاح فيهم وأن يسبوا ويهددوا بالعنف . أرادوا العودة إلى صفوف عمال نقابة الإنشاء وترك البريطانيين الأحرار . سير بهم تحت حراسة مشددة ولم يظهر لهم أثــر بعــد ذلك . أردت أن أعــرف مــاذا حــدث لهــم ... كول .ل . يعرف لكنه لا يريد أن يخبرنى ... قال لى إن الإجراء التأديبى ضرورى ضد المخالفين فى أى جيش ، أى نوع من الإجراءات التأديبية بالضبط قد تم اتخاذه ؟ كنت أريد أن يعرف ، ومازلت ... قال لى لا يهم ، لقد عوقبوا ... فالتمرد غير مسموح به بالمرة ... هل ضربوا بالرصاص ؟ لا ... بالطبع لا ... نحن لا نرمى رجالنا بالرصاص . لكن هؤلاء ، كما قلت له ، ليسوا رجالكم ، مجرد رجال يريدون أن يرتزقوا ، قل لى ، أريد أن أعرف . ليس من حقك أن تعرف ، آن الأوان لكى تؤدى يمين الولاء ... قلت له قل لى ، وليذهب قسمك اللعين إلى الجحيم ! لا تسب ياملازم جونز الخ ..

قررت أن أخرج ، وبهدوء .

أستطيع أن أنضم للصوص ، للأموات ... أدرس التاريخ فى إحدى الجامعات السرية ... هناك فوضى كبيرة الآن ... اختلاط فى أطراف الصراع ، عدم تمييز بين حدوده ... بندمج البريطانيون الأحرار مع المضربين (بعد أن تخلصوا أولاً من الزى الرسمى وارتدوا ملابس مدنية مسروقة) وذلك ليستعيدوا جزءاً من الكرامة الإنسانية ... كثير من المضربين يريدون العودة للعمل ... ثمة رغبة جماعية قوية فى قطعة لذيذة من اللحم ، جلسة هادئة مع زجاجة بيرة ، سهرة أمام التليفزيون ... خطباء النقابات فوق السيارات (التى ندرت الآن ، لأزمة البترول) يسكتهم الناس بصياحهم المعادى ... ولكنهم ، بالطبع ، يحيونهم أيضاً . يعمل عمال المساجد فى وجوم ، يشرف عليهم ضباط الصف الذين يحملون المسدسات ولكنهم يستخدمون الهراوات ..

هذا الداء لابد له من دواء ... ماهو ؟





١٧ • صاحب الجلالة

كانت الليلة الثالثة عشرة من الإضراب العام هى ليلة الحرائق الكبرى ... أولئك الذين كانوا يظنون أن « أتباع الرسول » هم سبب هذه الحرائق ثبت خطؤهم حينما رأوا مشهد الدمار المشتعل للمبنى المخصص للثقافة الإسلامية العامة فى الاستراند . ذلك المبنى الطويل الرفيع ذى القمة الحادة ، الذى بلغ من رفعه أن أسماه العرب « مبرد الأظافر » . اتضح لدى الكثيرين لماذا تدعم الأموال العربية البريطانيين الأحرار ... إنها تدعمها تحسبا للأوقات العصيبة مثل وقتنا ، حيث يمكن حماية الممتلكات العربية أو إنقاذها من الدمار بواسطة جماعة لا ترتبط بالمواثيق النقابية . بالطبع لم يقطع مرفق المطافىء إضرابه لكنه جعل أجهزته متاحة لمن أرادوا أن يطفئوا الحريق ، رغم تذمر رجال المطافىء من هذه الفوضى . نستطيع القول بأن البريطانيين الأحرار دفعوا لإطفاء الحريق « على أسنة الرماح » . ولكن عند منتصف الليل ، حينما بلغ الحريق أوجه ، بدأت النقود فجأة فى الظهور من جديد ، من مصادر مجهولة . وتراصت الصفوف للقبض فى الشوارع ... أكلت النار بعض هذه الأوراق المالية للأسف ، ولكن على أية حال فقد بدأ مقاومو الحريق يقومون بمهمتهم برغبة أشد في العمل ، وإن لم يكن بخبرة أكثر .

« الجيش الجمهورى الإيرلندى » وراء الحادث بالطبع ، ولكن هل هذه العصبة من الساخطين إلى الأبد وبلا مبرر هى أيضاً التى أرسلت الطائرات قاذفة القنابل ؟ من الواضح أن حرائق اليوم الثالث عشر قد أشعلت باليد ، غير أن حرائق الثانية والنصف وخمس دقائق من صباح اليوم التالى ، تلك الحرائق التى دمرت منطقة إصلاح السفن ، بل والتى أشعلت النيران فى بعض الشاحنات الساكنة على نهر التيجر هى حرائق جوية المصدر . يقول الخبراء إنه لم يوجد فى التاريخ سوى طيار إيرلندى واحد (وهو الذى ذكره وليام بتلرييتس فى قصيدته الشهيرة !)

الجيش الجمهورى الأيرلندِى جيش برى أساساً ، فمن أين يتأتى لهم المال لشراء طائرات تقذف بالقنابل ؟

ومن فرط تحير أهل لندن واضطرابهم ذهبوا فى صبيحة اليوم الخامس عشر إلى ميدان ترافالجار ، يحثهم داع خفى لا يعرفون كنهه . فهنالك الساحة التقليدية التى يمكن فيها لمشاعر الحزن والقلق أن تجد متنفساً تعبر به عن نفسها ، ولأحاسيس الغضب والاستياء أن تعلن وتذاع ، ولكلمات التهدئة والطمأنينة أن تصدر على لسان هذا الزعيم أو ذاك .

ثمة تمثال لأربعة أسود طيعة تربض فى سكينة ، وفوقها عالياً يقف بطل المعركة البحرية الكبرى ذى العين الواحدة ، والذراع الواحدة ، (وكما قال السوقة ــ العجيزة الواحدة !) بدا وكأنه يشرب الهواء الذى يشبه اليوم الدخان المتجمد . وقف بف على تخوم الجموع المحتشدة المتذمرة المرهقة الجريحة ، كأنها خارجة من صراع مع المرض . تساءل بف ، هل له أن يستخدم هذا التعبير ؟ متكدسون معاً ، وصابرون فى تذمر ... يحدوهم الأمل ــ مع هذا ــ فى شىء ما ... لم يقف إلى الآن أحد على قاعدة التمثال ... لكن بالطبع لا أحد يعرف أى شىء بصفة رسمية ... كانت هناك شائعات قوية عن وجود اجتماع هنا ، لكن الشائعات ليست إلا أصواتاً فى الهواء ... مكبرات الصوت تصدر أصوات أبواق مكتومة إلى أركان الميدان ... قال فى نفسه : ياله من هدف رائع لمجموعة من الطائرات قاذفة القنابل ... لكن السماء صافية وخالية ... رأى بف مستر بيتجرو وسط الزحام ، مع عدد من زعماء النقابات المتجهمين ... ماذا يمنعهم من أن يصعدوا ويبدأوا خطبة بليغة عن أى شىء ؟ لكن الجميع فى انتظار شىء ما ... السماء تملؤها الحمامات التى تمطر الجماهير بوابل من فضلاتها أو تحاول عبثاً أن تقوم بعملية هبوط على مستوى منخفض . صيحات تشجيع ساخرة حينما يصيب أحدهم حمامة ببندقية ضغط هواء فيرديها قتيلة ، وأيضاً صيحات تذمر أن دعوا الطيور البريئة وشأنها . ثم سمع صوت حفيف وخشخشة وهمهمة ترقب وتشكك متصاعدة ، هناك سيارات آتية عن طريق مول ... من كان رشيقاً خفيف الحركة بين المنتظرين قفز على قاعدة التمثال ليلقى نظرة ، وصاح أحدهم :

إنه الملك !

ضج الجميع بالضحك ... لم يصدق أحد ... بعد ذلك بدأ البعض يصدق ، وسرعان ماآمن الجميع ... وبدأت الهتافات ، وبدأ بعض الأطفال الأشقياء بجوار بف فى الغناء :

ليحفظ الله « قطنا » الكريم
يمسح بطنه بدهن الخنزير
ليحفظ الله قطنا ..

دلفت الرولزرويس الملكية إلى الميدان فى رفق ، يرفرف عليها العلم الملكى ، وراءها مركبة أخرى لا شىء عليها ، فتحت أبوابها أولاً ، ليقفز منها فنيون يرتدون زيا موحداً عليه الشعار الملكى ... لماذا لا يضرب هؤلاء الأوغاد كما أضرب الأوغاد الآخرون ؟ إنهم من الحاشية الملكية وغير مسموح لهم بالإضراب . لهم الإعدام لو فكروا فى هذا ... تم تركيب الأسلاك والكابلات . انفتحت السيارة الملكية ليهبط منها صاحب الجلالة الملك تشارلز الثالث ... ذهب إلى قاعدة التمثال يحرسه رجال نحفاء ذوو شوارب يرتدون زياً داكناً بنى اللون ... وضع ميكروفون فى يد الملك ذات القفاز الصوفى ، يرتدى معطفاً من صوف الملتون الناعم القريب من زى رجال البحرية ... انطلقت هتافات ترحيب وهتافات عداء ... ابتسم الملك ، أذناه حمراوتان من البرد وتكلم والجميع منصتون :

ـــ أعتقد أن ماأفعله الآن يخالف القانون ، لكنه مما يلفت نظرى أننا جميعاً قد خالفنا القانون فى الآونة الأخيرة . إن ماأعنيه هو أننى ليس لدى أى حق دستورى فى أن أقف هنا وأتحدث إليكم ... أى أن الملك من المفترض أن يكون مجرد رمز للدولة ، ليس له أن يقول إلا ماتخبره حكومته أن يقوله ... ولكن المشكلة هى أنه لا يبدو أن لنا حكومة الآن ... هل رأى أحد منكم حكومة فى الفترة الأخيرة ؟ كنت أبحث تحت سريرى هذا الصباح ، وعلى كثرة الأشياء التى وجدتها هناك ، لم يكن من بينها « حكومة » ما .

قال بف فى نفسه : إن الملك لا ينبغى أن يفعل ذلك ... لا ينبغى أن يطلب الضحكات ... لكن هاهو ذا يحصل عليها ... متى نتعلم ـــ نحن البريطانيين الأقذار ـــ أن نأخذ الأمور بجدية ؟

ومضى الملك :

ــ وبما أنه لا توجد حكومة ، وبما أننى من الناحية الدستورية رئيس للدولة ، فقد رأيت أن أظهر لألقى كلمات قليلة ... عموماً لا يوجد عمل الآن وتستطيعون جميعاً تمضية الوقت بالاستماع إلىّ . لا تحسبوا أننى سأتكلم طويلاً ، لكن هناك شيئاً محدداً يجب أن أقوله . وهو أن الطبيب الخاص بالملك خائن للإضراب . فقد قام بكسر الإضراب صباح اليوم بما يتعارض مع أوامر رؤساء العمل فى الجمعية الطبية البريطانية . وأنا الذى طلبت منه هذا . كان يجب أن أفعل ذلك ، فزوجتى ــ أى الملكة ــ على وشك الوضع أى أنه فى أية لحظة الآن سيكون لدينا فرد جديد فى العائلة ، وسنسميه بيل .

تعالت الصيحات المتعاطفة مع الملك ، غير أن رجلاً ضئيل الجسم بارز الذقن يرتدى نظارة ، صاح من موقفه أمام بف تماماً :

فم لعين جديد ... علينا أن نطعمه !

فقال الملك مضطرباً :

ــ أقصد ... شكراً جزيلاً لهذا التعبير الوفى لـ ... إن ماأعنيه هو أن هذا الهراء (معذرة للغتى الفرنسية ... قد أستمر طويلاً جداً) أعتقد أن الوقت قد أزف لنعود كلنا للعمل .

(هتافات تشجيع ... وهتافات سخرية)

ــ ولست « أطلب » فقط من قوات البحرية والجيش والقوات الجوية أن تعود للعمل ، وإنما آمرهم بهذا ، وإذا استنكفوا أن يكون الملك هو قائدهم الأعلى ، فمن الأفضل أن يكفوا عن تسمية أنفسهم بالقوات الملكية الكذا والكذا والكذا ... حسن ... فليتحركوا بسرعة ، وإذا لم يتحركوا وبسرعة فإنهم سيعتبرون متقاعسين عن أداء العمل الذى يؤجرون عليه ، ألا وهو حماية الوطن . أنظروا إلى ما حدث الليلة البارحة وقبل البارحة ... البلاد كلها مفتوحة المصراعين أمام كل من هب ودب ... إننا لسنا « طراطير » لا نفهم شيئاً ، لسنا مغفلين كلنا لهذه الدرجة ، بعضنا يعرف تماماً ماذا يحدث ... مثلاً ، هناك حكاية تلك المجموعة من المركبات الحربية الضخمة التى جاست فى مياه المحيط حول

شواطئنا ، وهي ليست مركبات « أتباع الرسول » ... لا لا ... وهناك قصة حاملة الطائرات التى اكتشفت بجوار « كرومارتى » والعرب لا يميلون إلى هذا النوع من الأسلحة . تعرفون جميعاً من الذى أرسل هذه الأشياء ... لا ... ليس الجيش الأيرلندى ، ولا نعتقد أيضاً أن أصدقاءنا الأمريكيين هم الذين يرسلونها تبعاً لالتزامات اتفاقية حلف شمال الأطلنطى ... فهناك كثير من المصالح التجارية الأمريكية فى هذا البلد بالذات ، وهذا معناه كثير من العملة الصعبة الأمريكية ... فلا نعتقد أنهم يريدون بدء الصدام مع هذا البلد بالذات ، فهو بلد مفيد جداً ، بلد من البلاد القليلة فى العالم التى لا يضرب فيها العمال !

(صيحات استهجان وتشجيع وضحك) ، ويمضى الملك :

— على أية حال فإننى أريد أن أرى الشبان ذوى الزى الأزرق والكاكى وهم يهبون في انتباه ويطيعون الأوامر ويستأنفون القيام بوظائفهم . نعرف جميعاً أن ثمة جيشاً صغيراً يتجول بيننا ، وبفضل جيشنا لا حاجة بنا إلى الجيوش الخاصة ، وأشكركم شكراً جزيلاً .

« إذن فهذه المنظمة منحلة منذ الآن فصاعداً ، وأى إنسان ينتمى إليها وفى حوزته أسلحة أو زخيرة عليه التوجه إلى أقرب قسم بوليس وتسليم ما معه ، ومعنى هذا أن على رجال الشرطة الشجعان العودة لعملهم منذ اللحظة التى أهبط فيها من قاعدة هذا التمثال ... وبالنسبة للمشروع الذى كان يتم فى شارع جريت سميث ، محل مكتب المستعمرات القديم وموقع المسجد الجديد الآن ، فهذا المشروع من الآن فصاعداً من اختصاص النقابة ... البارحة تناولت العشاء مع صديق أو صديقين من العرب ، كان الطعام شاه بأكملها ، أعطونى منها العين ، التى يعتبرونها أشهى جزء . فى الحقيقة لم تكن لذيذة ، فانتهزت فرصة غفلتهما عنى وخبأتها فى جيبى ، ولا تزال معى فى مكان ما ... لا يهم ، المهم أن المسجد قد يكون مكاناً مقدساً ، لكنه وهو لا يزال حجارة وبلاطاً لا يختلف عن أى سوبر ماركت أو حمام عمومى ، وإن كان أكبر منهما بالطبع . حينما ينتهى بناؤه لهم أن يعتبروه مقدساً كما يشاءون ... أما الآن — كما قلت لهم — فمعذرة ، فأنتم تعرفون المشاكل التى تحدث حينما نبدأ فى عمل استثناءات للقاعدة ... ولقد تَفَهَّمُوا الموضوع تماماً ، إنهم رجال مهذبون فى الحقيقة ،

وسوف يدعوننا نسير الأمور بطريقتنا الخاصة ... أعرف أن بعض الكلمات الحادة قد تبودلت فى الآونة الأخيرة ، لكن كلا الطرفين قد قام بالاعتذار وتقبلت الاعتذارات وتمت تسوية الأمر ... وإن لم تكونوا مصدقين فألقوا نظرة على شارع جريت سميث وستجدون كل شيء هادئاً وطبيعياً ، ولا أحد يقوم ولو بضربة قدوم » ..

« يجب علينا أن نقضى على كل مشاعر الكراهية بين الأجناس المختلفة . ماكان ينبغى فى الحقيقة أن أضطر لأن أقول لكم هذا ، ولكن السلام العالمى فى المستقبل كما تعرفون سيعتمد على احترام كل إنسان للإنسان الآخر ، مهما كان لونه أو عقيدته ، وأنتم لا تفضلونهم فى هذا . أعنى أن العِرق لا يساوى كثيراً فى الحقيقة ، وحينما أفكر فى الاختلاط العرقى فى عائلتى تدور رأسى : استكلندى وألمانى ويونانى ويعلم الله ماذا أيضاً ، وسيكون فى هذه العائلة إسرائيليون وعرب ، إذا أتيح لهذه الأعراق أن تستمر وتنجب رؤساء دستوريين للدولة وما شابه ذلك . لكن هذا كله يعتمد عليكم ... كل شيء يعتمد عليكم ، وهذا هو معنى الكلمة الكبيرة : الديمقراطية » .

« أعتقد إذن أن كل شيء الآن يجب أن يكون على مايرام والليلة ــ كما قيل لى ــ سيبدأ الإرسال التليفزيونى . بالطبع ليس مطابقاً لما هو منشور فى « دليل التليفزيون » أولست أدرى ماسمه . وعموما فأنا لا أشتريه إطلاقاً ، وإنما أفتح الجهاز وأشاهد الموجود ، وعموماً أذهب للنوم . على أية حال ستعرض قناة بى بى سى الأولى الليلة فيلم « ذهب مع الريح » كاملاً . وأعتقد أن هذه ستكون سهره ظريفة نقضى بها الأمسية . طبعاً نحن نحتاج إلى شيء من الكهرباء ، ولا شك فى أننا سنجد الكهرباء بحلول وقت الغذاء » .

« هذا هو كل ما أردت قوله ... وأظن أننى سيجرى علىَّ حكم الإعدام الآن ، ولكن لست أدرى من الذى سينفذ الحكم ، ونحن لا حكومة لدينا بعد ؟ ... لا عليكم » ..

وفجأة همس له أحد الرجال ذوى الشوارب برسالة ... تهلل وجه الملك بفرح طفولى وهو يستمع إليه ، ثم قال لرعاياه :

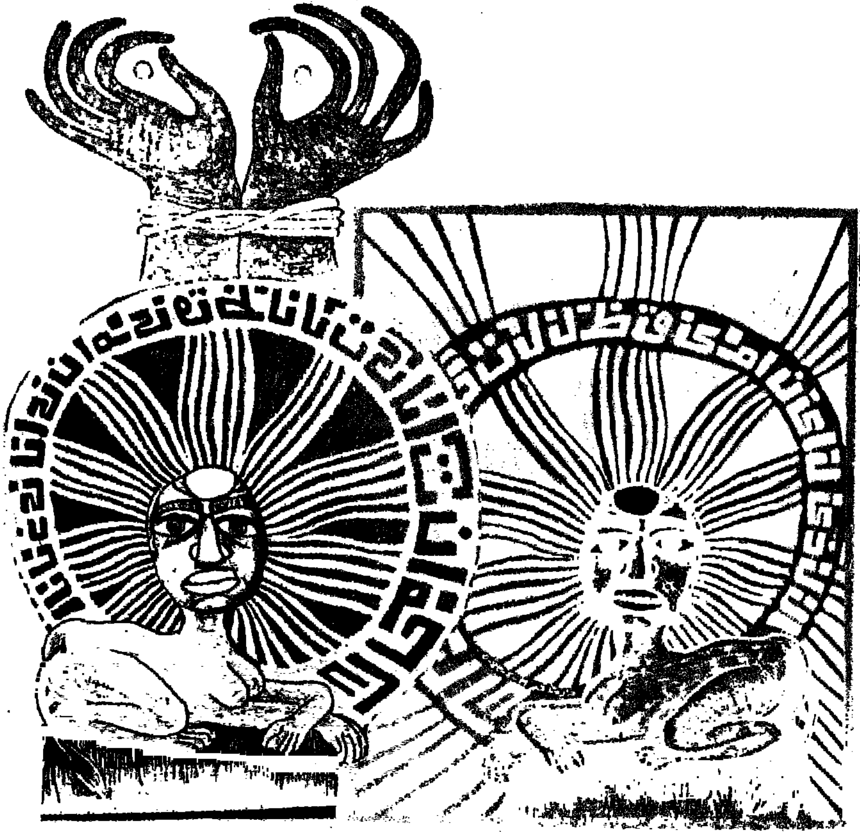
ـ أخيراً ... أصبحت أباً ! ولد ... ولد جميل ، والطفل والأم فى حالة جيدة ... بارك الله فيكم جميعاً !

لوح للجماهير بيده ذات القفاز الصوفى ونزل من على قاعدة التمثال ... سائق السيارة فاتح بابها فى انتظاره ... سارت سيارته برفق وسط الحشود التى أخذت تغنى فى حماس مع انطلاقة السلام الوطني من مكبرات الصوت :

إجعلـــه مظفـــــراً
وسعيـــداً ومجيـــداً
ومد له فى حكمه
ليحفظ الله ..

كانوا يغنون بلغة عمال متقنة [النطق المعيارى للغة العمال ، منطقة نهر التيمز] ... ثم تركز تفكير الجميع فى إمكان العودة للعمل ..





١٨ • مشيئة صاحب الجلالة

قال القاضى آشتورن العجوز ، وهو يرأس كالمرة السابقة المحكمة رقم ٣ :
ــ ياجونز ، لقد مثلت أمامى قبل ذلك مرة واحدة على الأقل ..

فقال بف مصححاً :
ــ مرة واحدة على الأكثر :..

فنهره كاتب المحكمة بكحته وصوته العالى :
ــ احفظ لسانك ياجونز .

بجواره تجلس المساعدة ، إمرأة عادية مستوية الصدر ترتدى قبعة من الجوخ الرمادى ، غير أنها لم تكن نفس المرأة التى رآها المرة السابقة ... همست بشىء فى أذن أشتورن ، فأومأ برأسه فى تجهم ثم قال :
ــ يبدو أنك للآن لم تراجع معايب سلوكك بما فيه الكفاية ... تحت يدى تقرير عن تمردك ورجعيتك و ... ماهى الكلمة ؟
ــ و « مرضك بالإجرام » ... أشم فى ثنايا كلامك رائحة مستر بتيجرو العظيم ..

تأفف أشتورن ضيقاً واستهانة ثم قال :
ــ لقد منحناك كل فرصة ... كل فرصة ... ومع ذلك فلا تزال كما يصفك التقرير أمامى ... ماذا لديك لتدافع به عن نفسك هذه المرة ؟

فصاح فيه كاتب المحكمة معنفاً :
ــ بسرعة ياجونز ... لدينا أعمال كثيرة يجب إنجازها .

— طبعاً ... فلابد أن إضراب موظفى المحاكم قد ترك أمامكم تلاً من القضايا المتراكمة ، وبالمناسبة أقدم لكم تهنئتى على المكافأة الأخيرة فى مرتباتكم . معذرة ... حسناً ، فإننى أود أن أعبر عن شعورى بالرضا هذه المرة لأننى أحاكم بسبب سرقة حدثت فعلاً ، وليس محاولة سرقة فاشلة كالمرة السابقة ... إن خمر بودل — ياسيادة القاضى — خمر من نوع ممتاز ولقد استمتعت بها حقا . وأود أيضا أن أقول إننى لا أقبل قضاء هذه المحكمة ... لقد أصبح النظام القضائى البريطانى بكل فروعه مجرد أداة قانونية فى يد نقابية الدولة . أضف إلى هذا ..

فقاطعه أشتورن :

— كل هذا فى التقرير أيضاً ... وهو كلام لا صلة له بالموضوع ، ولن أقول يتسم بالوقاحة ..

— حسناً إذن ... فإننى أعلن اعتراضى على الحكم الذى « فرض عليك » أن تنطق به ..

— إنك لا تعرف أى شىء ياسيد عن الحكم حتى يتم النطق به ... وأعتقد أنك تكلمت بما فيه الكفاية ..

همست المساعدة بشىء فى أذنه فقال :

— نعم ... نعم ... موافق ..

ثم قال لبف :

— بل تكلمت بأكثر مما فيه الكفاية ... حكمت المحكمة باحتجازك فى إحدى مؤسسات الدولة لمدة تتوقف على مشيئة صاحب الجلالة أى إلى أجل غير مسمى .

— كنت أعرف الحكم قبل أن تنطق به ... أنا أحتج .

فصاح الكاتب فى الشرطى المرافق لبف :

— خذه ..

* * *

مسافر صوب الشمال فى سيارة مغلقة ، قال فى نفسه إنه لم يسء فى الحقيقة إساءة كبرى فيما فعل ... بجواره يجلس ممرض بمعطف أبيض ، وبجوار

السائق يجلس ضابط مرشد ... الوقت ربيع ، تقريباً يوم ميلاد شيكسبير ... فقد عاش بف إذن شتاء قاسياً بأكمله ، حراً وإن لم يكن نظيفاً . لكنه لم يستسلم لذلك الكلب ... فهل يعتبر الآن خاسراً للمعركة ؟ كلا ... فهو قد ظل خارج أى نقابة رغم كل توسلاتهم وهراواتهم ... يستطيع أن يعيش حراً داخل محيط ذهنه الواسع ، ولقد كان يعرف تماماً ما الذى سيحدث له ، أفاق على صوت الممرض وهو يقول :

ــ ها هى ذى ... س أ ــ ٥ ، التى كانت قلعة بيرفلت ... استمع إلى تغريد الطيور ، وأنظر إلى زهور النرجس والخضرة اليانعة ..

انفتح باب السيارة فقال الممرض :

ــ إنك سعيد الحظ لأنك جئت إلى هنا ولم تذهب للسجن .

ــ كل إنسان حر أن يدخل ، مادام عاقلاً !

فقال الضابط فى حزم :

سد هذه البالوعة ... انزل من السيارة وادخل ..

سلمه الممرض ذو المعطف الأبيض إلى رجلين آخرين بمعطفين أكثر بياضاً ... فى أيديهما سجلات المرضى وعلى وجهيهما عبوس الإرهاق من فرط العمل ... أرسل بف للفحص الطبى : « هيا ، يجب أن نرى بوضوح .. »

ــ فقر فى التغذية ، نقص فى الوزن ، ضعف فى الصحة البدنية العامة ، بقع فى الرئة اليمنى ، القلب فى حاجة إلى العناية ، الأسنان حالتها مفزعة ، وحاجتك ماسة إلى حمام

وبعد النظافة وارتداء زى المؤسسة تم إجراء الكشف على عقله بواسطة د. شيميل ، ود. كلبيرن ، والأخيرة امرأة ، شقراء ، كالحة ونحيفة وحادة الطبع . حاول أن يجعل الاختبارات خاطئة لكنه كان ثابتاً على خطئه بحيث إعتبروه سليماً ، وقال د . شيميل :

ــ ماحكايتك يارجل ؟ بإمكانك أن تعيش إنساناً عاقلاً سليماً منتجاً لو أردت !

ـــ أعرف ، ولكن سيكون معنى ذلك موافقتي على فلسفة الدولة بكل مافيها من جنون ومرض وكسل .

ـــ هذا أسلوب غير ديمقراطي ... إن تعريف الجنون هو رفض روح الأغلبية ... إن كلاً من أفعالك وأقوالك تنم عن الجنون .

هكذا قال الطبيبان وهما يقطبان ناظرين إلى الملف الكبير الذى صاحب بف فى رحلته ... سألهما :

ـــ ماذا ستفعلان بى ؟

لم يردا على سؤاله فقال :

ـــ اسمعا ... لست أدرى بالضبط ما خطئى ... لقد نشأت تحت نظام حكومى يعتبر قمة ما وصلت إليه قرون من الصحة العقلية الغريزية ... ولكننى رأيت العالم يتغير ، فهل علىَّ أن أتغير معه ؟

نظر كلاهما إليه نظرة الاقتناع الهادىء ، وكأن فى إلقاء هذا السؤال تأكيداً لجنونه . وقالت د . كلبيرن :

ـــ إنك جزء من هذا العالم ... غلطتك هى أنك افترضت أن الإنسان يمكن أن ينفصل عن الأشياء التى يلاحظها ... إن منشأ « اضطرابك العقلى » إذا ما تلطفنا فى التسمية هو أنك ترفض التغيير .

ـــ أنا لا أرفض التغيير الذى يعيد العالم إلى عقله ... إلى تقبل العدل ونقاء القيم حبا للروحية والجمالية .

فقال له الطبيب مشجعاً : « تفضل » ، فتابع :

ـــ تأمل الدستور البريطانى ، إننى أومن بأنه يجب تمثيل الشعب نيابياً كما كان الحال طيلة قرون . ليس لدينا الآن سوى هيئة تشريعية لمجلس اللوردات محشوة بنبلاء مجلس النقابات . أما مجلس العموم فآخذ فى الزوال . والملك ـــ كرئيس للهيئة التنفيذية ـــ يترأس مجلس وزراء مكونا من خريجى كلية المجلس السياسى . لقد اختفى مبدأ الانتخابات من سياستنا .

فقال الطبيب :

إن الشعب يختار ممثليه من النقابات ... أليس فى ذلك الكفاية من العدل ؟

ـــ لا ... لأن الحياة أكبر مما يسمى الآن عملا ، أكبر من البحث عن الأجور العادلة وعن المجموعة المتضائلة من البضائع الاستهلاكية عديمة الفائدة رديئة الصنع لتنفق عليها هذه الأجور . إن الحياة هى الجمال والحق والكفاح الروحى ، والمثل ، والتفرد ..

فصدرت آهة من الطبيبين ... أحس بف بالتعب فقال :

ـــ لا فائدة ... لا فائدة ... لا فائدة . انسيا ما قلت ، كأننى كنت أخاطب جدراناً صماء ، افعلا ماينبغى فعله ، فأنا طوع أمركما .

* * *

« لا تدعهم يفلتون من العقاب » .

جاره فى العنبر كان فيما مضى خطاطاً محترفاً ، فجعله بف ينقش هذه الكلمات نقشاً جميلاً بالحروف القوطية (الصغيرة والكبيرة) على لوحة منزوعة من صندوق قمصان (قمصان المعهد ـــ رمادى ـــ وسط ـــ رقم ١٠) ، بعد تصريح من المشرف على العنبر ثبت بف اللوحة بالدبابيس فوق دولابه المجاور لسريره ... لم يتساءل أحد علام تدل هذه الكلمات ؟ فقد أخذت على أنها رمز لجنون بف .

الطعام بسيط ويفى بالحاجة ... وتجرى مباريات لكرة القدم والكريكيت فى الأراضى الفسيحة . بل إن هناك مكتبة قوامها كتب نجت من عمليات التصفية عندما استولت الدولة على القصور الأرستقراطية القديمة فى الريف . مجلدات من مواعظ القرن السابع عشر ، « المواسم » لطومسون ، أعمال بوب وكوبر ، « حقوق الإنسان » ، جون ميلتون ... لا شىء بعد عام ١٧٨٩ .

« لا تدعهم يفلتون من العقاب » .

لا أدع « من » يفلت بـ « ماذا » من العقاب ؟

نادراً مايأبهون لأبناء العالم الخارجى ... أحد النزلاء كان مذيعاً للأخبار بالتليفزيون ، وقد اعتاد فى أخريات أيامه ـــ فعلاً لا مجازاً ـــ أن يعلق على الأنباء التى يسردها تعليقات جانبية بذيئة ، أما هنا فقد قرر ألا يهجر مهنته ، فأصبح يثير

الشفقة حينما يعلق فى حجرة المعيشة الجماعية أحداثاً قد تكون من صنع الخيال وقد لا تكون ، فيقول مثلاً :

ـــ « يتصاعد التضخم فى بريطانيا بمعدل ٥٥٪ سنوياً ، وذلك طبقاً للتصريحات غير الرسمية التى أعلنها د. آرلانجر المستشار الاقتصادى للبنك الدولى فى مؤتمر للاقتصاديين الأمريكيين عقد فى شيكاغو . غير أن سلطات تاكلاند لم تعلق على التصريح سواء بالإنكار أو التأكيد » .

أو يقول :

« توصلت النقابة القومية لطلبة المدارس الثانوية العامة إلى تسوية ودية مع النقابة القومية للمدرسين بشأن تحديد صلاحيات المدرسين إلى مجرد النصح والإرشاد فى إدارة تعليم الدولة . وفى مؤتمر صحفى قال تيدسومز السكرتير القومى لنقابة الطلبة أنه سيتم الموافقة بكل ترحاب على مساعدة المدرسين فى وضع مناهج ذات مضامين أكثر واقعية من تلك السائدة حتى الآن ، غير أن الطلبة لن يعتبروا أنفسهم ملزمين بتنفيذ النصائح الموجهة لهم » .

فيصيح به صانع الأوانى مستر كولدويل :

ـــ أف ! أغلق فمك !

رافعاً رأسه عن مباراة الشطرنج التى يلعبها مع مستر كوبلر الإسكافى السابق ... غير أن المذيع يمضى قائلاً :

ومن بين المناهج الدراسية المقترحة فى المستوى الثانوى « التدريبات الجنسية ، والأدب الإباحى الصريح بالإضافة للأدب العفيف ، والرسوم المتحركة التى تحكى تاريخ النقابات العمالية ... »

ـــ أغلق فمك وإلا سحقتك !

لكن كولدويل يخاف مستر ريكوردى ويتقى عينه الشريرة ، وهذا الأخير رجل نحيف هزيل كان يدير مكتبة لبيع الكتب . يوجه ريكوردى نظرة من نظراته إلى كولدويل ، فيزدرد الأخير ريقه ويعود إلى مباراته البطيئة ... أو يقول المذيع :

تم تحويل « ذى آيل أوف مان » أو « جزيرة الرجل » إلى الإسلام وذلك بفضل جهود بنى محمد صالح بن عبدالله ، الذى كان اسمه من قبل « جوزيف

برجز » ، وقد تمت عملية الأسلمة فى سلاسة نسبية . وكان من المتوقع قيام السكان باحتجاجات نتيجة لفرض المنع التام للمشروبات الكحولية ، غير أنه تمت البرهنة العلمية على أن بيرة مانكس خالية من الكحول ، وأن المادة المفترة « إل إم بى » قد استبدلت به ، مما أقنع الناس بأنه لن يفرض عليهم شىء فوق طاقتهم » .

ـــ أغلق فمك واخرس ، وإلا فستجد قبضتى الشديدة تسحق وجهك القبيح !

هكذا يقول كولدويل منتهزاً فرصة خروج مستر ريكوردى للحظة .. « لا تدعهم يفلتوا من العقاب » .

لا لن يفلتون من العقاب إلى الأبد ، وإن أفلتوا منه بعض الوقت ... لا يستطيعون ... لا يستطيع أحد أن يأخذ بغير أن يدفع ثمن مايأخذ ... إن بف على استعداد للخروج والجهاد من جديد ، ليخطب فى الناس ، ويلم شمل جيشه ... هل هذه علامة من علامات الجنون ؟ المخرج الوحيد من هنا هو أن يجعل أسرته تطالب بتسليمه . الأمل إذن معقود ببيسى ... أرسل إليها خطاباً عبر وكلاء لندن للحاكم العربى المفترض أنه زوج ابنته ، إن لم يكن بالفعل فبالإمكان ، أو على الأقل فهو الرجل الذى استباح ابنته وربما لا يزال يستبيحها حتى الآن ... وبعد ستة أشهر وصله كارت مصقول ، عليه صورة الجمال ومتسولى الشوارع ، وعلى ظهره كتبت بيسى بلغتها الضعيفة : « عزيزى بابا أنا بخير التليفزيون حلو جداً وأنا سعيدة . حبيبتك بيسى » ، وحينما أرسل خطاباً ثانياً جاءه هذا الرد :

« سيدى العزيز :

يتعَّين علىَّ أن أخبرك بأنه لا توجد فتاة باسم إليزابيث (بيسى) جونز مقيمة فى أى من ممتلكات صاحب السمو . ونعتقد أنك مخطىء فى الاسم أو فى العنوان ، وربما فى الاثنين معا .

المخلص ...... »

من الآستانة ، عدن ، الثانى عشر من شعبان عام ١٣٦٤ هجرية [١] .

ذات مرة حاول مستر كومز ، أحد أتباع « شهود يهوه » المسيحيين ، الهروب . ذكروه بشدة أنه يقضى عقوبة الأشغال الشاقة ... والأسلاك المحيطة بالمكان مكهربة ، وللمؤسسة مولداتها الخاصة ، فليس ثمة أمل فى انقطاع الكهرباء عنها نتيجة لإضراب . لكن مستر كومز رجل عنيد فى أخريات العقد السادس من عمره . كانت النتيجة إصابته بحروق بالغة . قال له أحد الطبيبين بالمعهد إنه محظوظ لأن له قلباً قوياً ... هناك أيضاً كلاب ضخمة يسمع بف نباحها أحياناً بالليل ... ربما يترك أمر الإشراف على النزلاء لهذه الحيوانات حينما يضرب الموظفون عن العمل ... فالكلاب — حتى الآن — لم تضمها نقابة ... وعلى أية حال ، الموظفون مرتاحون ، لما يسمى تلطفاً « وظيفتهم » ، ولا يبدون أدنى رغبة فى التوقف عنها .

تمتد الأيام الطوال فتصبح شهوراً وسنين . تبعث فيها الروح وفيات النزلاء المسنين ، أو — من حين لآخر — إعادة بعض النزلاء إلى عناية أسرهم ، فتقام حفلات شاى للوداع ويعطى كل واحد كعكة إضافية ... النزلاء الجدد يحملون معهم أنباء العالم الخارجى . أما المخضرمون أمثال بف فلا تهمهم كثيراً هذه الأنباء ... ذات يوم ظهر فى المؤسسة الكولونيل لورنس ، لا يمكن أن يكون أحداً سواه ... جاء بتهمة القتل ، فبعد أن أعفى من منصبه من الجيش ، وجد وظيفة كمترجم للدولة تحت اسمه الحقيقى وهو تشارلز روس . وحدث أن أصابه الإحباط لسبب أو لآخر ، فشرب فى إحدى الحانات ، مخالفاً بذلك عادة الامتناع عن المسكرات التى استمرت ربع قرن . ولما بلغ الثمالة تشاجر مع إيرانى ، قال إنه لم يقصد أن يقضى على الإيرانى ، فجمجمته — كما ثبت من تشريح الجثة — هشة بصورة غير طبيعية . على أية حال فها هو ذا قد وصل . قال إن الإيرانيين سيدخلون فى حرب مع العرب ... تفككت الوحدة الإسلامية ، فالإيرانيون آريون

---

(١) هكذا فى الأصل وهو افتراض غير معقول من الكاتب لأن عام ١٩٨٥ يوافق ١٤٠٥ هـ .
[المترجم]

والعرب ساميون . وأواصر الدم أصبحت أقوى من آيات القرآن ... الشاه ــ الذى طالما اعتبره الأمريكيون القطب الوحيد الذى يعتمد عليه فى الشرق الأوسط ــ مسلح جيداً بما يطلق عليه البنتاجون القدرة النووية ، وسيصبح العرب الذين لم يكونوا قط عملاء مفضلين للسلاح الأمريكي ــ تحت رحمة إيران ، وستستولى إيران على كل حقول البترول فى الشرق الأوسط ... وبعد أن شعر العرب بتحيز أمريكا لإيران سحبوا أرصدتهم البالغة ملايين الدولارات من مصارف أمريكا . وحدثت حالة من « الذعر الإقتصادى » فى بنوك الولايات المتحدة ، إذ طالب بعض المودعين بأموالهم فوجدوا بنوكهم المحلية قد أعلنت قرار تأجيل الدفع . قام مكتب الاحتياطى الفيدرالى بطبع الكثير من الأوراق المالية ، بل فى الحقيقة مضاعفتها ، فأصبحت النقود فى الولايات المتحدة فائضة على الحد ، وأصبح نفس القدر من السلع الاستهلاكية يتطلب قدراً مضاعفاً من الأوراق النقدية . أغلقت المحال أبوابها بعد خلو أرففها من البضائع . شعور بين المثقفين اقتصادياً بأن التضخم ينتشر كحريق فى غابة . استجابت العملات الأخرى لتضخم الدولار ... حالة الاسترلينى لا يصدقها عقل ... الإفلاس فى الطريق ... أهى نهاية النقابية ؟ هناك على الأقل ثلاثة ملايين ونصف مليون عاطل فى تاكلاند ... لا أحد يسمع شيئاً هذه الأيام عن مستر بيتجرو ... هل عزل من منصبه ؟ هل اغتيل ؟ ذائع الصيت فى البلاد الآن رجل ضخم البنية اسمه « بج تيم هولواى » ، يخطب بلغته الطنانة عن اتحاد العمال وشرور الرأسماليين .

اعتاد بف تدريس التاريخ لمجموعة صغيرة من المهتمين بالمادة ، فكان يعطى دروساً فى إنجلترا فى القرن السادس عشر كل مساء فى إحدى حجرات المعيشة الجماعية ، وبعد ذلك أعطى دورة فى تاريخ إنجلترا فى القرن السابع عشر ، وبدا منطقياً أن يستمر فى التدريس حتى النهاية ، وكل مايعطيه من ذاكرة تضعف بمرور الزمن ... بدأ ــ حتى لنفسه ــ وكأنه يدرس تاريخ كوكب آخر ... لكنه يهرب كل يوم هو وتلاميذه إلى هذا الماضى فراراً من الواقع ، كأنه هروب من ريح عاتية إلى حجرة مفعمة بالضباب ... الحرب العالمية الأولى ، التخلص من آثارها ، انهيار الحياة الاقتصادية ، إعادة التسلح ، ظهور الشمولية ... الحرب العالمية الثانية وما بعدها ... يقترب اقترابا منذراً بالخطر من الحاضر ...

والحاضر لا يمكن تلخيصه أو تفسيره أو حتى فهمه حق الفهم ... كأنه نهر عظيم يتبدد فى غموض متحولاً إلى آلاف العيون والجداول . جلس يائساً ذات مساء أمام مريديه : مستر تايرن ، مستر جر شمام ، مستر هوكر ، وغيرهم ، وقال لهم :

ــ هل نبدأ من جديد ؟ هل نعود إلى ظهور الرأسمالية ، ونحاول مرة أخرى أن نتلمس مواضع الخلل فى البناء ، أن نكتشف أين بدأ كل شىء ينحرف عن الطريق السليم .

فقال مستر هوكر :

ــ لقد أخذنا مافيه الكفاية ..

جعل بف يومىء برأسه موافقاً ... خرج إلى الخلاء حول المبنى بعد عشاء تلك الليلة ... هذا القلب ضعيف ، انتبه لهذا القلب ... تعثر عبر أعشاب الطريق المجهول إلى الأسلاك المكهربة المحيطة بالمبنى والتى تحدها شجرتا تفاح معقودتان ... ظلت هاتان الشجرتان لفترة طويلة تثمران تفاحاً برياً حامضاً . ستعيشان بعض الوقت ، وفى هذا بعض العزاء ... القمر الذى نسته السياسة ، والذى غرقت روحه الشعرية طويلاً فى بحر العواصف ، قد بزغ منذ قليل ... وجه إليه بف كلمات لا معنى لها .

لكن المؤكد أنهم أفلتوا جميعاً من العقاب ، وسيفلتون دائماً ... التاريخ سجل للرحلة الطويلة البطيئة من جنات عدن إلى دنيا الكرى ، ولا شىء فى الطريق سوى صحارى الظلم ... فلأذهب إذن فى إغفاءة بعيداً ، لأذهب فى نعاس عميق ... بإيماءة من رأسه حيا القمر تحية الوداع ... ثم كشف صدره العارى حتى من اللحم للسياج المكهرب وآلامه الفظيعة ، متسائلاً لبرهة : لماذا يضطر المرء للانسحاب من نقابة الأحياء حتى ينضم إلى إضراب الموتى ؟ وأحس بقلبه يقفز من صدره ويمضى مترنحاً فيما تذروه الرياح .

« تمت »

مذكرة لغة العمال

مذكرة عن لغة العمال (١)

في هذا الجزء يتجلى بوضوح تأثر بيرجس بجورج أورويل ، ويتمثل هذا في اقتناعه بنفس الفكرة التي سبق أن أثارها أورويل ، وهي : « العلاقة الوثيقة بين اللغة والفكر » ، وأنه بمقدور السلطة أن تتحكم في أنماط تفكير المحكومين عن طريق التحكم في اللغة التي يتحدثون بها . وبينما كانت لغة أورويل في « ١٩٨٤ » (اللغة الجديدة) تعتمد على تطبيق نطاق المفردات إلى أقل حد ممكن ، وبالتالي تضييق نطاق الأفكار التي يمكن أن تمثلها اللغة ، فإن فكرة بيرجس في « لغة العمال » تعتمد على التبسيط الشديد في اللغة بجميع مستوياتها ، فيتم اعتماد العامية كلغة قياسية سواء من حيث النطق أو المفردات أو القواعد النحوية . وبما أن العامية التي يستخدمها العمال تفتقر إلى الوضوح والتحديد القاطع ، فإنه ينتج عن هذا نمط تفكير مشوش ينتشر بين جموع الشعب ، ويُفرض هذا النمط عن طريق الإلحاح الإعلامي وتحويل مناهج الدراسة والآداب إلى لغة العمال العامية المبسطة .

واللغة التي يختارها بيرجس لتكون لغة قياسية هي لغة الطبقة العاملة ، بالأخص في الأراضي الداخلية ، مع إضافات من المناطق الصناعية الأخرى ، وإن كانت الإضافات من اللهجات الريفية قليلة جداً . ولم يكن الهدف الأساسي لابتكار هذه اللغة هو فرض لغة طبقة اجتماعية سائدة على بقية الطبقات ، إنما كان هدفها إيجاد نوع عقلاني من اللغة ، تكون قواعدها مبسطة إلى أقصى حد ممكن ، ومفرداتها محددة بحيث تناسب المجتمع الصناعي البعيد عن الفلسفة الإنسانية . فهي ليست إنجازاً سياسياً ، بل إن مبتكريها لم تكن تحركهم إلا الرغبة العلمية ، أما السياسة فهي أمر ثانوي .

وفي كتاب « قواعد لغة العمال » [ط . المكتب الملكي ١٩٨٠] نلحظ إلى أي مدى يمكن أن يتم تبسيط اللغة . فيدخل التبسيط ليلغي العلامات التي

---

(١) نظراً لأن هذا الجزء يعتمد في معظمه على أجرومية اللغة الإنجليزية ومفرداتها فقد اكتفينا بعرض لأفكاره الرئيسية مع التوضيح بأمثلة من العربية كلما دعت الحاجة .

تلحق بالافعال لتصريفها أو الأسماء لإعطاء الجمع وخلافه . كما يدخل التبسيط مجال الأفعال الشاذة التى تختلف فيها صيغة الفعل حسب الضمير الفاعل ، مثل فعل الكينونة ، فبدلاً من الصيغة التقليدية البورجوازية :

أنا أكون ، أنت تكون ، هو يكون ...

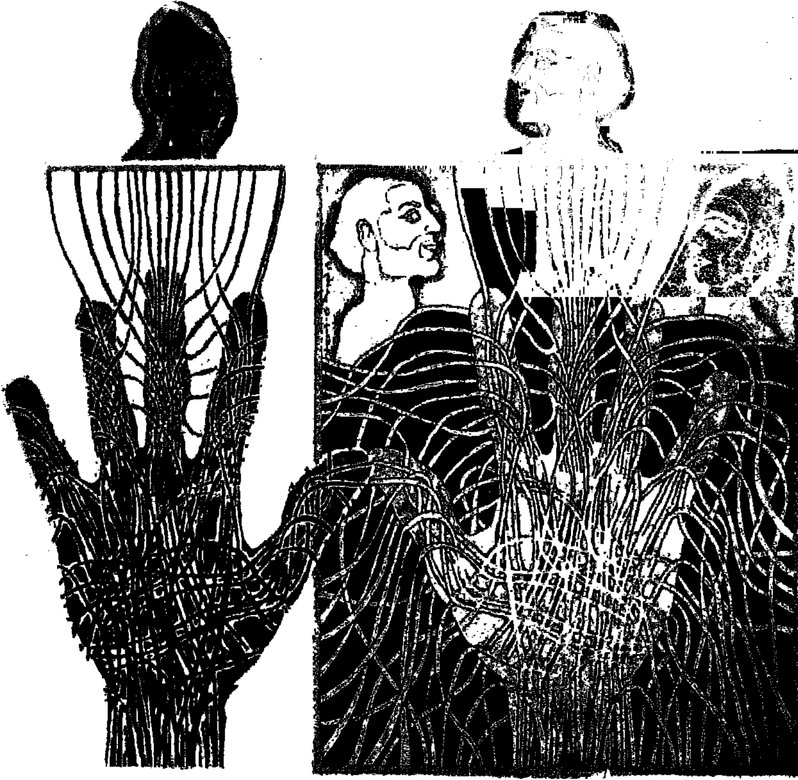
أنا كنتُ ، أنت كنتَ ، هو كان

نكتفى بصيغة واحدة ، وهى « يكون » أو « كان » ، فبدلاً من « أنت كنت » نستخدم « أنت كان » ، وهى الصيغة التى لاحظناها خلال الرواية . (ولعل هذا يذكرنا بما حدث فى اللغة العربية ، فنجد أن الاختلافات فى الاسم الموصول [الذى ، التى ، اللذان ، اللتان ، الذين ، اللائى ، أو اللاتى] كلها قد اختفت وحلت محلها غير المحددة [اللى]!) ..

بالنسبة لصوتيات « لغة العمال » ، فقد تم الاتفاق على أنه لا داعى لتدخل الدولة وعلمائها اللغويين بتشريعات خاصة للنطق ، لأنه من غير المحتمل أن تؤثر اختلافات النطق من منطقة لأخرى على وحدة لغة العمال . ولم يتم حذف أى صوت إلا صوت واحد من قائمة الحروف الساكنة وهو صوت الـ « هـ » الشائع فى اللغة البورجوازية التى كانت مثلاً أعلى لسائر أنواع اللغة (الريفية ــ الصناعية ــ الاستعمارية) . ولا يستخدم هذا الصوت إلا فى حالة التوكيد البلاغى .

ومن الأصوات التى تكاد تختفى من لغة العمال صوتا الـ ذ ، ث ، ويستبدل بهما ف ، ف ، وإن ظلا فى الكتابة بلا تغيير (يلاحظ أن هذين الصوتين اختفيا أيضاً من بعض اللهجات العربية ، فيستبدل بهما فى اللهجة القاهرية مثلاً التاء والدال (تعلب ، دهب) ، وإن ظلا فى الكتابة بلا تغيير) .

وهكذا تتم عملية التبسيط فى جميع مستويات اللغة (الصوتى ــ المعجمى ــ النحوى ــ المعنوى) . وجدير بالذكر أن التراث الثقافى (أو ماينبغى أن يطلع عليه الناس من التراث الثقافى) تتم ترجمته إلى هذه اللغة وبالتالى يتجنب الناس تماماً خطر الوقوع على أفكار من شأنها أن تلوث أذهانهم .



خاتمة (حوار)

خاتمــــة (حــوار) :

« هل تعتقد فعلاً أن ذلك سيحدث ؟ »

ـــ يمكن الإجابة عن هذا السؤال بعد مرور سنوات قليلة ، ومن الحماقة دوماً أن تضع نبوءتك فى رواية قُرّاؤها فى طريقهم ، بعد فترة وجيزة ، لأن يتأكدوا من تحققها أو كذبها ... أعتبر أننى إنما قد صنعت بعض الاتجاهات فى قالب درامى مثير ... من المؤكد أن اتحادات العمال فى بريطانيا تكتسب قوة ، وتزداد تشدداً يوماً بعد يوم ، لكن من الجائز أنى لا أعنى بالاتحادات سوى زعماء الاتحاد الأكثر عدوانية ... وأخرج من حسابى أيضاً ، مثلما فعل أورويل ببراعة شديدة ، فطنة العامل العادى وإنسانيته .

« أنا أمريكى ، ولذا يبدو لى أنه من غير المعقول أن تصبح الولايات المتحدة الأمريكية فى يوم من الأيام (الولايات النقابية المتحدة) ... لا يمكن أن تذيق الاتحادات المجتمع الأمريكى ألوان الطغيان » .

ـــ ربما لا ... لقد كان هذا استنتاجاً مبنياً على بعض ماخبرته فى مجال إدارة عالم الاستعراضات ... مثال ذلك ماحدث من تعسف اتحاد الموسيقيين فى برودواى ... من الصعب أن تتنبأ بمستقبل الولايات المتحدة ... ولا تزال الكاكوتوبيا التى صاغها ستيكلير لويس فى رواية « لا يمكن أن يحدث ذلك هنا » تبدو لى أكثر العروض إقناعاً ، رغم أنها كتبت فى الثلاثينيات من هذا القرن ، فهى على الأقل تظهر كيف أنه من الممكن قيام دولة مستبدة عبر العملية الديمقراطية الأمريكية بوجود رئيس تتحقق فيه ـــ على حد قولهم ـــ كل الصفات الأمريكية ، كأن يكون على شاكلة شخصية ميل روجرز البسيطة التى تستميل من يشكلون قلب ثمرة المجتمع الانتخابى الأمريكى من الماديين غير المثقفين ... قلب الثمرة ؟ بل أكثر من قلبها ... هم الثمرة كلها عدا قشرة الليبرالية البسيطة ... كان والدى

العجوز يقول دائماً : « ليس هناك يابنى كتب جيدة غير الكتاب المقدس ، انظر إلى هؤلاء الشراذم ذوى الشعور الطويلة وهم ينالون قصاصهم ... إلى غير ذلك من إحراق الكتب وإعدام المدرسين الراديكاليين والرقابة على الصحف التقدمية ... وكل حركة من حركات القمع يمكن أن تجد لها تعليلاً فى العهد القديم ... ويمكن أن نعتذر عنها هازلين بأسلوب جيد ولكنه مقزز » .

« أعتقد أننا قد تخطينا مرحلة السذاجة التى تجعلنا ندع مجرد الروائيين يقومون بالتنبؤ ، بينما هم هائمون فى الخيال ... ولا يدرسون التيارات دراسة فعلية ، ولا يمكن وجود بدايات المستقبل الذى يقدمونه فى الحاضر الذى نعرفه » .

ــ نعم هذا صحيح ، ولقد كف الروائيون عن كتابة الروايات المستقبلية وتركوا ذلك لأهل البحث والاختصاص ... أما ما يجب على الكتاب الخياليين أن يفعلوه اليوم فهو أن يتخيلوا فترة من الماضى يأخذ التاريخ فيها موقفاً مختلفاً عما حدث فعلاً ثم يدعون حاضراً بديلاً يقوم على هذا الماضى « الجديد » فرواية « الغندور » لكيث روبرت مثلاً ورواية « التغيير » لكينجسلى ايمس تفترضان أن الإصلاح المسيحى لم يصل إلى البريطانيين الانجلوساكسون ، مما أدى إلى قتل الروح التجريبية أى موت العلم ، ومن ثم يخرج لنا عالم حديث ليس فيه كهرباء تسيطر عليه حكومة دينية قوية تدير شئونها من روما ... صحيح أن هذا يدعوا للإثارة والتسلية لكنه تلاعب بالزمن ... لم يعد التنبؤ من اختصاص الخيال الروائى ... كما قلت وأتفق معك فيه ، لكن السؤال هو : « هل علماء التنبؤ بالمستقبل المحدثون وغيرهم يقومون بمهمة التنبؤ بشكل أفضل ؟ »

« ليست المسألة مسألة تنبؤ ... يقول البروفسير « توفلير » إننا نعيش فى المستقبل ، بمعنى أن أسلوب الحياة ونوعها المفروض علينا لا ينتمى للماضى ولا للحاضر ، ويقول إن كثيراً من الناس يعانون من إحساس بالصدمة عندما يرون أشياء يعتبرونها غريبةً عن حاضرهم ، وعندما يرفض تفكيرك وشعورك ــ وقبل هذا كله جهازك العصبى ــ بعض الاختراعات فهذا يعنى أن المستقبل قد حل بك وعليك أن تواكبه ... وأعراض الرفض : الهيستيريا أو الفتور أو كلاهما معاً ، ويجد الناس أنفسهم أمام خيارين إما أن يتعاطوا مخدرات تأخذهم بعيداً عن الحاضر الذى

هو المستقبل فعلاً أو ينفوا أنفسهم إلى ثقافات ماقبل عصر الصناعة ... ويكثر العنف والجنون والاضطراب العصبى بشتى صنوفه ، ونحن لا نحدد تعريفاً للمستقبل من منظور زمنى لكن ذلك يتم فى إطار المثيرات الجديدة التى تفرط فى إثارتنا حتى نصاب بالجنون . المستقبل هو جسم جامد لم نره من قبل ... شيء ملقى على الشاطىء يراه المضطربون اليقظى من البشر ... فيشمئزون منه ويولون منه فراراً ثم يعودون وينظرون ماذا هو ثم يقبلونه ... لقد صار المستقبل حاضراً ... ماعلينا إلا أن ننتظر ما سيأتى من أجسام جامدة جديدة وما سيصحبه حتماً من أعراض الرفض المؤقت .

ـــ لكن الحرب والاستبداد هما ما نخشاه من المستقبل وليست الأجسام الجامدة الجديدة .

« لكنها هى التى تؤدى وظيفة الحرب والطغيان ... هل ستقوم دولة استبدادية فى الولايات المتحدة ، لا أقصد استبداد النقابات ، مثلما يحدث فى بريطانيا ، بل أقصد وجود أخ أكبر طيب من طراز قديم مثل الذى صاغه أورويل » .

ـــ إذا حدث هذا فسيحدث من خلال الحرب .

« هل ستقوم حرب حقيقية مثل الحرب العالمية الثانية ، لا ما نعرفه من الحروب الصغيرة المحددة والتى تنشب مرتين كل عام ؟ » .

ـــ لقد قدم لنا مواطناك الدكتوران كاهن وفاينير من معهد هارسون المهتم بعام ٢٠٠٠ نيابة عنا جدولاً يوضح كيف يمكن أن تكون الحروب الشاملة والمحدودة نمطاً زمنياً ، أى تغيير فى حقب الزمن مرتبط بنوعين من الحروب على النحو التالى :

١٠٠٠ ـــ ١٥٥٠	حرب محدودة ـــ إقطاعية ـــ ملكية .
١٥٥٠ ـــ ١٦٤٨	حرب شاملة ـــ دينية .
١٦٤٨ ـــ ١٧٨٩	حرب محدودة ـــ استعمارية ـــ ملكية .
١٧٨٩ ـــ ١٨١٥	حرب شاملة ـــ ثورية قومية .
١٨١٥ ـــ ١٩١٤	حرب محدودة ـــ استعمارية ـــ تجارية .
١٩١٤ ـــ ١٩١٥	حرب شاملة ـــ قومية ـــ أيديولوجية .

ومنذ عام ١٩٤٥ ونحن نعيش أكثر من ثلاثين عاما من الحروب المحدودة التى تنشب لأسباب عدة غالباً ما تكون زائفة ... توسعية ... مناهضة للاستعمار أيديولوجية ... حسبما تشاء ، وإذا كان التاريخ يسير فعلاً على نمط التغيير فلا يمكن أن نعيش مرحلة لا نهائية لها من الحروب المحدودة ... لابد للحرب أن تنشب على نطاق عالمى مرة أخرى ذات يوم ... لا تنس أن ثلاثين عاما هى أطول فترة عاشها العالم الحديث بدون حرب عالمية ... ربما تأتى متاعبنا الاقتصادية ، مثل وجود التضخم والركود الاقتصادى الذى يستعصى على التفسير ، من الحقيقة القائلة بأننا لا نعرف كيف ندير اقتصاداً يصلح لمرحلة السلام ... أما اقتصاد مرحلة الحروب فهو أمر مختلف ، لأن هناك نماذج سابقة ... لقد حلمت بحرب عالمية « مالتوسية » تستخدم فيها الأسلحة التقليدية ... حرب لا يمكن أن تقوم إلا حينما يدرك القائمون على أمور العالم أن كمية الغذاء لن تكفى لإطعام السكان جميعاً ، وبدلاً من المجاعة والاضطرابات لدينا شكل من أشكال الحروب القومية ، لا غاية من ورائها إلا قتل الملايين أو البلايين من سكان العالم ، بل إننى كتبت كتاباً يتقاتل فيه اتحادان مع بعضهما .

« وما هؤلاء ، من فضلك ، بالله عليك ؟ »

ـــ الاتحاد الناطق بالإنجليزية والاتحاد الناطق باللغة الصينية ، والقوة الثالثة هى « إتنار » وأنت تعرف إلام ترمز ... وواقع الأمر أن الحرب عبارة عن حلقات إبادة محلية تسمى المعارك يتقاتل فيها الرجال والنساء ... حرب حقيقية بين الجنسين ، ثم تجر الجثث لتتحول إلى غذاء محفوظ ، والفترة الحالية من أكل لحوم البشر الذى يضطر إليه أهل الهند الشرقية تثبت أن اللحم البشرى صالح للأكل ، ومغذٍّ فى نفس الوقت رغم الطقوس الغذائية التى تدين ذلك باعتباره شيئاً أكثر من السم ، ويباع اللحم البشرى المصنع فى المحل الكبير « السوبر ماركت » تحت اسم « مانش » أو « مينش » أو شىء من هذا القبيل ... سيأكل البشر أى شىء هذه الأيام .

« أأنت جاد فى حديثك ؟ »

ـــ إلى حد ما ... كنت ولازلت جاداً ... تلك النوعية من الحروب ستكون حروبا عادلة ونافعة لكن على العالم أن ينتظر حتى عام ٣٠٠٠ كى يشهدها أما

بخصوص الحرب العالمية الجديدة القابعة فى رحم الزمن ... جنيناً ينمو نمواً صحياً ، فمن له أن يقول ما الذى سيشعلها ، وكم مدى التدمير الذى ستسببه ؟ وتداعب هذه الحرب خيالنا فعلاً كما يتضح فى السينما والرواية ، مما يدل على أن جانباً منا فى حاجة ماسة إليها ... ويالها من سخافة حينما يقول الكتاب والمخرجون إنهم يقصدون برؤاهم أن يحذروا العالم ، إنهم لا يحذرون من أى شيء ، كل ما فى الأمر أن ذلك تحقيق لرغبة ما ... وهناك من يقول إن الحرب نمط من أنماط الثقافة ... وسيلة مشروعة لنقل الثقافة رغم أن الثقافة المنقولة ليست عادة الثقافة التى نتوقعها .

« كيــف ؟ »

ــ لنأخذ مثالاً تافهاً ... لقد غزا رقص أمريكا الجنوبية وأغانيها الشعبية أمريكا الشمالية وأوربا فى الأربعينيات وما بعدها لحاجة الولايات المتحدة إلى أن تجعل من أمريكا اللاتينية « جاراً صالحاً » ، جميعنا يعرف كم كانت الأرجنتين متعاطفة مع النازية مثلاً ... وكان معنى هذا أن علينا جميعاً أن نرى « فرق أمريكا اللاتينية مثل السامبا ونشاهد كارمن ميراندا ونرقص رقصتها بدافع حسن الجوار ... ولنأخذ مثالاً أقل تفاهة ، كان من الممكن أن يتم صبغ اليابان وألمانيا بالطابع الأمريكى على أكمل وجه بهزيمتهم وقصر إنتاجهم الصناعى بعد الحرب على المنتجات التى لا تستخدم فى الحرب ، ولقد نقلت روسيا السوفييتية أسلوبها فى السيطرة الماركسية إلى أوروبا الشرقية ... الحرب هى أسرع وسلية لنقل ثقافة من الثقافات تماما مثلما كان تناول اللحوم هو أسرع وسيلة لاكتساب البروتين .

ولقد أصبح من الممكن النظر إلى الحرب باعتبارها وسيلة اقتصادية للتزاوج بين الشعوب المتباعدة على نطاق كبير ... انقل بذرتك وستخرج لك سلالات جديدة تنبض بالحياة ، وتفادى الاندماج الممل من التزاوج الدائم بين أفراد العشيرة الواحدة ، وهو ثمرة السلام السقيمة ــ إن أعظم صور الحرب تصور اغتصاب « السابيين » . الحرب تستخدم السياسة الدولية كمجرد ذريعة لتحقيق رغبة دفينة فى نفس الإنسان ... رغبة يموت خوفاً من الاعتراف بها لأنه لا يريد أن يربط بين تقديره للحياه وإيقاعه الموت بالغير .

« الحرب العالمية الثالثة ؟ »

ـــ يمكن أن تبدأ فى أى مكان ، وستبدو وكأنها حرب أيديولوجية تستخدم فيها الأسلحة التقليدية ، وستنتهى بهدنة بعد أن يكون مليون من الرجال والنساء قد لقوا حتفهم دون أن ينال المدن الكبيرة شيء ما ... النفس الإنسانية رخيصة وتزداد رخصاً يوماً بعد يوم ، أما المدن الكبيرة فتحوى الثمين مما صاغته يد الإنسان وكلفه الكثير ، ومن الأفضل ألا تدمره القنابل . أشياء مثل الكومبيوتر ... لقد قرأنا الكثير عن السيناريوهات للحرب القادمة ولست فى حاجة إلى المزيد منها .

ما يثير اهتمامى هو كيف يمكن أن يظهر نوع من الشمولية فى الولايات المتحدة من وراء الخوف من العدو الواقف على الأبواب ، فربما تتسبب الشيوعية فى المكسيك بمساندة الصين فى أن تجعل أمريكا ترتجف خوفاً ، فتبحث عن الجواسيس وتنشر أجهزتها الأليكترونية والأمنية الهائلة حتى تبقى على المواطنين تحت المراقبة ـــ سلطة الرئاسة المتزايدة ... حل الكونجرس بصفة مؤقتة ... الرقابة ... إسكات أصوات المنشقين ، كل هذا باسم الأمن ، ليس هناك ضرورة لحرب ، كل ما نحتاج إليه التهديد بالحرب ، وبأسلوب أورويل الدقيق فإن فكرة وجود عدو ، سواء أكان عدوا فعليا أو محتملا يمكن أن تكون وسيلة لتبديل الطغيان ، وهنا أصاب أورويل ، فالحرب خلفية ضرورية للقهر الذى تمارسه الدولة ... الحرب أيا كانت : سواء صورة طبيعية أو مناخ أو ورق حائط ... لا يهم السبب ، لأن العدو يمكن أن يكون أى شخص ؛ وحينما نتفكر فى الحرب العالمية المستقبلية سرعان مايصيبنا الملل من الدخول فى تفاصيل أسبابها لأنها يمكن أن تكون فعلا أى شيء ... الهند تقوم بإسقاط قنبلة على باكستان ... محاولة ألمانيا الشرقية هدم حائط برلين ... كندا ترفض رأس المال الأمريكى ومنشآت أمريكا فيها وتطالب أمريكا بأن تذهب للجحيم !

أتذكر كيف تخيل هـ . ج . ويلز بداية الحرب العالمية الثانية ؟

لقد كتب كتابا فى أواسط الثلاثينيات باسم « شكل الأشياء القادمة » وهو عبارة عن تاريخ للمستقبل معظمه عبث كما كان لازماً أن يكون ، لكنه رأى بداية الحرب فى عام ١٩٤٠ على الممر البولندى ، وهو أمر كان صحيحاً بشكل مدهش ... يهودى بولندى يأكل بندقة ، لكن قطعة صغيرة فيها تبقى فى فجوة

خلفية فى سنته ، فيحاول أن يخرجها بأصبعه ، ويرى ذلك شاب نازى فيعتقد أن تكشيرة اليهودى علامة استهزاء من زيه فيطلق عليه الرصاص ليقتله فتنشب الحرب ... وهكذا نرى أن أسباب الحرب شديدة الغموض وأن الحادثة المباشرة شديدة التفاهة ، أليس فى ذلك دليل على أننا نريد الحرب للحرب ذاتها ؟

« ولدت عام ١٩٥١ ، لكننى رأيت حلماً ليلة أمس لايزال حياً فى ذاكرتى عن الحرب العالمية الأولى ... لم يكن حلما عن المعارك ... كنت فى أحد مطاعم لندن وعلى أحد جدرانه ، كان التقويم يشير إلى أننا فى شهر فبراير من عام ١٩١٨ . المكان مزدحم بالزبائن ، وأنا جالس إلى مائدة حولها سيدتان متحدثتان ... أشرب شايا ... شايا خفيفاً جداً . كانت ملابس السيدتين على موضة ذلك العصر كما كنت أرى فى الأفلام والصور الفوتوغرافية ... كان ديكور الحلم مناسباً إلى حد مدهش ... خيّل إلىَّ أن إحدى السيدتين تساءلت « أوه ، متى ستنتهى هذه الحرب الرهيبة ؟ »

« طبعاً كنت أعرف متى ستنتهى بالضبط وكدت أقول بصوت خفيض فى ١١ نوفمبر من هذا العام ، لكننى تمالكت نفسى فى الوقت المناسب ، ومع هذا فليس هذا هو المهم فى الحلم — المهم أننى أحسست بجو تلك الفترة ... استطعت أن أشم رائحة ابط السيدتين ... التراب الموجود على أرضية المكان ... بدا المصباح الكهربى أنه ينتمى لتلك الفترة ، لا لفترة سواها ... حينما أتفكر فى المستقبل لا أهتم كثيراً بالأشياء العامة مثل شكل الحكومة إلى غيرها — بل أريد شيئاً له وجود أكبر ... أريد نوعية الحياة اليومية ... أتفهمنى ؟ »

— أفهمك جيداً ... فإن لم تستطع الأحلام أن تقدم لك هذا فيجب على الروائيين والشعراء أن يحاولوا إنجاز ذلك على الأقل ... نحن الآن فى هذه الحجرة من هذه الشقة الواقعة بلندن ... التاريخ عام ١٩٧٨ ... وأنا أعمل فى هذه الحجرة منذ عام ١٩٦٠ ، دون أن تتغير ملامحها كثيراً ... نفس المكتب ... نفس الكرسى ، كما أن السجادة هى نفسها ، ويعلم الله أن معظم أطرافها كانت بالية عندما فرشتها لأول مرة ، ويمكن ألا أفرط فى هذا الأثاث باستثناء هذه الآلة الكاتبة حتى عام ٢٠٠٠ ، وهناك مايضمن لى بقاء ما فى هذه الحجرة من أشياء كما هى مالم ينشب حريق مدمر ، أو هدم القائمين على تخطيط المدينة ، هذه

المجموعة من البنايات ... ربما أكون قدمت طبعاً لكن هذه الأشياء الميتة ستعيش بعدى ، وهكذا يعيش بالفعل فى المستقبل كما ترى . نترك هذه الحجرة وننتقل إلى حجرات أخرى ... كم غير ذلك من الأشياء سيبقى على حاله ؟ أنا شبه متأكد أنه سيتم استبدال جهاز التليفزيون عدة مرات بحلول عام ٢٠٠٠ « لقد رأيت صورة للرئيس كارتر وزوجته ، وهما يتابعان فى التليفزيون ، ثلاثة برامج فى آن واحد وأدهشنى أن ذلك ربما سيكون هو نمط المشاهدة فى المستقبل ومما يؤسف له قطعاً أن تقصر مشاهدتك فى التليفزيون الأمريكى على قناة واحدة بينما أمامك الكثير من القنوات ... سنكتسب موهبة المشاهدة المتعددة ... وكذلك الحال بالنسبة للسمع ، وسيكون هذا تغييراً حاسماً فى شكل ردود أفعالنا لمؤثر ما » .

ــ لكن لن تتغير فكرتنا ، إن متابعة تليفزيون بلدك هى المصدر الرئيسى للمتعة والمعلومات ... زوال السينما ذات الشاشة الكبيرة ودخول التليفزيون ذى الشاشة الكبيرة بدلاً منها ... إغلاق أعداد متزايدة من دور الصحف لأبوابها ... الرؤية المجسمة ؟ لكنها ستظل باهظة التكاليف لزمن طويل ... وهذه هى المشكلة التى ستواجهنا فى عدد كبير من الاختراعات ... الأسعار ... لا أرى أن المال له قيمة ، ولا أرى قبضة محكمة على التضخم ، حتى بحلول نهاية القرن ، إلا لو ظهر « مينارد كينيز » آخر ... أعتقد أن الحكومات ستجعل الخمر والتبغ من المحرمات حتى تحمينا من أنفسنا . لكنها ستتيح بيع مالا يضر من المنبهات والمسكنات ... شىء مثل مخدر أو لدس هكسلى .

« ماذا ترى على شاشتك الكبيرة ؟ »

ــ أفلاما قديمة ... فيلمين أو ثلاثة مرة واحدة كما تقول ... ولم لا ؟ الدار البيضاء ... وأميل زولا ... وفيلما صامتا مثل « العاصمة » لفريتس لانج وأفلاما جديدة تفتقد للعنف الصريح ، لكنها فاضحة فى تناولها للجنس الذى يقدم فى أقصى صورة ... المناقشات الدائرة فى الصحف ... وفى ندوات الإذاعة والتليفزيون ، يتحدثون عما ينتمى للجنس والأدب المكشوف وكذلك الأخبار ... اضطراب الصناعة ، التضخم ، تكاليف الاستثمار الحكومية (وهذا يعنى أن الحرب الشاملة ربما تكون فى الطريق) ... قيام جماعات المنشقين بخطف البشر والطائرات ... القنابل متناهية الصغر ذات القوة التدميرية الهائلة مزروعة فى

المنشآت العامة ... زيادة دقة التفتيش فى المطارات ومداخل السينما ومحطات السكك ، بل وفى كل مكان فعلاً ... كل هذه القيود على الكرامة الإنسانية تحت اسم أمن البشرية ، إضرابات جديدة لعمال البترول ، لكن أكبر كمياته فى يد العرب ... مزيد من الدعاية الإسلامية ... تعليم الدين الإسلامى فى المدارس كشرط مقابل البترول ... ومازال العمل جاريا فى البحث عن بديل للوقود ... ارتفاع شديد لثمن الجازولين ... السفر بالكونكورد التى وإن كانت سريعة ، إلا أنها باهظة الثمن بشكل بغيض ... الحياة فى الغالب خليط بين العمل ومشاهدة التليفزيون .

« وخارج منزلك ... أين ترى الحياة ؟ »

ـــ البيوت القديمة تتداعى ... والعمارات ذات الطوابق العديدة تتزايد يوماً بعد يوم ، جميع المدن متشابهة ، وإن لم يكن لها السحر المبهرج لمدينة مانهاتن القديمة ... قليل من المارة فى الشوارع ليلاً بما فيها من عنف من جانب الشباب لا ضابط له ، والنساء يرتدين البنطلونات والرجال فى سراويل ليس جميعهم طبعاً ؛ « ايفرسانت لورين » يعرض السراويل رخيصة فى متناول الجميع قائلاً إن النبطلونات لا تليق بالرجال من الناحية البيولوجية لكنها تليق بالنساء .

« وماذا ستكون عليه رائحة عام ٢٠٠٠ ومذاقها ؟ »

ـــ لابد أن الهواء سيكون أكثر نقاء ، وأنها لنقطة تحسب لأمريكا أنها مهتمة بالتلوث رغم أن معظم أوربا ، كإيطاليا على سبيل المثال ، يتلوث هواؤها دون أن تدرى أو تهتم ... ولقد واجهت إنجلترا صدمة رهيبة عام ١٩٥١ حينما خيم الضباب والدخان عليها فلم يؤد لمقتل مرضى الشعب الهوائية فحسب ، بل أودى بحياة الأغنام فى معرض سميث فيلد ... والأبقار والثيران أغلى من البشر بكثير ، وكان لابد من تجنب حدوث هذا مرة أخرى ، ولذا جعلوا لندن منطقة خالية من الدخان ، يمكننا الآن أن نتنفس هواء لندن ، بعد أن كان غير صالح للتنفس فى عصر ديكنز ، وها هى الأسماك تعود إلى نهر « التيمز » ... حينما تواجهنا صدمة كافية نتهيأ ساعتها للحركة ... لن يكون لهواء المستقبل رائحة معينة ... وللأسف سيفقد الطعام مذاقه إلى حد بعيد عدا « المشهيات » وهكذا يستمر الانحدار المنتظم لمذاق الطعام وهو شيء لاحظته منذ أيام الصبا (لازلت أذكر كيف كان مذاق طعام العشرينيات من هذا القرن) . وسيصبح جسم الإنسان أداة يعتنى بها

بشكل أفضل ، لكنه أقل اهتماماً بالمتعة وعما كان عليه جسم إنسان عصر النهضة المريض بالزهرى ... حتى متعة الجنس قد تضاءلت لأنه صار أمراً ميسوراً إلى حد بعيد ... كان الجنس بالنسبة لى ، بصفتى واحداً من الشباب ، مثل الكافيار صعب المنال ، والآن صار شريحة من الهامبورجر مسموح لأطفال العاشرة تناولها ـــ سيمتد العصر الإباحى حتى عام ٢٠٠٠ وستعمل الأفلام والمجلات بجد فى اختراع صور جديدة من فكرة الجماع الرئيسية ـــ ولكن يبدو لى أن هناك حداً لكل شىء ... هناك قانون تناقص الغلة . سيصبح الإجهاض رخيصاً فى متناول الجميع . علاقة متبادلة ملائمة للغاية بين إمكانية التخلص من الجنين وسهولة ممارسة الجنس لأن كلتيهما يدل على رخص الجسم البشرى ، « والدين ؟ »

ـــ ستبلغ الحركة المسيحية المسكوفية غايتها ، أى أن الكاثوليكية ستكون قد تحولت إلى بروتستانتية ، والبروتستانتية إلى اللا أدرية ... وسيظل الشباب يجرون وراء ماهو غريب وغامض من معتقدات جديدة وزعماء حالمين لا يمكن تصورهم ؛ لكن الإسلام لن يكون قد فقد شيئاً من صلابته ..

كان ج . ك تشيسترتون قد نشر فى بداية هذا القرن رواية باسم « الحانة المرفرفة » صور فيها أبدع تصوير إنجلترا وهى ترفع علم الهلال والنجمة ، ويحرم فيها الخمر ... ويجرى فى شوارعها رجلان وكلب وهم يدحرجون أمامهم برميلاً من الخمر فى خوف دائم من شرطة المسلمين ، محاولين أن يحافظوا على ذكرى الخمر حية فى الأذهان ، ويبدو لى أن هناك احتمالاً بارزاً لتحقق تلك الرؤية بحلول عام ٢١٠٠ تقريباً . الطبيعة الخارقة تمقت الفراغ الخارق ، وسيأتى إنتشار الإسلام بموت المؤسسات المسيحية والتقاليد .

« كنت أظن أن انتشار الشيوعية العالمية أمر أكثر احتمالاً » .

ـــ ألا ترى أن مصطلح الشيوعية يعتبر مقابلاً لفظياً غامضاً لا يزيد فى نظر معظم الأمريكيين على صرخات ليس لها جوهر أساسى ؟ ... وربما أثبت التاريخ بحلول القرن الحالى أن التسلسل الذى رآه ماركس كان خاطئاً ، فلقد ظن أن الثورة فى المناطق التى تنتشر فيها الصناعة المتقدمة حينما يثور العمال ضد الطاغية الرأسمالى ، وإذا بالنقابية لا الثورة تكون هى الرد على القهر الرأسمالى وتقوم الثورة

في البلاد المتخلفة وربما كان التسلسل التاريخي كالآتي : الفقر ، الشيوعية ، الرأسمالية ، اختر ما تشاء مما أمامك من صور الطغيان ، لك الحرية في ذلك ، أما أنا فأفضل الطغيان المعتدل لفلسفة المستهلك ... ليس للدول المتخلفة أي خيار من الشيوعية تحدث في سلوبوفيا الجنوبية لا الولايات المتحدة .

« يقول أورويل إن اللغة الجديدة من صميم إنجسوك ، أي أن اللغة الجديدة هي إلى حد ما ــ إنجسوك ــ أليس من الممكن أن الطريقة التي تتطور بها اللغة أو تتدهور تعد من خلالها عقولنا لأن تكون عاجزة على اتخاذ اختيارات تتسم بالعقلانية ، بعد أن نكون قد تركناها خاوية كي تملأها فلسفة ديكتاتورية من الفلسفات » .

ــ هناك تصدع ضخم في اللغة ، فمن ناحية نجد ضوابط العلم والتكنولوجيا حيث تعني المصطلحات أو الكلمات أو الرموز ما تقوله بدقة ، ومن ناحية أخرى نجد غموضاً متزايداً بين عجز كامل في التعبير وبين رطانة عالية الصوت بألفاظ ضخمة ... وتجد في الإنجليزية التي يتحدثها الأمريكيون سيادة منفصمة للهجة العامية والرطانة الخاصة مثل « خلاص ــ يالا بينا نشوف إية حكاية الثياب والتغير المتضمن في اسمه ايه ده ، يادي الكلام اللي زي الزفت ... طيب » .

ألاحظ ميلاً للطنطنة في التصريحات العامة التي نتوقع دائماً أن تكون كاذبة أو مضللة ... أعني أن حملة يمكن أن يوحي حرسها بأنها تحمل معنى ، مادام هناك هيكل بنيوي متماسك ... يكفي أن تظهر في نمط معين لكن معناها لا يهم .

« مثال ذلك ؟ »

ــ لنفرض أن صحفياً سأل رئيس جمهورية ، أو وزيراً من الوزراء عما إذا كانت هناك حرب قادمة أم لا ؟ ستكون الإجابة شبيهة بالتالي : « هناك معايير عدة لاحتمال وقوع شيء ما ، وكلها تستحق دراسة جادة فيما يتعلق بما يثيره سؤالك ياجو ... أن النمط الكلي لإمكان « القتال » من جانبي ... الانقسام العالمي المفترض في طريقه للفحص بالتفصيل ، ولكن العنصر الزمني الذي تستغرقه هذه العملية لا يمكن ــ بطبيعة الحال ــ تحديده تحديداً أكيداً ... هل في ذلك إجابة عن سؤالك ياجو ؟ وعلى « جو » أن يقول : أشكرك يا سيدي وبغض النظر عما

يمكن أن نسميه « بلغة تهرب المحترفين » ، فهناك ميل متزايد فى التخاطب اليومى لاستخدام لغة فنية لا يمكن فهمها بوضوح ... عبارات مثل « علاقة ذات مغزى ... التى لابد أنها تعنى علاقة غرامية » . و « رد فعلك زائد على الحد » التى من المحتمل أن تعنى أنك وقح بشكل بغيض لا مبرر له » ثم تبقى كل الاختصارات التى يستخدمها كثير من الناس دون أن يتمكنوا من ردها إلى أصولها المكونة ... أنا استخدمها الآن أعنى « سالت » و « ماش » و « كيوس » (سمك لبن تمر هندى) .

« وما الـ كيوس ؟ »

ــ مجلس العجائز الحيزبون للممارسة اللعينة غير الكاملة للجنس .

« وكيف سيكون شكل اللغة الإنجليزية فى حوالى سنة ٣٠٠٠ مثلاً ؟ »

ــ من الناحية الصوتية ... ضع فى ذهنك أن هناك صوراً عدة للغة الإنجليزية كل صورة منها لها أصولها التى تعتد بها شأنها شأن بقية الصور ، إلا أنه يبدو أننا ، سواء فى أوربا أو أمريكا ، سنقبل نوعاً من الشكل المهذب يمكن أن نسميه بالإنجليزية قارىء الصحف ــ وهى لا تختلف كثيراً فى لندن عنها فى نيويورك فإنجليزية نيويورك « محافظة » فيما يتعلق بالأصوات ... أى أنها أقرب إلى لغة المهاجرين الأوائل إلى أمريكا أما إنجليزية لندن فقد تجاوزت ذلك بقليل إذ إنها مدت صوت الـ a فى كلمة bath حمام وجعلت كلمة home تنطق مثل heume أى الـ « أُو » إلى « إيه » .

وأنا الآن دائما ما أقول إن تشوسر لو عرف شيئاً عن الثبوت الراسخ الممدودة لاستطاع وهو فى عام ١٤٠٠ ، إن يتنبأ بشكل الكلام فى عام ٢٠٠٠

« وماذا عن شكل اللغة من ناحية المعانى ؟ »

ــ هل لاحظت شيئاً غريباً محبباً فى رواية « ١٩٨٤ » أقصد الميل لاستخدام الاستعارات والتشبيهات الريفية التى يلقيها أورويل على لسان شخصياته ؟ .. فأوبراين يتحدث مثلاً عن أخذ الطفل من أمه مثلما تؤخذ البيضة من الدجاجة ، ويرد ذكر الدول العظمى الثلاث على أن كلا منها يعتمد على الأخرى حتى تظل واقفة على أقدامها مثل ثلاثة حزم قمح فى حقل دريس ، وونستون وجوليا لا يخالجهما شك فى أن الطائر الذى يسمعان غناءه هو « الدُج » وهناك

معرفة كبيرة بالريف فى هذه الرواية التى تتحدث عما وصلت إليه ثقافة المدينة ... إن مايحدث الآن بالفعل للغتنا وسيحدث بصورة أكبر فى المستقبل هو الإزالة الدائمة لمفردات الحياة الريفية حتى كلمات مثل « شجرة دردار » و « شجرة بلوط » و « شجرة جميز » لن يكون لها معنى واضح تقريباً ، وستختصر كل « الأشجار » إلى كلمة « شجرة ! » ، « الطيور » ستصبح « طائراً » ، « الزهور » ستصبح « زهرة » وستزداد كلمات اللغة تجريداً وسيثور ناطقوها على هذا بين الحين والحين فى صورة شتائم أكثر براعة فى التعبير ... لكن الشتائم نفسها لن تكون محددة ، سيكون هناك قدَر كبير من المفردات الغنية المستخدمة فى الحياة اليومية لتحل محل المفردات الطبيعية القديمة ... كلمات لأجزاء الثلاجة ... جهاز تشغيل الشريط فى أجهزة التسجيل ... إلى غير ذلك .

لكن اللغة ستنقطع عن جذورها فى الواقع المادى الرئيسى ، أقصد أنها ستصبح لغة العقل أكثر من لغة المادة .

« وماذا عن كلمات مثل الحب والشرف والواجب والله والإخلاص والخيانة والكراهية والعار ؟ »

ـــ سيصبح من الصعوبة البالغة أن تكتسب كلمات كهذه أى معنى محدد فى غياب نظام تقليدى للقيم الأخلاقية ... صحيح أن هناك إحساساً عاطفياً تثيره كل كلمة ، لكن الأمر أكثر من ذلك ، هنا مكمن الخطورة ، لأن أى نظام ديكتاتورى يستطيع أن يستغل هذه الكلمات ، ويفسد رد الفعل العاطفى الذى تثيره ، ويعطيها تعريفاته الخاصة به مثل « الله هو الكائن الأسمى ... أنا الكائن الأسمى إذن أنا الله » ماذا ياعزيزى ، لكنك تعرف أنك لست كذلك ... فأنت لست روحيا ، قل لى يا عزيزى ، مامعنى روحى ؟

« يقول كيسلر : إننا لن نستطيع التخلص من عداوات الأمم التى تقوم على سوء فهم متبادل بين دول العالم إلا إذا تيسرت لنا لغة عالمية ، فهل هذا ممكن ؟ »

ـ هناك بالفعل لغة مساعدة عالمية وهى اللغة الإنجليزية ... لغة التجارة ... الطيران الجوى مثلا ... لقد قام أوجدين وريتشارد فى الثلاثينيات بحصر صورة مصغرة من الإنجليزية لا تتجاوز كلماتها (٨٥٠) أسمياها « جوهر الإنجليزية »

واشترت الحكومة البريطانية حقوق طبع هذه الصورة ، وكان هذا هو الذى جعل أورويل يرى إمكان وجود لغة واضحة بسيطة سليمة تفرضها الدولة على المواطنين ... يمكن أن يحدث فرض لمثل هذا النوع من اللغة الجوهرية فى بلدان العالم عن رضا عنها ... لغة ثانية تعليمها إجبارى فى المدارس ، لكن لا يمكن لهذه أبداً أن تحل محل اللغة الأولى » .

« هل يمكن أن تقول لنا الحكومات ماالكلمات التى تستخدمها وما الكلمات التى لا تستخدمها كما هو الحال مع اللغة الجديدة ؟ »

ـــ هم يقولون بالتأكيد ما الكلمات التى لا نستخدمها ، وليست الحكومات هى التى تفعل ذلك بقدر ماهى جماعات الضغط التى تؤثر عليها ، ولا أشك أنه سيأتى يوم يصدر فيه فى بريطانيا مرسوم « بتقييد اللغة » ، لقد صارت لكلمات عنصرية مثل « يهودى » و « أحمر » و « بدائى » والأبشع من ذلك كله كلمة « زنجى » صارت هذه كلمات محرمة مثل تحريم الكلمات البذيئة ذات الأربعة حروف فى الماضى والخطوة التالية هى أن يجعلوا القانون يمنع استخدام هذه الكلمات ، وستطلب حركة « حرية الخلاعة » معاملة كلمات « المخنث » و « اللواط » إلخ نفس المعاملة ، وهى حركة كان يجب منعها ، ولو بقوة القانون إذا لزم الأمر ، من قصر كلمة قديمة مهذبة على معنى مخجل يثير الضحك ذى المغزى ، بل لعلهم يطلبون منع كلمات « المخنث » و « بنفسج » لما لها من دلالات جنسية شاذة ، بل قد يسعون لجعل الاحتفاظ بأصيص به بنفسج فى غرفة الطعام مخالفاً للقانون إلا إذا سمى البنفسج « جيرانثيوم » ... ثم إن هناك قوى تحرير المرأة التى تطالب بإعادة بناء الضمائر العامة حتى لا يمكن استخدام ضمير « هـ » لأى من الجنسين ، وبالتالى ستذهب الكلمة العامة « رجل » والتى تماثل فى الألمانية « شخص » أو « س » من الناس ، لتحل محلها تركيبة بشعة مثل « امرء + ة » أو ربما يطالبون بكلمة أفضل منها مثل « امرأة رجل » ... « حقوق المرأة الرجل » ، ولقد تحولت كلمة chairman أى رئيس الجلسة إلى كلمة chairperson أى « من يرأس الجلسة » ، وكان هناك رد فعل لهذا من جانب أطباء التوليد الذين يريدون أن تتحول كلمة midwife أى « مولِدة » إلى midperson أى « من يقوم بالتوليد » ، ولعل اللغويين من حركة تحرير المرأة

يحاولون الآن تغيير كلمات مثل « ولى الأمر » و « أبو فصادة » و « أبو قردان » ، ولماذا لا يستخدمون « ولية الأمر » و « أم فصادة » و « أم قردان » ؟ بل والأقرب إلى الظن أنهم يحاولون تغيير كلمة طلسم **talisman** ... نحن فى طريقنا إلى قيود متزايدة على الكلام وعلى الأفعال سواء بسواء ، لكن قليلا من هذه القيود ينبعث من رغبة فى السلطة المركزية مثل شهوة الأخ الأكبر ... وأنا أعتقد أنها تنبعث مما يجب تسميته بالموقف الديمقراطى .

« وهكذا نجد أنفسنا أمام وضع غريب ... حكومات مهيأة لأن تقع تحت ضغوط حكومات أخرى مدركة لضعفها ، ومع هذا نجد فقراً متزايداً للحرية !! »

ــ إن الاهتمام الذى يلقاه الوعى السياسى من جانب حكومات الغرب ، وهو أمر ربما ينطبق تقريبا على حكومات الكتلة السوفييتية ، أقل من اهتمامها بدفع مواطنيها للضرائب ــ صحيح أن الاستبداد المالى ليس أسوأ أنواع الطغيان ، لكنه كريه بما فيه الكفاية ، بل ويزداد سوءاً يوما بعد يوم .

« هذا إنما ينطبق على من لديهم المال ، والغالبية الكبرى لسكان العالم لا يكسبون قدراً أدنى مما يخضعهم لدفع الضرائب . ألم يكن من الأفضل لنا أن نكف عن التفكير فقط فى مستقبل الغرب ، وعما إذا كان المستقبل سيجعل له قدراً أكبر أو أقل من الحرية ، ونركز على مستقبل كوكب الأرض ؟ »

ــ لا ... هذا يفوق تصورنا ، وعلينا كما قال فولتير أن نرعى « حديقة تفاحنا الذهبى » .

« حديقة التفاح الذهبى ؟ »

ــ حدائق الغرب ... لن يأتى التقدم من خلال الشح ... حيث يصبح الجميع فقراء فى آن واحد .

« هل أنت متشائم بشأن مستقبل الإنسان أوالـ « المرء + ة ؟ »

ــ لقد خرج الإنسان حياً من الثلاثة والثلاثين عاما الأولى بعد استخدام الذرة ... وسينجو من أى أنواع الرعب التى يخبئها له القدر ... الإنسان واسع الحيلة بدرجة كبيرة وسيجد المخرج .

« وإذا لم يخرج منها حياً ؟ »

ـــ ستبقى الحياة ... أتذكر الكلمات التى جاءت على لسان « ليليث » فى نهاية مسرحية برناردشو « العودة إلى ميتوشالح » ؟ أنا أذكرها جيداً اسمع « الحياة فقط هى التى ليس لها نهاية ، ورغم مافيها من المساحات المرصعة بالنجوم التى لا تزال خاوية وكثير منها لم تمتد إليه يد العمران بعد رغم أنها بالملايين ... ورغم أن مملكة الحياة الشاسعة لا تزال كما هى صحراء لا تطاق فسيأتى يوم تسقط فيه بذرتى فى هذه المملكة وتبلغ غايتها » ... وبصيرة « ليليث » غاية فى القصر لا تستطيع أن ترى ما يكنه الغيب وراء هذا الكون المهول ؛ ولكن يكفى أن « هناك غيباً » ، هذا هو مما يؤمن به العقل ... العقل الحر ... العقل الذى يحاول أن يفهم نفسه ... ويفهم العالم الخارجى على حد سواء ... وليذهب إلى الجحيم صغائر الرجال الذين يحاولون عرقلة البحث الحر ، والقول بأن الدولة هى أهم شىء ، وليس لأحد الحق فى أن يسمع بيتهوفن بينما يتضور العالم الثالث جوعاً « أنت مقبوض عليك » .

ـــ نعم ؟ عفواً ؟

« أنت مقبوض عليك » .

ـــ أنت تهزل ... نعم تهزل ... لقد أحسست بشكل ما أنك تهزل .

« لكنك اعتقدت للحظة أننى جاد » .

ـــ نعم ـــ حدث هذا فعلاً ... ياللمصيبة ، بل إنك تعتقد أن الحق فى حرية الكلمة ربما كان وسيلة خادعة من اختراع الأخ الأكبر ؟ هل تعتقد أنه يراقبنا فعلاً ؟ وأنه سيخرج لنا وهو فى شكل الشخصية ذات التشكيل الصناعى الكبير ... الأخطبوط العالمى سيخرج لنا بدون أن نتوقعه ؟

« علينا أن نأخذ حذرنا » .

ـــ موافق ..

موناكو ١٩٧٨



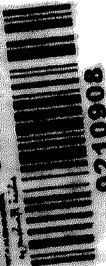
المحتويات

رقم الإيداع : ٧٧١٠ / ٨٧
الترقيم الدولى : ٤ ــ ٧٤ ــ ١٤٧٠ ــ ٩٧٧

الزهراء للإعلام العربى

لا تكاد أذهان أهل الفكر فى العالم الغربى تكف عن رصد ما يدور فى العالم وتحليله وتقديمه للقراء حتى يتسنى لهم اتخاذ موقف مشترك حياله . ومن هنا جاء اهتمام الغرب برصد « الظاهرة العربية » والخطر الذى يتهدد الغرب لو استخدم العرب كل مقدراتهم - المالية والفكرية والعقائدية - استخداما فعالاً ، ولم يقتصر رد الفعل الغربى على التقارير السرية والأبحاث وتوصيات مراكز الدراسات ، بل إن الأمر قد وصل إلى « إحساس » المفكرين والأدباء بهذا الخطر القادم ، فانطلقوا يدقون نواقيس الخطر بما يكتبون ، وإن اختلفت درجات التعبير وقنواته . فقد نجد الهجوم مستتراً خلف عبارة ساخرة فى قصة أو تمثيلية ، وقد نجده واضحاً صريحاً فى كتاب مخصص كله لهذا الغرض .

والكتاب الذى بين أيدينا - وعنوانه الأصلى « ١٩٨٥ » - من ذلك النوع الأخير ، إذ يكاد مؤلفه يخصصه كله للهجوم على العرب والتحذير منهم ، ورغم ذلك فإن المثقفين العرب لم يحفلوا به مما دفعنا إلى أن نكون أول المنبهين إلى هذا الكتاب الهام .



الزهراء للإعلام العربى